رواية
مرتضى كزار
العلموي
دار الرافدين

مرتضى كزار

العلموي

رواية

دار الرافدين للطباعة والنشر

جميع الحقوق محفوظة ©

إلى حميد العقابي، أيا كزار، بدرية فنجان، سوزن موس، مايكل فيلا، دونالد مكولا، غابريللا، ميثم الحربي.

«يبدو أنّنا نستغرق وقتاً أطول كي نرى ما هو واضح تماماً»

عجائب الفيزياء، عن إدوارد آر مورو

قبل ثلاث سنوات تقريباً دخلث كافتريا متحف فراي آرت في مدينة سياتل بأمريكا، كانت في انتظاري سيّدة اسمها تيلر فولي، استغرق اجتماعي بها أكثر من ثلاث ساعات، وإفترقنا على أمل الاجتماع مرة أخرى، وحدث فعلاً أن إلتقينا سبع مرات بعد ذلك، وتواصلنا بالرسائل وبالبريد الصوتي والاتصالات الفديوية كل أسبوع، وكانت النتيجة هي هذا الكتاب الذي بين يدَيك.

تيلر هي رئيس تحرير مؤسسة نورث ويست للمنشورات الأدبية، أرسلث لي بأنها قرأت قصةً من تأليفي منشورة في مجلة أرابيا الخاصة بالأدب العربي المترجم للإنجليزية، وطَلبت أن تلتقي بي لمناقشة موضوع تعمل عليه.

إختارت هي ذلك المكان وصادفَ أن يكون على مبعدة مئتي متر من محل سَكناي، وكانت هذه علامة روحية ممتازة حسبما تقول، فلهذا المتحف صلة بموضوعها، وحالما وصلت أخذتني إلى صالة الفن الفوتغرافي ووقفث أمام صورة مساحتها متر في متر، في قلب الصورة صبيٌ أسمر يركض في الصحراء نصف عار، خلفه أعمدة من الدخان وينتعل جزمة عسكرية للبالغين، وتحت الصورة مكتوبٌ بالحبر الأحمر: عباس ربيع، البصرة، 1991 ميلادي، إلثقطت بعدسة جي. ثومبسن.

أخرجث هاتفها والتقطث صورة سيلفي مع صورة عباس صبي الدخان وعُدنا بعد ذلك إلى الكافتريا،

اِستفاضت في شرحها للموضوع واهتمامها البالغ بقصة الفتى الظَّاهر في الصورة، وأخرجت لي رسالتين من صحفييَن اشتغلا في فتراتٍ متباعدة مع جيش الاحتلال في البصرة، وكان مضمون الرسالتين هو الإشارة إلى شاب يحمل الاسم نفسه، مع صورة له رفقَة جنود بريطانيين ويابانيين وهولنديين، وَضعت أمامي ثلاث صور؛ صورة عباس الصبي الراكض بين الدخان والملتقطة إبَان حرب الخليج الثانية، وصورته شاباً بعد أسابيع من حرب الخليج الثالثة وصورته مع أسد حجري مُفكك، واتَّجه الحديث حَول العثور عليه ليس لالتقاط صورة رابعة له بعد ما يقرب من عشر سنوات؛ بل لكتابة قصته في كتاب يحمل عنوان عبَاس ربيع، كعنوان رئيس بلا خطوط ثانوية.

كنت في تلك الأيام مشغولاً إيَّما انشغال ببحثي، الذي ينبغي أن أقدمه لجامعة واشنطن قبل الشتاء وقبل ثلوج فبراير التي تغيَر أمزجة الناس في هذه المدينة بما فيهم مُشرفتي الأكاديمية؛ لذلك اعتذرتُ بعد أن أبديت أعجابي بالقصة ودعمي لأي شخص آخر سيتصدى لكتابتها ومقابلة المدعو عباس ربيع.

ثم وجدتني بعد ستة شهور من ذلك اللقاء أطيرُ إلى البصرة مجبراً لظروف عائلية، فلقد تأجل بحثي في الجامعة على مَضاضَة، وقضيتُ في البصرة خمسة أسابيع مع الأهل والأصحاب القدامى، أجوب المدينة ونواحيها طولاً وعرضاً، أقود سيارتي وأحرث ذاكرتي،

وقد كنت منذ مدة طويلة أعاني من حَبسة كتابية، حزَنَ على إثرها حمار الكتابة في قلب الطريق مُعطلاً عشرات المسوَدات التي تهمُ بالمرور، وما حدث هو أن تلك الزيارة بعثث بداخلي رغبة خارج حدود السيطرة لمعرفة من هو عباس ربيع، وهل ما قيل ونقل عنه صحيح؟، فأعدت الاتصال بتيلر وصرتُ أمدها بملحوظات مستجدة عن كل ما أتوصل إليه. ولم تمر سوى أيام حتى اِلتقيت عباساً وكان ما كان من أمر هذا الكتاب السِيَري الذي أخذ طابعَ الكتابة الذاتية لضرورة في نفس عباس، فلقد أظهر امتعاضهُ من أن تكتب حياته بضمير الهُو.

لذلك، أرجو أن يَسترعي ذلك الانتباه والعناية، هذه الرواية لم يكتبها عباس ربيع السنجري المعروف بابن ربيع كثافة، لكنه يتفق مع كل كلمة وردت فيها، وفضَلنا أن يكون كتاباً تخيلياً حتى لا نتورط في مشاكل قانونية مع الأشخاص الوارد ذكرهم في النص، ومن أجل ذلك قمتُ باختيار أسماء وهميَة جديدة لبعضهم، وأما الأكثرية، ولاسيَما الأموات منهم، فقد قررنا الاحتفاظ بأسمائهم الحقيقية كما هي، ما لم يطرأ أي شيء يخل بذلك ويجرح مصداقية الأحداث.

أرفع شكري الجزيل له للمشقة التي كابدها وهو يقابل إلحاحي وأسئلتي التفصيلية، وحرصي على أن تكتمل في ذهني الصورة قبل تدوينها، وأعترف له بالفضل وسعة الصدر وطول البال وانعقاد السريرة على الرضا

بالقدر والمقسوم، وهو قولٌ قد يقول الناس ما يُخالفه.

وأخص بالشكر والتحيّة السيدة تيلر ومساعداتها النشيطات في المؤسسة، اللائي كنَّ متعاونات جداً ودقيقات في الفحص التأريخي والاستشارات اللازمة.

ولله الفضل والمنّة، عليه التِكلان من الخِذلان.

مدين حيّاوي

5 نيسان 2016

«الحَقيقة العارية لا تَتمشى في سوق الخيّاطين، إذا رَأيتها هناك فساعِدها في لبس ثيابها وخُذها معك إلى البيت»

صبرية

«في العلم، يذهب الفضل إلى الرجل الذي أقنع العالم، لا إلى الرجل الذي خطرث له الفكرة»

عباس ربيع نقلاً عن فرانسيس دارون

«إذا زادت القُوة ازدادث السرعة، فقصُر الزمان، فإذا لم تَتناه الشدّة لم تَتناه السرعة، وفي ذلك أن تصير الحركةُ في غير زَمان أشَد، لأن سَلب الزمان في السرعة نهاية ما للشدّة»

فيلسوف الحركة، هبة الله بن علي البصري البغدادي

البصرة، البرجسية، من أيام السنة 1986 الميلادية

لو افترضنا أنك في الصفحة الأخيرة من مجلة ألف باء ووَقعت عيناك على لعبة أوجد الفروق الخمسة، وتحت العنوان صورة لي وصورة لشقيقي فاضل. بعد خَمس دقائق أو أكثر، بعد جهد ومعاينة وتركيز، ستُعلن خسارتك وتطوي أطراف المجلة مُشككاً باللَعبة وبجديَة مُحرر الصفحة، ولكنَّ هذا لا يعني اِطلاقاً أنني عباس نسخة طبق الأصل من فاضل، المصورون، من دون جدوى، بذلوا ما في وسعهم لجعل الفروقات بيننا مبسوطة للناظرين، وعلى وجه الخصوص، ذلك الفرق الأوحد الذي يسمح لعباس أن لا يكون فاضلاً، والعكس بالعكس.

نتشارك مظهرياً في أمورٍ كثيرة، الأنف والعين والحنك والحاجب والصدغين والخدود المزججة بالبثور والحصف؛ وياقات القمصان المعقوفة مثل أجنحة الطائرات، لتصد دوامات الهواء كما تقول نكتة الطلاب في مختبر العلوم عنّا.

هنالك ميلانٌ ملحوظٌ في القوام يَبرز جلياً في حال المشي. في التصاوير الرسمية تحتاج إلى حَرف الصورة قليلاً عكس مستوى الشاقول لترى تقاسيم وجهينا متناظرين. في رسمة تخطيطية تشبه رسومات الكهوف الآثارية، بالفحم والرصاص على جدار المرافق غير الصحيَة لمدرسة سبعة آذار في البرجسية؛ أظهرُ يداً بيد مع فاضل، لا تقول الرسمة شيئاً ذا مغزى بالنسبة للزملاء

والرسّام نفسه، الأمر الذي يعني بأنها تقول الكثير، فهذه وظيفة شخابيط عيال البرجسية، تقول الكثير حينما لا تقول شيئاً.

في الشخبوطة دائرتان، الدائرة التي تمثل الرأس تتماثل رياضياً مع الدائرة التي تمثل الرأس الآخر، فالطلاب، كانوا؛ مثل اللاعب للعبة الفروق الخمسة؛ يبحثون عن الفرق الوحيد طيلة الأعوام التي قضوها في مجايلة عباس وشقيقه فاضل؛ فاضل وشقيقه عباس.

في تلك الأيام، كان الذين يعرفون الفرق الأوحد بيننا هم بضعة أنفار، أقل من أصابع اليد الواحدة، اليد الواحدة لأبينا الحاج ربيع، ربما لأنه كان أكتعاً يعيش بذراع واحدة. الناس في هذه المدينة يعرفون هذه العائلة جيداً ويتندرون قائلين؛ إن الفرق الأوحد مثله كمثل السر الأعظم الذي يتناقله خاصة القوم وعلية الأقارب. وما هذه سوى طرفة شائعة تروى على موائد مكبوس الروبيان ومرقة الشبت واللوبا في أيام الجمعات، فلا أحد مشغول حقاً بتقصي الاختلافات الشكلية بين التوأمين عباس وفاضل، لا شيء في سيرتنا يتطلب ذلك الاهتمام الجاد من قبل الآخرين. إنها سيرة عاديّة لكتلتين من لحم وشحم وماء وهدوء اضطراري تمشيان في مسار دائري مغلق؛ بين المدرسة والبيت ومسجد عمال النفط في بوابة البرجسية، مع فلتات سرية عن ذلك المسار لا يعرف عنها أحد.

في غابة البرجسية التي نبتت على أطلال البرجس، وهو قصر قديم بين الرمال، وعند الممشى الواصل بين المدرسة والبيت، ندعك يومياً ظلال الأشجار ونمشي بسلام تام، تتحرك الأوراق وتدفعها الريح وتتحدث الأغصان، «إنه حفيف الشجر يا عباس، فالأغصان لا تتكلم»، يقول لي فاضل.

أما بالنسبة للحاج ربيع فهو ربيع فالح مطلك السنجري، أبونا المعروف بالمستر كثافة، اعتمرتْ سيرته هذا اللقب خلال خدمته المهنية لأكثر من أربعين عاماً مع المهندسين الإنجليز والهنود والروس في شركات حفر الآبار النفطية. فقد فيها نصف صوته وثلث عمره وكامل ذراعه.

ولأنه يستطيع قياس كثافة الأشياء السائلة بالنظر إليها فقط، فقد استحق لقب مستر كثافة الذي لا يخالفه الرأي أساطين النفاطين والخبراء.

رغم ذكاوته التي تلهج بها كل آبار النفوط وشراييها المغروسة غرباً وشرقاً في تلك الرمال، لن يكون المستر كثافة محترفاً جداً في لعبة أوجد الفروق الخمسة، هو نفسه محتاج إلى سكتة قصيرة قبل أن ينادي على الاسم المناسب إذا أراد أن يطلب من أحدنا شيئاً، وكوالد عجوز يدرك بأننا أولادٌ كأولاد الأولاد، يتغاضى كثيراً عن تفاصيل وجهينا ويتنعم بافراط في تدليلنا ومعاملتنا كأحفاد؛ نتعرش حوله كل مغربيّة بعد عودته من نوبة الحفر في نهاية يوم ملبد بأطيان الآبار

ومساحيق الأرض ومكياجها.

الناس عنده صنفان، نفّاطة وغير نفّاطة، مشتغلون في النفط وغير مشتغلين به، والأرض بالنسبة له، ليست كما هي بالنسبة للآخرين، هي ليست مسطحة ولا بيضوية، إنها بالونة هائلة الحجم، الأرض طبقاً لخبرته الطويلة في حفرها ونبشها وزرقها بالأبر والمحاليل؛ بالونة صلدة ووظيفته هي طرقها بالمسامير حتى تنكمش تدريجياً، وتضعف قوتها وهي تمدنا بالغازات والنفوط، قبل أن تنفجر ونختفي جميعاً معها إلى الأبد، هذه ليست نظريته في علم الأرض، إنها مجرد خيالات تطرأ له كثيراً وتتحول إلى صورة مؤكدة في عقله، فالمستر كثافة لا يقرأ ولا يكتب ولم تجرب مؤخرته ذلك الخدر الذي يتسرب إلى الناس من مصاطب الدراسة، هكذا يعبّر حينما يشعر بأن من يحدثه يرى في أميّته منقصة قاتلة. يتلفت يمنة ويسرة ويطلق جملته، لأنه لا يريد أن يكون بذيئاً، لا يريد أن يبدو كذلك، أمام الآخرين وأمام النساء بشكل خاص.

الثلاثاء؛ كان يوم ثلاثاء، لأن عمال نوبة حفر البئر خمسين كانوا يبيتون في أحضان زوجاتهم كل ثلاثاء، الثلاثاء هو اليوم الذي أقرَّ واعتمد فيه مستر كثافة إحدى العلامات الفارقة بيني وبين فاضل، كانت رائحته تشبه رائحة الكمأ الذي تغسله الأمطار وتكنزه بين المحار والشظايا، ينظر إلى باطن كفه ويتظاهر بقراءة خطوطها، وهو ما يفعله عادة حينما يسكن إلى سريره،

ليس مع كفه فحسب؛ بل مع زخارف أرضية المنزل المشيد على الطراز الاسكتلندي؛ كسائر بيوت البرجسية التي بناها عمّال شركة النفط البريطانية في الثلاثينات، من الطين الأحمر والخشب الجاوي.

يعتقد أبي أن القراءة؛ ليست للكلام المخطوط أو المكتوب أو المطبوع فقط، إنما لكل جسم وشكل، وهو للأسف غير قادر على قراءة كل تلك المكتوبات في العالم حوله، وهو شعور يجعله مؤمناً بظلامته الكبيرة وحجابه الحاجز عن فهم الأشياء المحيطة به، فتراه يبدو دائماً كمن يكلمك من وراء حجاب.

سمع صوت شيء ما يترطم بالأرض، انتعل خفه وخطى نحو الباب الخلفي الذي يسلك نحو الحديقة، نصف القمر كان معلقاً في السماء ونصفه الثاني كان مخبوءاً خلف شجرة جمبوزا فتيّة. لم تتبين بعد كتلة ذلك الشيء الذي جعله يقفز من سريره عارياً وفي قلبه خشية من مكروه قد وقع عليَّ وعلى فاضل. الحديقة لا تقول شيئاً ولا السياج، فتح باب السور الخلفي وتقدم نحو الشارع. كنا نائمين، يبدو علينا التعب بعد جولة عبث وشقاوة في الخارج، ونحن حينما ننام نفترش الأرض وننكفئ فوقها منبطحين، البطن للأسفل والساقان تتراقصان في الهواء، نفقد اتصالنا بالعالم ويصعب ايقاظنا.

تلك النخلة التي وقعت وأصدرت غباراً ودوياً عالياً لم تفلح في فصلنا عن نومتنا الثقيلة.

لكنه يعرف كيف يوقظنا ويرفعنا من الأرض، وبذراع واحدة يستطيع ذلك العجوز أن يقود صغيريه ذوي الأعوام السبعة إلى الفراش، ثم يعود إلى الشارع ليتفحص ساحة اللعب.

لقد قَضينا أكثر من سَبع ساعات في تصنيع هدية له، وذلك يفسر كل هذه الفوضى والكراكيب وأدوات المطبخ المنتشرة في ناصية الشارع، لا تستأهل الهدية كل هذا العناء وقد صار الأمر مملاً وداعياً للضجر، كل مرة نخيَم في وسط الطريق الاسفلتي ونزعج الرائح والغادي ونقطع الدرب من أجل صناعة الهدية نفسها، الهدية نفسها كل مرة، قد تطرأ عليها بعض التعديلات، لكنها في آخر المطاف تحويرات شكلية لا تغيّر جوهرها.

حمل الهدية وهو يتمتم في نفسه، يتذمر ويحوقل ويستغفر، ويتوعدنا بقطع دابر الدلال والحنوَ الزائد الذي يسبغه علينا، لا يريد أن يفسدنا ويقبل منا كل شيء، حتى لو كانت أغرب الهدايا التي يمكن لربيع كثافة أن يتسلمها.

في قرية العمال هذه ذات المنازل المَسقوفة بالقرميد والنورة وثَرثرات الزوجات اللائي يتحدثن الانجليزية والانتظار، لا يضع المقيمون نواطير خضرة أو فزاعات لطرد الغربان والطيور عن حدائقهم، هنالك نخلة صغيرة تقوم بدور الناطور، يسمونها القزمة، القزمة نخلة قصيرة القامة، لا تطول ولا تمتلئ، لا تحبل بالرطب ولا تجود بالجمّار، يزرعها الناس في قرية البرجسية لطرد الطيور

التي تخرّب شتلات الزينة وتنبش بذور الباقلاء، لذلك؛ حينما قرّرنا أن نستعمل جذع نخلة لصنع هدية لأبينا ربيع كثافة، لم نجد أسهل ولا أقصر من قزمة الحديقة، شكل القزمة يشبه الأوادم، وقوامها يُرى مثل شاخص رجل بالغ من بعيد، تنفصل بعض جذوعها كلما كبرت في العمر وتصبح مثل ذراعين، وإذا ألبسها الناس دشداشة فهذا غاية المنال، لأنها ستصبح أقرب إلى قوام البشر.

القِزمة الموجودة في حديقة منزل ربيع تؤدي المهمة كل مرة، نقطع منها جذعاً ونشتغل عليه لساعات حتى تتشكل منه الهدية وتصبح لائقة ومتقنة، لقد خسرت القزمة كل أنحائها تقريباً وهوت إلى الأرض في تلك الليلة، لكنها وبشهادة جودة الهدية منحتنا متعة طويلة الأمد.

كانت الهدية أكثر اتقاناً، من السهولة أن يشعر بذلك، الشيء المرهق في الحكاية أن عليه تجريبها أمامنا في الصباح، عليه أن يقف مع طفليه أمام المرآة، وقبل ذلك، ينبغي أن يرفعهما على طاولة المرآة لأنهما أقصر بعشرة سنتمترات من مستوى سطح المرآة، يضعنا ويقف منتصفاً في المسافة بيننا، يمسك الهدية ويثبتها على كتفه الأيسر، ينخفض قليلاً ليكون كتفه قريباً منا لنتمكن من شد الهدية على كتفه ورقبته بأربطة من خوص.

ولداه ويصنعان له ذراعاً كل حين ويطلبان منه أن يستعملها بدلاً من ذراعه المفقودة، ليست ذراعاً بالمعنى

الدقيق لتلك الكلمة، إنما ذراع من خشب النخيل صنعت بأنامل طفلين يتشابهان في الدوافع والخباثات الطفولية، سيبكيان لو لم يجربها ويبدي انشغالاً بالغاً بها، وما حدث في تلك الليلة أنه نام معانقاً ذراع الخشب واستيقظ على صوت أذان المغرب، وعلى كلام المؤذن وهو يقول:

«المقيمون الكرام، ببالغ الحزن والأسى وبروح صبورة راضية بالقضاء والقدر، تنعى السيدة فيرونيكا زوجها الراحل عنّا إلى جوار الباري، السيد دانيال مكموليان، كبير الحفّارين ورئيسهم الأقدم الذي وافته المنيّة بعد مرض عضال، وسيقام مجلس قراءة سورة الفاتحة على روحه في مسجدنا بعد صلاة العشاء لهذا اليوم، وتقبل التعازي في داره الواقعة في آخر الشارع رقم سبعة».

لمّا همّ بالنهوض شعر بخفة في جسده، أحس أن كتلة منه تنفصل عنه، استعمل أطرافه للبحث في أنحاء السرير عن الكتلة الناقصة، وانتصبَ واقفاً وهو يمسد على كتفه بيده اليمنى، لقد فقد الحاج ربيع ذراعه اليسرى هذا الصباح، ذراعه التي فقدها أصلاً قبل ثلاثين سنة استيقظ ولم يجدها هذا الصباح!، فقَد ذراع الخشب التي جعله النوم يشعره بأنها ملتحمة حقاً بأوصاله وشراييِنه، خطب ما ألمَّ بالهدية، ربما سرقها الولدان، ربما عبثا معه مجدداً أو قررا إضافة تعديل من تلك التعديلات التي لا تنتهي.

ما يهم هو أنه خلال الساعات القليلة الماضية، نجح

في جعل جذع النخلة يلتحق بجسده وينتمي إلى أسرة أعضاء الحاج ربيع كثافة. وبفضل تلك الهدية استطاع أن يشخص فرقاً بين التوأمين يؤهله للحديث عن موضوع العلامات الفارقة بينهما مع الناس.

عباس أيسر وفاضل أيمن، هذا ما أمكنه اكتشافه وهو يراقبهما يشدان الذراع الخشبية على كتفه ويلحمانها به.

لعله دشّن هذه الحقيقة في مجلس عزاء دانيال في المسجد، جرّبَ أن يسلب أفواه محاوريه نحوه ويجرف الحديث نحونا؛ ليقول لهم بأن عباس أيسر وفاضل أيمن، لكن أحداً لم يسأله هذه المرة عن أحوال الولدين الشقيين. الجميع ساهم البال ومطرق الرأس، كل المعزين يضعون كمّامات من الصوف على أنوفهم. كانت سلّة الكمّامات الصوفية مغروسة في بستان المسجد عند المدخل، وكل داخل يستل كمّامة ويتأكد من ضبطها على أنفه ويدخل المسجد. وكان المؤذن يتنقّل بين صفوف المأمومين ويتأكد من استعمالهم للكمّامات.

لذلك، كان صعباً على المستر كثافة أن يفتتح محاورة ما مع مرتادي مجلس عزاء دانيال؛ فهو غير قادر على رصد حركات وجوههم بالكامل ولا قراءة أفواههم.

منذ أسبوعين وصنابير مياه مسجد قرية العمال تنث النفط الخام مع المياه، رائحة الكبريت والقار تسبح في فضاء المسجد والمرفقات الملتصقة به، لقد شيدوا هذا المسجد فوق إخدود طويل يشبه ديدان الأمعاء على

وجه الصحراء، إنه نهيرٌ قديم كان يجري بالنفط بعد حفر البئر الأولى في ذلك المكان، تمَّ ردمه وتسويته وتحويل الأرض التي فوقه إلى معبد للعمال الهندوس، وبعد ترحيلهم مع خروج شركة الأناضول التركية بعد الحرب العالمية، باشرت الشركة الجديدة بتحويله إلى مسجد.

في يوم العزاء الثاني، انتقى المستر كثافة ثلاث كمّامات وركّبها على وجهه وعلى وجهينا، حذّرنا من الاقتراب من سيدة تجلس على المنبر، تلك المسنّة ضخمة الجثة والتي يفيض شحمها وينز عبر ثقوب المنبر وحزوزه الهندسية، لا تقتربوا منها، تلك السيدة ذات الصوت الدائري الذي لا تكاد تعرف بدايته من نهايته، «لا، لا، لا تقتربوا منها، لا تصلوا إليها، هل هذا معلوم؟، معلوم عباس؟، صار معلوم فاضل؟».

حرفيّاً، بعد دخولنا حَرم المسجد، كنا نَتجنب إي تلاق بالأنظار بيننا وبين تلك المرأة. لأننا وفيما يتعلق بطاعة الأوامر، نثير اعجاب الجميع وليس المستر كثافة فحسب، والمريب هو أن لا أحد يصدق ذلك!.

لكن السيدة ترجلت من على المنبر، شكرت متولي المسجد على ضيافته وحسن كرمه، كانت كلماتها الحلوة، وعباراتها نصف العربية المقضومة، مثل تفاح في عربة أطفال مشاغبين، تجذب إليها الأسماع المقيدة بالكمّامات، بدا أنها تهم بالخروج وتوديع الجميع فرداً فرداً، أمسك أبي ياقة قميصه ونترها، تأكد من اعتداله

وتحسّس العطر الماركة في عنقه، عصَر منخريه وطأطأ برأسه قليلاً ثم استعد لوضع وجهه أمام وجه السيدة التي صارت أقرب شيئاً فشيئاً.

إنها فيرونيكا، أو فرونيكة، حسبما يرد اسمها في القصص والسير العائلية لأجداد المعدان الذين اشتغلوا مع زوجها، ويظهر اسمها في تقرير أول بئر نفط حفرث في البصرة، كان زوجها يتسلم مهمَّته لأول مرة كمساعد للحفّار، وكان أول ما يطرأ على باله وهو يسجل ملاحظاته عن عملية حفر البئر الاولى هي وصية رئيسه الأساسيَة: سجل كل شيء، دوّن كل ما يحدث، ضع على الورق أي شيء تسمعه، من العطسة إلى تمخطات عمّالك الأغبياء، من صوت آلاتك وهي تحفر الكلس والأملاح والمعادن إلى نعيب الغراب أعلى برج القيادة، من حسابات الزيت والطين وأرقام الكثافات إلى رغاء الأبل وصياح حادي الأغنام وهو يحيينا من بعيد ويسألنا عن قبس من النار في الليالي القارسة.

لكن فيرونيكا لم تكن معه في أعلى الحفّارة، كانت تعيش في دبلن على مبعدة آلاف الكيلومترات، خطيبة حديثة العهد بخطيبها، يفصل بينهما شط وبحر وخليج وقارة كاملة، ستكون زوجته بعد عدة أعوام ويستقدمها معه إلى البصرة، تتنقل معه بعد أن كانت تقرأ صلاة الانتظار في غيابه لسنوات؛ منقطعاً بين الرمال والطين وشتائم عربية وهندية ورومانية لا يفهمها.

في ليلته الأولى كمساعد للحفار، أرسله الحفار

ليتفحص عمليات الحفر ويصف المتغيرات ويدونها في قرير. واستوجبَ الأمر أن يصف ذلك الصوت الذي تطلقه الآلات وهي تقترب من طبقة حجرية شديدة الصلابة، صوتٌ لم يسمعه من قبل، لم يطرأ على حواسه خلال أيام خدمته كلها عاملاً في حفَارات آبار الرميلة وبازركان وفردوسي، تلعثم وتردد وتباطأ وهو يختار الاسم المناسب لذلك الصوت، لم يجد كلمة مناسبة لتوصيفه وإيفائه حق الوصف، فكتب مذيلاً تقريره: صوت يشبه صوت فيرونيكا.

تَقدمت فيرونيكا واجتذبث كف المستر كثافة لتصافحه، كانت تتحسب بأنها ستربكه لو مدت له يدها مفتوحة، فقامت بسحب كفه إليها، ثم انحنت على رأسي وعلى رأس فاضل تقبلهما بالتساوي. تمعَن كثافة كيف غاصَ طفليه في لجاج العباءة العربية التي تهوى فيرونيكا ارتداءها، شاهدهما يندثران ويغوران عميقاً في ملابسها، فَطن لوهلة بأننا قد نضيع داخل جسم فيرونيكا. اشتعل وجهه حانقاً ومدَ كفَه ليسحب طفليه دون أن تلاحظ السيدة ذلك.

تركث على وجوهنا ابتسامة شُكر وممنونية، وانصرفث.

أوائل شهر شباط من السنة 2013 الميلادية

في الساعة الواحدة ظهراً من يوم الثلاثاء الموافق للخامس من شباط، وَقعت طيارة ميراج أف وان عراقية على جبهة النهر، حطّت مثلما تَحط النياشين على أكتاف المحاربين، استوث قريباً من المسطح المائي المقابل للقصر الرئاسي، لم يفلح فريق الانقاذ المناوب ولا القوات البريطانية المرابطة على الرصيف في إسعاف الطيّار، لأنه، وكما يبدو، كان غواصاً بارعاً، ذاب في الماء ثم ظهر على الجرف قبل أن يرتطم أنف الميراج بالماء، لقد منح الناس من على سطوح المنازل، والسابلة في الطرقات العامّة، والصيادين على حوّاف الشط، ربع ساعة من الشد والتشويق والانتباه، جعلهم يبحثون عن طائرته التي نزفت في الجو خيطاً فاحماً من الدخان، ما زال معلقاً في الجو، الأمر الذي وفّر لهم صورة مستعادة لطائرته وهي تتلوى وتتقلب، كلهم كانوا يشيرون نحو السماء، نحوه ونحو طائرته، هبوطه المثير من الأعالي كان ضيفاً غير متوقع بالمرّة على للبصرة.

وهو ما تأكد للجميع حينما تقدّم الطيّار نحو جمهرة الناس التي انتظرته على الجرف، يحمل خوذته وسعادته بالنجاة، ودزينة من الأسئلة.

كنت أنا عباس ذلك الطيار.

طَبَبوني وضمدوني وسقوني، حَزروا جنسيتي وتعاقبوا على التنبؤ بالدولة التي قدمت منها، أحصوا وذكروا كل دول الجوار قبل أن أنطق بكلمة، لفوا جسدي

ببطانية رمتها إحدى سيدات ذلك النهار من البالكونة. هدأ الجميع ليصغوا إلى إفادتي أو قصة هبوطي بطيارتي على رأس ظهيرتهم في ذلك اليوم.

كانت هناك عشر دقائق كافية تماماً ليقع الجميع في نوبة ضحك هستيرية.

وما تلا ذلك من الوقت، هو ردود أفعال طبيعية لادعاءاتي وشهادتي.

حرب إيران انتهت منذ خمس وعشرين سنة.

هذا ما تعالت به الأصوات في الجمهرة حيث يتحلق الجميع حولي، كنت في أنظارهم طيار شاب يدّعي بأنه عائد من حرب إيران التي انقضت منذ سنين، يقول بأنه فقد الاتصال بكتيبة الارسال وضلَّ طريقه مع السرب المتوجه لقصف أهداف مركزة في جبهة العدو.

«لكن المنازلة الجوية انتهت منذ خمس وعشرين سنة، هل كنتَ معلّقاً في السماء كل ذلك الوقت، هل أرسلتك عمّتك لشراء الصمون؟»، بصوت خفيض علّق رجل وهو يفتل لحيته البيضاء وينسحب من الجمهرة.

فالكلام صار هزلياً وظنّ الناس بأني مخبول من وقع الصدمة وشدة حادثة السقوط على نفسي.

لكنهم تركوني، ولم يلاحظوا ملابسي العسكرية التي تنتمي إلى كتيبة الصقور المشهورة في حرب الثمانينيات، ولم يتوقفوا عند تسريحة شعري ولا حتى عند أزرار بدلتي التي تشير بثقة؛ إلى أني طيار سقط فعلاً من جيب السماء، وإنني لا أنتمي إلى ذلك اليوم

بأي شكل من الأشكال.

أنا في الحقيقة، وليتهم يعلمون، لا أنتمي إلى أي لحظة.

تركوني مع أني كنت أتمسَّح بهم وأتوسلهم كي أفهم منهم ما يحدث حولي، فمن السهل عليهم التوصل إلى نتيجة تطمئنهم والاعتقاد أنَ الطيَار فقد عقله، لكن، من العسير جداً أن أتوصل إلى نتيجة تطمئنني لأعتقد أنَ جميع هؤلاء قد فقدوا عقلهم.

الناس، أو بعضهم، وتحديداً أولئك الذين شعروا بالملل لأن العرض لم يعد مسلياً، تفرقوا عني وامتصتهم أزقة البصرة، أما الآخرون فقد حاولوا مرافقتي ومتابعتي أكثر، ثم سرعان ما انفضوا من حولي وتركوني أمشي وحدي بملابسي الرطبة، وبالأجنحة الصفر والقرمزية التي تطرَز بدلتي.

صقر تائه سقط من الجو.

ليس من هذا الجو، ولا من ذاك، إنه من جو آخر بعيد، بعشرين سنة أو أكثر. جو الحرب الضارية ذات السنوات الثمانية المَريرة.

سمعت طيارتي تقرقر على سطح الماء ثم تذوب في العمق، تتلاشى وتغرق.

أرخيت سمعي للشبابيك وهي تفيض بالأغنيات والثرثرات المنزلية، سمعت شتائم جديدة لم أكن أعرفها من قبل، تمتمت مع نفسي: هل يعقل أن ما تغيَر طيلة عقدين من الزمن هو تقنيات الشتائم فقط.

كيف وقعت بطيارتي داخل ذلك الأخدود الزمني ولماذا لم يستغرقني الأمر سوى بضعة ثوانٍ.

أصوات المساجد تلتحم ببعضها وتتعانق في قبة السماء، وبدلاً من صور الرئيس صدام حسين، احتشدت الحيطان بصور أناس آخرين، والأفق مسدود بصور جديدة كما لو كانت صورة جماعية لحفلة الخروج من ذلك الزمن، زمني الذي أتحدّر منه. صوت ديك يصيح في عز الظهيرة، صوت كعب كبير لا مرئي يدعس الأرض ويجعلها تنوء بالذكريات، صوت رجل يستحم في بيته ويلهج بأغنية غريبة، سيارات كأنها من المستقبل، وجوه تحدق بي وأخرى تتجنبني.

ما اسمك الكامل وعنوانك؟

اسمي عباس ربيع فالح.

عنواني هو بصرة، عويسجيان، من سكنة البرجسية سابقاً.

أجيبُ بوضوح ودون تلكؤ على أسئلة الشرطي الذي استوقفني وأنا أهيم على وجهي في أزقة السوق وأجذب أنظار المتسوقين.

بعد ذلك الحوار المجهد، عرفتُ أن الطريقة المثلى للتخلص من كل هذه المتاعب هي تبديل ملابسي، وتبديل انفعالات وجهي وتعليق نظرة لا مبالية تصلح للتمشي في سوق العشّار. والأهم ألا أصاب بالعجَب، وهو أمر مضمون من هذه الناحية، فما أسهل عندي أنا؛ عباس ابن المستر كثافة، أن أحافظ على وجهي ذي

الملامح الاعتيادية والمضادة للتعجّب، نظيفة من المفاجأة والاندهاش. فأنا؛ ومنذ طفولتي تقريباً انطفأت في داخلي غدة تحسّس العجائب والأمور الغريبة، وصرت لا أشعر بالدهشة حتى لو قفز أمامي أرنب مجنح.

وعلى ذكر الأرانب، ففي أول ليلة لي بعد سقوط طيَارتي، وخلال تجوالي في سوق الطيور والحيوانات؛ شاهدت لافتة مكتوب عليها: اختر أرنبين وخذ الثالث مجاناً!.

أعادتني هذه العبارة حفنة سنوات إلى الوراء، ودفعتني إلى تذكّر السيدة فيرونيكا حينما كنا أنا وفاضل نحج إلى بيتها كل عصرونية، وبينما ننقب ونعبث ونبعثر أشياء وحاجيات منزلها؛ كانت الأسئلة تقفز في وجهي مثل الأرانب، ثم حدث أن وقع في يدي تمثال شمعي صغير لرجل كهل ذي لحية مربّعة، محني الظهر وعلى وجهه صدى ابتسامة، يرفع لافتة مكتوب عليها بالانجليزية التي لم أكن أفهمها بعد: اختر أرنبك بعناية.

عندها، فسّرت لي فيرونيكا من هو رجل الشمع صاحب اللحية المربّعة هذا، ولماذا يرفع هذه اللافتة، وبأنه لا يبيع الأرانب.

إنه افلاطون، لكنها لم تستطع وقتذاك أن تقول لي ماذا يريد أفلاطون، كنت طفلاً في تلك الساعة، وينبغي لها أن تعطيني إفلاطوناً صغيراً يناسب إدراكي، فقالت

لي إنَ أفلاطون هذا رجل فاهم، حلّال مشاكل وطباب خير، ويطلب منا أن نختار الأرنب المناسب لنلحق به ونحن نركض في هذه الحياة، فمن المفيد أن يكون لنا أرنب نجري وراءه، نتبعه ونصيح به ولا يقف، الحركة بركة والجري للرجال، وأرانب الحياة تساعدنا على نسيان الموت والموتى وتجعل لوجودنا معنى.

لم أكن قد شاهدت أرنباً بعد في البرجسية، لا أنا ولا فاضل، لكن الأرانب ظهرت فجأة في حياتنا بعد شهور.

وأنا أمشي؛ سمعتُ صوتاً خفيضاً في السوق يقول لي: عباس، عباس، تشرب لبن؟

سقطت من فمي كلمة نعم قبل أن أجد مصدر الصوت، نعم مستعجلة ونديّة ومستعدة.

تجلس على الرصيف الضيق، امرأة بين الأربعين وأواخر الثلاثين، أو بين العشرين وأوائل الخمسين، أو امرأة فقط، فقد تعطلت لدي أيضًا غدة اكتناه الأعمار واحراز السنون.

كل هذا التردد اضمحل حينما اقتربتُ منها، ناولتني طاسة لبن تسبح فيها قطعة زبد صغيرة، كرعت منها وضحكت وشاهدت شعرة تنفصل عن شاربي وتعوم في اللبن، أحسست بملوحة الشراب توقظ رأسي وتغمره بالسعادة.

وضعت المرأة التي اتضح بأنها تعرفني جيداً؛ غصن نعناع صغير في شرابي، واصلت ضحكتي ونصف وجهي مغمور في الطاسة، أما هي؛ فلكزتني على ظهري

وطلبت مني أن أقرأ الفاتحة، إنها توزع اللبن على المارّة وتحتفل بمناسبة ما.

لم أعرف بعد ما هي المناسبة، لم أشأ أن أسألها، هي تعرف؛ أكثر من غيرها، بأن كذّاباً مثلي سيكون محتاجاً لأكثر من نصف ساعة كي يستعيد وضعه ويعود لشخصه الحقيقي ويختلط بالناس بصورة طبيعية من جديد، ويقنع نفسه بأنه يعرفها جيداً.

صبرية، وهذا هو اسمها، تستمتع بمراقبتي وأنا ألعب لعبة الخروج من آلة الزمن كل مرّة مع الناس، لا أحد يميزني في الغالب وتنطلي الحيلة على الجميع، ويمر اليوم بسلام وأنا استعد لحيلتي الزمنية الجديدة، ونضحك سوية، فصبرية لطالما كانت شريكتي في النصب على البشر وتمثيل دور المشدوه والخارج من علبة الماضي.

تطلب مني أن نتقاسم معاً نصف المبلغ الذي أجنيه من خداع الناس بلعبة الزمن، لكني لا أرضخ لابتزازها حتى عندما تخبرني أنها محتاجة لكتاب ما أو مراجعة دورية للطبيب.

استعمل حمام شقتها وأبدل ملابسي التنكرية، وأكتفي بدس ثلاث ورقات نقدية في جيبها وأغادر.

ثم أعود إلى الماضي متأهباً لعرض جديد وأظهر من فجوة الزمن في يوم لاحق. شاطباً من ذاتي كل إمارات تأنيب الضمير وأجد ألف عذر وعذر لممارسة ذلك النصب وتلكم الحيلة، فبأي وجه حق؛ يرغب الناس

باستذكار التأريخ ورجالاته وحروبه وتعاف قلوبهم عشر دقائق يفتعلها عباس ربيع ليسافر من الماضي إلى المستقبل، عشر دقائق لا أكثر؛ يبخلون بها علي، ويظهرون كرمهم المفرط وحفاوتهم الكبيرة وهم يهرقون أياماً طويلة في استحضار ذكريات مَن ماتوا قبل مئات السنين، إلى أي منطق يحتكمون!.

قبل اسبوعين من ذلك اليوم استخدمت سذاجة صبرية وخدعتها، فقد كنا ببغداد، ذهبنا معاً، هي لحضور مهرجان شعري؛ وأنا لإجراء مقابلة الحصول على فيزا في السفارة الأمريكية، وكما في كل مرة، يتم رفضي وأجر أذيال خيبتي وأمضي.

لقد انطلت عليها كالعادة، تلك الحيل التي أصممها للناس أمام عينيها، صبرية كانت تعبر الجسر بين الكرخ والرصافة، كل شيء فيها يقول بأنها لا تعيش ببغداد، كل شيء فيها يقول بأنها قدمت من البصرة لتمشية أمور معاملة رسمية، وأنا أمشي خلفها تسحبني سلسلة لا مرئية تربط بينها وبيني.

لاحظتني وأنا أمعن النظر في وجه امرأة أخرى، غرزت إصبعها في خاصرتي وطلبت مني الانتباه كي لا أصطدم بأحد من المارّة.

«سنتراهن، نتراهن من لاشيء، سأفوز في الرهان واعطيك لا شيء، وأنت تعرفين بأن اللا شيء هو أثمن ما أملك»، التفت نحوها وقلت لها ذلك.

«ما هو رهانك؟، أنا سأستقر واقف هنا ولن أدافع

عنك لو أمسكك الناس وضربوك أو لو اعتقلك أحد»، قالت ذلك بنبرة غير جادة طبعاً.

«سأذهب لهذه الفتاة وأجعلها تمسك يدي».

«لو ذهبت إليها فسأجعلك تبات الليلة في صندوق البطة»، أجابت وهي ترفع من حدة غضبتها. وصندوق البطة هو صندوق سيارة التويوتا التي كانت العصابات تضع فيه ضحاياها قبل قتلهم، وهو أمر كان مشهوراً في البصرة آنذاك.

أجبتها وأنا أجذب رأسها وأضعها تحت جناحي: «لا صناديق للبط هنا، في بغداد يستعملون صناديق أخرى».

بعد دقائق كنت قد جثوت أمام المرأة الأخرى وطلبت منها أن لا تعبر إلى الضفة الأخرى من الجسر. كانت شابة أصغر من صبرية، تضع عوينات واسعة مظللة بالأحمر على وجهها.

أخرجت لها هوية الأحوال المدنية التي تحمل اسمي ورسمي مع تاريخ ميلاد يقول بأني ولدت في العام 2030، جعلتها تفكر قليلاً ثم باغتتها بصورة عن شهادة تخرجي التي تشير إلى حصولي على الماجستير بعد ثلاثين سنة من ذلك التأريخ؛ هنا، وفي تلك اللحظة المتجلطة من الزمن، قررت الفتاة أن تستسلم لكل ذرة براءة وبؤس في دمها، ووضعت يدها في يدي وسألتني أن أهدأ وأستقر وأخبرها بما عليه فعله.

شرحت لها؛ وصبرية ترمقنا من بعيد وحذرتها من

العبور إلى الضفة الأخرى من جسر الجمهورية؛ الفاصل بين الكرخ والرصافة، فهذا الجسر عانى اليوم من ردمة في الزمن والوقت في الجهة الأولى هو غير الوقت في الجهة الأخرى، الناس في الجهة الأولى أكبر بخمسين سنة من الناس في الجهة الأخرى؛ وأنا الوحيد الذي يعرف ذلك لأن ردمة الزمن لم تؤثر فيه وبمقدوره الانتقال بين الضفتين بسهولة.

سألتها: «هل تريدين العودة بالزمن إلى خمسين سنة سابقة؟».

قالت نعم، ثم حاصرتها بعينيي فطاوعتني، سحبت يدي وصافحتني وركضت نحو الضفة الأخرى.

وأنا اصطحب صبرية معي إلى الفندق كنت محتفظاً بذلك الدور ومتلبساً به، وزعمت لصبرية التي ما تزال غاضبة بأن الفندق كان في المستقبل، ثم نفَذت على جسدها كل الأشياء اللذيذة، والمستقبلية، والتي تفوق تصور السياق الزمني لأعضائي، والتي يمكن أن ينفذها رجل من الماضي بامرأة من المستقبل.

بعدها بأيام، كابدت صبرية معي نفس العواقب الفيزياوية لسيولة الزمن على جسدها الفائر البض، وأتيح لها أن تعرف أن لا زمن ولا بطيخ، وإن ما أفعله؛ أنا عباس ربيع عباس الكذاب هو أمر لا يخلو من علاقة بقوانين الكون، غير أنها قوانين الكيمياء، لا الفيزياء.

شيء يسمونه المحبة.

المحبة التي تجعل الرجال يكذبون ويخرقون حاجز

الزمن ويطلقون شواربهم تعوم في اللبن المخلوط بالزبد.

المحبة كطاقة مؤكدة تسري بين طرفين غير متوازيين، تؤلم الأول ويلتذ بها الثاني، هذه هي علاقتها بي، أما ما يقوله الشعراء والكتاب والفلاسفة والعاشقات الموهومات فهو موضوع آخر، موضوع خيالي ومن جنس الحكايات الخرافية.

بالنسبة لها، كل ما أقوم به غير موثوق وغير صالح للاستيعاب، فمثلما أعرف كيف أوهم الجمهور بأن طيارتي سقطت من الجو، أستطيع أن أوهم صبريَة بكل ما أريد، ومثلما أحضّر خلطة محاليل وأبثها في الهواء فتصنع خيطاً رمادياً يوحي بأن جسماً معطوباً سقط من السماء إلى الأرض، كالطيارة مثلاً؛ بمقدوري أن أخدع صبريَة بسقوط أشياء أخرى أرتئيها حسب الحاجة والطلب والظروف.

مستعيناً بالسفن الجاسئة على شط العرب، وبقطع الحديد والسكراب ومخلفات الحرب الطافية على وجه الماء، صنعت بقايا هيكل يمكن أن يُرى من بعيد كهيكل طائر أو نصف طائرة، ربع طائرة في واقع الأمر؛ يكون كافٍ جداً للتمويه واشعار الجمهور بأن جسم الطائرة الغاطس في الماء أكبر بكثير من جزئها البائن خارج الماء، أنا ماهر في وضع المكياج على الأشياء، لا لتبدو حقيقة، بل لتبدو واضحة، فالمهم هو أن تبدو الأشياء كأشياء واضحة حتى لو لم تكن دقيقة، سجلت ذلك

ذات اليوم على زجاجة سيارة شاحنة متسخة: المهم هو الوضوح لا الحقيقة، وهربت. أحبّ سائقي سيارات الأجرة والعتّالين وأهل الباصات وسائقي الشاحنات تلك العبارة التي تبدو بأنها نازلة من أبراج المثقفين المتعالية، فنسخوها للطرفة على مركباتهم.

صحراء البرجسية، يوم ما من أيام السنة 1987 الميلادية

خبأ أبي يده في الثلاجة، إنها وسيلة مناسبة لمنعنا من العبث بها. رف الثلاجة أعلى منا، وأعلى من آمالنا المُعلقة.

وضَعنا في الماليبو ووضعَ نفسه وراء المقوَد، الماليبو سيارة العائلة، أول وجبة سيارات كندية تصل البصرة في السبعينات، لونها يذكره بلطخات الحنّاء على بيوت الحجّاج القادمين من بيت الله، إذا مرّ بها على شجيرات الآس والياسمين يشعر بطاقة تأسره وتضيء نوافذ روحه. أنا وفاضل في المقعد الخلفي ساكتان كما ينبغي، نحدّق في الأفق ونُدقّق، نحن وأبي نركب الماليبو كل يوم خميس ونَفتح جِيد الصحراء، هذا هو المشهد الأساسي فوق هذه الرمال، ماليبو أبينا ربيع هي جزء من أثاث هذه الأرض وحيواناتها الاستوائية.

هنالك قميص أبيض كبير يسدّ الأفق، كتلة هائلة من الصوف الأبيض، وكما في كل مرة، يلاحق بابا كتلة الصوف الكبيرة ويُطاردها، هو ودخان مركبته، قطيع الأغنام هذا هو ما يبحث عنه كل خميس، تقص الماليبو ذلك القميص وتَتفرق الخرفان، يختلط الثغاء بالضحك.

حينما نُبصر أبو الرشمة راعي الأغنام؛ نوقف الماليبو وننزل.

يظهر أبو الرشمة مكسواً بعباءة واسعة، وعلى ظهره حدبة كبيرة، سيتضح لاحقاً لي ولفاضل بأن الحدبة

على ظهر أبي الرشمة ليست سناماً، إنها طفلة صغيرة تتكور خلفه ويغطيها بعباءته.

أول ما يثير انتباهنا في وجه أبي الرشمة؛ هو شاربه الأزرق، لذلك الرجل شنب أزرق مشوب بالرمادي، أزرق بلون بابيونة طلاب المدرسة، لا بد أنه يشرب حليباً أزرق كل صباح، هذا ما دار في رأسينا. ينتعل حذاءً رياضياً بفردتين مختلفتين.

سحب فاضل أكمام قميص أبي، عرف الأب مقصد الولد، انخفض ليلامس أذنه بشفتيه ويهمس: أبو الرشمة يتطيّر من فردتي الحذاء المتناظرتين، لا يفضّل أن تكون الفردة اليسرى تشبه اليمنى، هل تعرف ما معنى التطيّر؟، التشاؤم؟، هو أن تتوقع حدوث الأشياء السيئة، أبو الرشمة يعتقد بأن هنالك أشياء سيئة ستحدث لو أنتعل حذائين متناظرين مثلنا.

خلع فاضل حذاءه ومثله فعلت أنا، تبادلنا الأحذية، ثم تبادلنا النظرات، تلاقت أعيننا من العجب، زمّ فاضل شفتيه غير قانع بالنتيجة، الأحذية ما تزال متناظرة، لأننا نرتدي وننتعل الأشياء نفسها كل مرة.

أبو الرشمة يبيع للمقيمين في الصحراء ولعمّال النفط حاجيات صغيرة مذخورة في حقيبته، يفتح عباءته ولا يحط ابنته على الأرض، تخرج الصغيرة عينيها من فسحة في العباءة ثم تعود لتغفو على ظهره. يدس هو كلتا يديه في الحقيبة وهو يحاور أبي.

أراقبُ أقراط الطفلة الصغيرة وهي تلتمع وتومض

في عتمة العباءة.

تسقط عصا أبي الرشمة.

لدى البدوي ذو الشنب الأزرق عصا من القصب الصلد يسميها الرشمة، ثخينة ومحززة وتفوح منها رائحة لا تشبه الروائح التي نعرفها، الرشمة في قبضة أبي الرشمة دائماً، يراقصها وهو يمشي ويهش بها على الأغنام والذباب والذكريات المزعجة، قد تسبقه وقد يسبقها. سمّاها على اسم عمّته، هكذا يقول، لكن هذه المزاعم كلها تتهاوى إذا ما شوهد وهو نائم، إنه يحضنها ويضعها تحته كما لو كانت حبيبة أو محظيّة.

كل ما يريده أبو الرشمة ليفتح حقيبته هو زوجاً من البطاريات السمينة ليحشو بها معدة جهاز الراديو الكبير الذي يضعه على كتفيه ويجوب الرمال.

آبار النفط تحيط بالبقعة التي توقف فيها القطيع وصاحبه، كانت الأغنام تنزل في حجيرات الآبار وتلعق الزيت الناضح من رؤوس الأنابيب، حجيرات الآبار هي حفر مكعبة دون مستوى سطح الأرض. تعرف غنماته تفاصيل المكان وتعرف ابنته بأنه سينزلها في واحدة من تلك الحجيرات الصغيرة، فقفزتْ من على ظهره واستعدت.

أما أنا وفاضل فقد امتثلنا قبلها ونزلنا في حجيرة البئر، نلعب ونخطّ بالطباشير على متون الأنابيب.

كان الأبوان يطلّان كل دقيقة وأخرى على حجيرة البئر ليتأكدا بأننا والصبيّة في أمان.

تقرفصت الطفلة في قاع الحفرة بينما كنا نطوقها بأعيننا.

«هل عندك اسم؟»، يسألها فاضل.

«أخي فاضل يقول لك هل عندك اسم؟»، أمسك ذيل ثوبها وأشده للأسفل.

يضع فاضل حفنة من التراب على رأسها، البنت ساكنة لا تتحرك، انحني وأمدُ عنقي تحت ثوبها، فاضل يدخل يده في صدرها، وأنا أدس أصابعي عميقاً في جسدها، بنت البدوي لا تتحرك، يقترح فاضل علي أن يرفع ثوبها تماماً لنرى ما عندها، ثم أقوم بوضع حفنة أخرى من التراب على رقبتها. تتسلق الصبية الجدار وتخرج من الحفرة، تطل برأسها علينا وتقول:

«اسمي حدبة».

يتسلم الحاج ربيع حاجياته من البدوي وينادي بنا للصعود في السيارة، يجلس البدوي على أليتيه فتقفز حدبة وتتعلق على ظهره، يلتقط الرشمة ويصيح بالأغنام، إنها علامة الانصراف التي تفهمها حيواناته والأشياء المحيطة به، حتى حقيبته القماشية بدت كما لو أنها تطيعه فتعلقت بكتفه.

وضع المذياع على كتفه الآخر وسمع الجميع صوت الرشمة وهي تلعلع في الهواء بعد أن يحركها البدوي إيذاناً للجميع ببدء المسير. الرشمة وصوتها يأتيان أولاً، لأنها الآمر والناهي والمقود الذي يمخر الرمال شبه المتحركة.

حصل البدوي على البطاريات السمينة التي يريد ومنح الحاج ربيع ما يريد.

في بطن الماليبو استوينا، عباس وفاضل، وأبي من جديد، تحركت المركبة باتجاه البيت، وبعد أن دار المحرك بخمس دقائق أو ست غزتْ الأفق أغنية تقول يمّه أحو يمَا، قادمة من مذياع البدوي؛ وهي اعلان بأنّ القطيع التحم بالصحراء والبدوي قد شغّل مذياعه والتقط إذاعة جمهورية العراق، وانقطع إلى فردوسه الخاص.

لا يشاء أبي اطلاعنا على سر تلك المبادلة بينه وبين أبي الرشمة، كان يحرسها جيداً ويضعها قريبة من أضلاعه، والحق بأننا عرفنا بسهولة ذلك الشيء الذي استبدله بالبطاريات ووضعه في جيب قميصه الأمامي، ولأنه كان يقود بذراع واحده فلم يكن بمستطاعه تفحص ذلك الشيء والاطمئنان على وجوده سليماً داخل جيبه؛ فوق مطبات الطريق المتعرج وبين التلال القصيرة.

فكان الشيء ينجح في اظهار نفسه من خلف قماشة الجيب.

سلحفاة بحجم حبة رمّان صغيرة، ليست أكبر من حجم الكف، تطل من حافَة الجيب وأبي منشغل بالدندنة مع الموسيقى، و«يجر الصوت» مع المطرب الكويتي عبد الكريم عبد القادر.

«إنهما إثنان، هنالك رأس أخرى في الجيب»، يهمس

لي فاضل.

«عباس عباس، إنها سلحفاة واحدة».

«فاضل فاضل، إنها سلحفاة برأسين».

توصلنا لنتيجة نهائية، وهي أن في الجيب سلحفاة صغيرة لها رأسان.

يعيش أبي في عالمين متوازيين، عالمه الذي فيه نحن والمفكات والنفوط والعمال ورؤساؤه العراقيون والأجانب، وعالم سفلي، عميق أيضاً مثل الآبار التي يحفرها.

إذا سلَمنا بأن أعمق بئر حفرها أبي كان خمسة آلاف متر، فإن عالم أبي السفلي أعمق من ذلك بكثير، وما تلك السلحفاة ثنائية الرأس إلا وافد جديد على عالمه السرّي ذاك، يؤمن أبي أن هذه الكائنات الغريبة ستساعده في الرزق وجلب المكافآت المالية. وضعها في غرفته داخل صندوق من الخشب، وحينما غادر في صباح اليوم التالي إلى العمل، كانت سلحفاة الرزق قد استقرت في راحة يدي.

بالنسبة لفاضل فقد كان سؤاله الكبير هو كم عدد سلاحف الرزق التي تملكها حدبة، بنت البدوي.

في المدرسة، وضعناها في صحن من الميلامين، تحت الدرج، روائح عطنة وأشباح تصنعها الرطوبة من أبوال التلاميذ على الحيطان، رقدنا هناك وأمامنا سلحفاة الرزق في الماعون، لم نكن نفكر في أكلها إنما في بيعها، لكن فاضل فضّل أن يعرضها للزبائن بشكل

تسويقي جذّاب، لقد اختار صحناً منقوشاً بألوان تنسجم مع ألوان رقبتها، اجتمع التلاميذ حولنا، غير مسموح لمسها بالأصابع، يمكنك أن تشير نحوها فقط، لا يمكنك أساساً أن تتحدث عنها بسوء. لا يجوز شتم سلحفاة الرزق، لأنها ليست مجرد سلحفاة برأسين، هذا الشيء المسحور يمكنه أن يتحدث أيضاً، وبمقدوره أن يلعنك ويسخطك.

وكأنَّ وجود سلحفاة برأسين كان أمراً عادياً وصعباً لتسويقه أمام هؤلاء الطلبة، فكنا نخترع صفاتاً خارقة أخرى لتلك المسكينة.

الطلبة الأجانب كانوا أكثر انبهاراً بها، قال أحدهم إنها خضراء نفطية، ولو كانت صدئية بلون الصدأ لاشتراها.

كل أطفال النفط والغاز هؤلاء يتعاملون مع الألوان بهذه الطريقة، ألوان الأشياء عندهم هي من مشتقات النفط والصخور ورمال هذه المنطقة، كان يندر أن نسمع بألوان كالأحمر والوردي والأصفر والأخضر والأزرق والنيلي أو التركوازي، إنما ألوان مثل الخاميّ والصخري والخاكي والصبَيري والدهني والأدعم.

الألوان حولنا وبيننا تشبه الألوان في أي مكان آخر، لكنها تحمل أسماءً أخرى، كنت أرى قوس القزح باسم مستعار.

في الفسحات بين الدروس كان مزاد بيع السلحفاة مستمراً، تركني فاضل وذهب إلى الصف وقال لي: «بيع عباس، بيع، بيع».

فهمت منه أن كل ما عليَ فعله لجذب الزبائن هو أن أقول بصوت عال: بيع بيع بيع بيييع، بيع بيع بيييع.

بالنسبة لها، فالسلحفاة لم تُحاول الخروج من الصحن المزركش، شعرت بها وفيّة ومُطيعة ومجانبة للمشكلات، كنت أضيف عليها الكثير من الخصال والمزايا وأتوهمها، منها مثلاً أن هذه السلحفاة تتحدث اللغة الفصحى مثل السلحفاة البطيئة في مجلات الأطفال، تتظاهرُ بالعناد وتجعلهُ درعها الواقي من خباثة الأرنب، غير أنها طيبة رؤومة وتبتدع الحلول الذكية في مُساعدة الآخرين.

تَمكنتُ أخيراً من بيع السلحفاة لطالب هندي، أكثر ما قرَ في ذاكرتي عن صورة ذلك الطالب، هو شَعره السَلسبيل اللمَاع، إنه فيفيك ابن طبّاخ العمال في الشركة التي يعمل بها أبي، لا يشتهَر إلا بصفات يصطحبها من سُمعة أبيه، توفقتُ وبعته السلحفاة بربع دينار، ولمَا جاء فاضل وسمع بالأمر؛ رَكض باحثاً عن التلميذ الهندي وهو يشتمُني، قلّ ما يشتمني فاضل.

أنا لا اَشتمه أبداً، أقول له يا ابن الزفرة، فقط وأحياناً.

أبي لم يكن يُمانع ذلك نهائياً.

أمسكَ فاضل بابن الطباخ وفتَح حَقيبته، التقط السلحفاة وأعادها إلى الصَحن، بدأ الولد الهندي بالبكاء ثم قَبض على ياقة فاضل للحظات، وسُرعان ما ارتخى واستعاد هدوءه، وانصرف.

بعدها، استدعانا مدير المدرسة، شَعرنا بالخوف وجرت في أوداجنا دَفقة من الدم الفائر. تبدو غُرفة

المدير في قلب المدرسة مثل الصمام الرئيس في حفرة البئر، في غرف الآبار سيسمع من يسترق السمع ويضع أذنه على الأنبوب الرئيس؛ أصوات فوران السوائل في الداخل، لقد اختبرنا الشعور نفسه ونحن نضع آذاننا على أكرة باب المدير. كنا نشاهد بأسماعنا كيف يتظلم ذلك الطالب وعلى وجهه قناع المقهورين، وكيف كان المدير متأهباً وتائقاً لمعاقبتنا.

«أخذوا فلوسي ثم سرقوا سلحفاتي»، صاح الطالب فيفيك.

تجاهلنا استدعاء المدير.

هَربنا في ذلك اليوم وركضنا من المدرسة واللهاث يخنق وجهينا، ثمّ صح لي أن أسأل فاضل عن سبب اختطافه للسلحفاة وتخريبه لصفقة الشراء.

«هي ليست واحدة، إنها اثنين، لقد بعته سلحفاة واحدة، وأعطيته سلحفاتين، أنت أثول ولا تعرف كيف تبيع»، أجابني فاضل.

أتمنى أن أحتفظ بتسجيل صوتي لفاضل وهو يلفظ كلمة سلحفاتين، أتمنى أن أخزن ذلك الصوت وأشغله داخل رأسي إلى الأبد مثل خلفية موسيقية لفديو هذه الحياة، كان يستغرق أمداً طويلاً لانجاز الكلمة وتصنيعها داخل صندوق فمه الجميل، سلحف اتيتين تين، كنت أقول له في داخلي أنت لا تقول سلحفتين، أنت تقول عشرين سلحفاة، بل أنت تحشر قبيلة من السلاحف في سلحفاة واحدة داخل فمك.

كم أحب فاضل.

دخلث السلحفاة ذات الرأسين تحت درقتها ولم تخرج بعد ذلك أبداً.

ذهبنا في صباح اليوم التالي، وكان يوم جمعة، إلى مقبرة الحسن البصري، ندفن سُلحفاتنا المرزوقة، وهذا كان اسمها، المرزوقة، أو المرزوقيَة إذا عانَدني فاضل.

أبي في العمل والمخيَم كله سادر تحت السكون، ركبنا الباص الخشبي الذاهب إلى محطة الزبير، ومن هناك مشينا حتى بلغنا المقبرة الكبيرة، نتلفت ونتفحص الوجوه من الوجل وتابوت السلحفاة في الجيب.

لَمحنا قطيعاً من الأغنام يمخر الأفق من بعيد، يتوارى ويظهر من فواصل عربات القطار وهو يأخذ مَجراه فوق السكة.

«حدبة في مكان ما في ذلك القطيع، تعبث مع سلاحف برؤوس شتى»، قلت لفاضل.

سمحَ لنا الحارس بالدخول، لم يشأ أن يَستمع لنا، كان مشغولاً ويضع سماعة التلفون الكبيرة السوداء على أذنه، كدنا أن نرى اهتزاز شواربه بفعل ذلك الأثير الصاخب الذي ينطلق من السماعة إلى وجهه، ولم يكن يجيب إلا بالقبول مذعناً: «صار سيدي، أمرك، يجرالك».

تسللنا تحت ظلال القبور وانتخبنا شجرة صفصاف وارفة، أقعينا تحتها وأخرجنا المرزوقة.

نبشنا طَبقة الطين تحت الشجرة، انزاحت روائح

الياسمين والسدر وماء الورد وانتابتنا نوبة عطاس، لم يسع الموتى سماعنا ونحن نعطس لأن أصوات العجلات العسكرية قد غطت المكان بسرعة، نزلت أفواج من الجنود تحمل صناديقاً من خشب، توابيت، مستطيلات من الخشب، توابيت توابيت، توابيت تدخل المقبرة، عشرات من الصناديق المحمولة على أكتاف الجنود تضج بالفسحة الظليلة بيننا وبين غرفة الحارس.

سألت فاضل، لماذا يدخلون التوابيت إلى المقبرة؟.

ردَ علي منكلاً بغباوة السؤال؛ وبصوت ما زلت أقاوم نسيانه:«أنت صحيح ابن زفرة».

تكدست الصناديق وتكدس فوقها صياح الضباط وصراخ الجنود ودخان عوادم الناقلات الحربية، جدار من الصناديق الخشبية يمنع عنا رؤية ما يحدث، جدار المقبرة خلفنا والصناديق أمامنا تصنع حاجزاً ثخيناً ومانعاً من الرؤية والسماع. لا أعرف لماذا بكى فاضل وكيف تحوّلت جلادته ونذالة الصغار الطيبين في وجهه إلى خوف.

لا أدري ماذا حلَ بشجاعته واحساسه بالزعامة والفهامة، ولا أدري ماذا حل بنا وتحول العطاس إلى صراخ ونشيج.

سور التوابيت الذي يراكمه الجنود أمامنا سد ضياء الشمس، صرنا داخل حيز مغلق من جميع الجهات. ذوت رائحة ماء الورد وحلت روائح الجثامين محلها، امتزجت برائحة أخرى سرعان ما عرفت بأنها رائحة

قيء فاضل؛ فاضل شعر بدوار وضاق نفسه وجاد بما في معدته على ظهري.

كان القصف في تلك الأيام يُعاني من سكتة مؤقتة، شيء يشبه أن تُصاب غيوم الصواريخ بالتجشؤ ثم تغلق فمها ولا تمطر لأسابيع شرراً وصناديقاً خشبية، مع أن أغنيات المعركة وموسيقى القتال كانت مستمرة، لذلك؛ لم نكن نتوقع أن نشهد بأعيننا هذا العدد الهائل من الجثامين في لحظة واحدة، ومن خلال المكتوبات والأرقام المخطوطة بالبوية البيضاء عرفنا أن ما في داخل الصناديق جنود، أو بعض جنود، فبعض الصناديق كانت تصطفُ على بعضها برخاوة وخفَّة من جراء الفراغ داخلها.

في البداية، تسلَّل الظل ثم تَوسع في المكان كله، ثم بدأ الظلام يخيّم فوقنا، تحسستُ السلحفاة ولكزتها برجلي، دَفعتها وقَبرتها في الحفيرة وتخلصت منها، بقي لي أن أبكي مثل فاضل، بل أشد منه، حتى يسمعنا الحارس أو الجنود لنخرج من ذلك الكابوس. أبكي كي يسمعني أبي ويجيء فاتحاً فوهة الماليبو وقاذفاً إيانا في قلبها، قلب الماليبو هو المكان الأكثر أماناً في الدنيا.

لا أعرف كم انتظرنا كي تنفرج أحوالنا، شغلتُ نفسي بحساب حبات العرق التي تنزاح من صدغي إلى أرنبة أنفي قبل أن تدخل فمي، كنت أسند رأسي على ظهر فاضل الملوث بالقيء، أخنق نياحه وأربَت على كتفه وأصغي إلى أنينه وهو يقول:

«هلو يا الله، شلونك ربي، انقذني بداعتي، لخاطري ولخاطيري».

كان فاضل يقول ذلك، في الوقت الذي كنت اتمتم بهذه الكلمات:

«هلو يا الله، ما نريد إلا الخروج من هنا، سنصبح طيبين وخوش ولد إذا ساعدتنا في العودة إلى البيت».

بدأت فتحة بين التوابيت بالتوسع، وظهر أن الجنود يبحثون عن شيء ما ويعيدون ترتيب التوابيت.

الحارس برفقة الجنود عثر علينا تحت التوابيت، لا أعرف ماذا حل بالسلحفاة، ربما شاهدها أحد زوار المقابر فيما بعد وظل يرويها كمخلوق غريب من تلك المخلوقات التي تذكر في تعذيب الموتى الضالين وأهوال ما بعد الموت. ضحكوا جميعاً حالما وجدونا متحاضنين، ومتشابهين جداً.

قلت لله وقتها: «هلو يا الله، شكراً».

«ممنون بالخدمة»، أجابني صوت.

جندي في أحد التوابيت لم يكن يظن بأنه ميت فحسب، بل كان يظن بأنه الله.

في الخميس الذي تلا ذلك الخميس، غاضني أن فاضل في مقعد الماليبو الأمامي وأنا في المقعد الخلفي، وكنت أصحح بخباثة بالغة كل ما يقوله فاضل لأبي يومياتنا في المدرسة.

قلت لأبي: «معنا تلميذ يشتغل في المقبرة، مع والده،

يقول بأنه انحبس ذات يوم في غرفة مليئة بالتوابيت وسمع جندي ميت يقول له: ممنون بالخدمة، فما كان منه إلا إخبار والده الحارس، لكن الحارس لم يعبأ بذلك، ثم قام بفتح التابوت بنفسه وايقظ الجندي، فرح الجندي صاحب الجسد الناحل، لم تكن لديه شوارب لكن حاجباه متصلان وسميكان وخده الأيسر مأكول كلياً، خرج من الصندوق وركض وهو يعرج برجله المصابة نحو الحمامات العمومية، ومن هناك سمع الجميع ضرطة مدويّة».

«لا تقل ضرطة، قل ريح بطن»، قال أبونا.

ثم أضاف وهو يتفادى تلاً من الرمال الملحية ظهر فجأة أمام الماليبو: «هذا التلميذ زميلكم بطل، لقد أنقذ نفساً بريئة، لكن قولوا له في المرة القادمة إن سلحفاة الرزق لم تكن ميتة!، إنها تسبت قليلاً، تدخل رأسها تحت درقتها وتنام، تنعزل عن العالم ولا تحب أن تشارك الناس شيئاً، تريد أن تكون مع نفسها، لنفسها».

لم نعلّق على ما قال، دسسنا وجوهنا في مساند المقاعد من الخجل، وحتى حينما توقفت الماليبو ونزل منها أبي، لم نترجل من السيارة ولم نرفع وجوهنا المحمرة من الفشلة، سمعنا الحوار التقليدي وطراطيش الكلام الذي دار بين أبينا وأبي الرشمة لكننا لم نتجرأ على النظر من النوافذ.

في أعماقنا شوق عارم لمشاهدة حدبة من جديد، تخيلنا منظرها وهي تنخفض من على ظهر والدها وتقع

على الارض وشعرها المزدان بالشرائط الرفيعة يغطي وجهها ويلتصق بما تحت أنفها من سوائل دبقة.

ولم نصبر على المقاومة فقد سرقنا ربع نظرة خاطفة وظفرنا بظلها فقط.

حينما استعادَ أبي موضعه خلف مقود الماليبو حاول أن يعيدنا إلى وضعنا، حاول أن يبدي مسامحته لنا دون جدوى، ودون أن نغفر لنفسنا.

لكننا، كنا نتحرَق شوقاً لمعرفة الشيء الجديد الذي حصل عليه أبي من البدوي ووضعه في جيبه. نقاوم رغبة ليّ أعناقنا نحو جيب أبي. ونبحث عن أي حيلة تمكننا من اقتناص نظرة خاطفة باتجاه ذلك الشيء.

هل هو سلحفاة أخرى برأسين، وزغ مرقط بذيلين، ثُعبان زهلول بجرس وموسيقى، لم نكن لنطيق ذلك التصبر، وكاد صبرنا ان ينفذ ونخرج عن طورنا كصبيين يحاولان اثبات حسن نواياهما.

البصرة، عويسجيان، 26 كانون الثاني من السنة 2013 الميلادية

مُبلّغ المحكمة يطرق الباب، هكذا عرّف نفسه قبل أن أدير المفتاح، لم أشاهدهُ من قبل لكنه يبدو من أولئك الأشخاص الذين نشعر دائماً بأننا شاهدناهم في مكان ما، قصير طبعاً وشعره رمادي يتماوج نحو اليمين، عوينات سميكة بإطارات مارونية، سَمح لنفسه أن يجتاز عتبة الباب متظاهراً بالتأوه من أشعة الشمس الحارقة. تَستند على ذراعه حافظة أوراق بلاستيكية فوقها حزمة ملفات تتخللها أوراق كاربون.

«عليك أن توقّع هنا، وهنا، لا تتأخر عن الموعد، هل تعرف كيف تصل إلى المحكمة، إنها قريبة بالنسبة لك، استأجر تكسي، تكسي عشر دقائق من الباب للمحراب، لو كنت مكانك فأنا سأركب تكسي قدم، سأمشي، مكانك!، لا سمح الله».

بعض مبلغي المحاكم يشبهون حفاري القبور إلى درجة ما، خصوصاً في هذا الجزء من العالم، يتعاملون يومياً مع مصايب الناس وبلاوي الأيام حتى تصلبث مشاعرهم وفقدوا لياقتهم، إنه يأنف من وضع نفسه مكاني، وببرود تام؛ يخبرني، قبل أن أتمّ قراءة التبليغ، بأني في ورطة.

موعد الجلسة بعد أسبوع، ليس لدي ما أذاكره أو أحفظه، مثلما ليس لدي ما أحزن من أجله، لقد فقدت حاسة الشعور بالفقد منذ سنوات، عبارة المجني عليها

صبرية، الواردة في التبليغ مرّت على عقلي دون أن توقظ فيه شيئاً، كان عقلي يبارك مرور الكلمات ويختمها ويبعثها إلى مكانها المعتاد في الذاكرة، عقلي موظف قديم يختم أوراق معاملة روتينية دون أن يترك ردة فعل ما، عقلي في تلك الساعة يمكن استبداله بحذاء قبقلي من دون أن يتغير شيء في الدنيا.

المجني عليها صبرية!، لم تخبرني صبرية يوماً بقابليتها على أن تكون مجنياً عليها، ليس للأمر علاقة بكونها أخف الكائنات ظلاً، بل لأنها حقاً مغناطيس محبة يتنفس ويمشي ويكتب الشعر، أنا لا أجيد استعمال الكلمات الودودة والمحسنات البديعية، إنما أراني ولأول مرة وبعد قراءة التبليغ أبحث عن مفردات عربية لم يستعملها أحد قبلي، كلمات لوصف امرأة واحدة ووحيدة وماحودة، نعوت وصفات جديدة أزيل عنها النايلون بنفسي، فهذه صبرية أيها القاموس.

بعد نصف ساعة تقريباً، كنت قد جلست على دكة مقهى البريكان، اتخذت ركناً قصيّاً ومحاذياً للحمّام، كانت يوريا الأدباء والصحفيين والشعراء والروائيين تعاقر خشمي وتثأر منه، طالما كان خشمي مرفوعاً أمام صبرية ومستوفزاً بلا سبب. دخلت موجة من رواد المقهى، كان يسيراً أن أعرف بأنهم قد عادوا للتو من مجلس عزاء المغفور لها الشاعرة المبدعة صبرية جياد، كما تسميها اللافتة السوداء المعلقة في مطلع الزقاق المؤدي إلى المقهى.

أغمضت عيني ونظفت أذني لاستقبال ثرثراتهم:

وجدوها طافحة في الشط.

كانت موثوقة بسلك تلفون أرضي وملفوفة ببطانية خاكية.

رأسها منفوخ لأن الرصاصة من المسدس الكاتم حبست الدم في دماغها.

لا، رأسها متورم لأنها ابتلعت ما لا تستوعب أوردتها من الماء شديد الملوحة.

خنقوها بحجابها أولاً.

هنالك آثار شطب وحك وعض على رقبتها.

جسدها متعفن ودمها خاثر، لقد قتلت منذ أسبوع على الأقل.

كنت استرق السمع على رواد المقهى المتوافدين على المقهى بعد عودتهم من العزاء، ففي أفواههم جمل مقطوعة وبقايا حوارات عن الحادثة مازالت ألسنتهم تلوكها دون ملح.

أفتح عيني وأفركها متظاهراً بالنعاس وأنا أصغي بانتباه إلى كلماتهم:

هنالك جرح على حاجبها.

لا لا، هذا الجرح طبرة قديمة، ضربها أخوها بقدح الشاي حينما كانت صبيّة.

أخوها؟

أخوها توفي وأمها وأبيها كذلك.

ليست جريمة شرف.

ولا غسل عار.

إنها جريمة عار وبلا شرف، فمن يقوى على مس صبربة بسوء.

إنها طير من الجنة.

قالها الرجل وهو يدلك أسنانه الصفر بقطعة من ورق الجرايد.

لم أطالع جريدة منذ فترة، ولأن روائح الحمّام شارفت على خنقي تماماً، تقربت قليلاً من فتحة التهوية، إلى حيث يجلس ذلك الرجل، اقتطعَ قطعة أخرى من الجريدة أمامه وطواها ثلاث مرات، ثم باشر بها جلك أسنانه وتلميعها، أستأذنته أن استعمل الجريدة، فابتسم بممنونية واقتطع لي قطعة وقدمها لي، راوغتُ يده وأخذت الجريدة كلها، كنت أهم بتزجية الوقت وانتظار عدد أكبر من مرتادي المقهى بينما أقرأ الجريدة.

عنوان بالبنط العريض: شاب عراقي يعرض على الجيش البريطاني رجل آلي.

تتمة الخبر كانت مقضومة لأن الرجل اقتطع الصحيفة من ناحية ذلك الخبر، لكني لست بحاجة إلى قراءة الخبر كاملاً، لأنني أعرف من هو ذلك الشاب، أعرفه لأني أعيش داخل جلده وأحاول الفرار من مسامه دائماً، أنا هو، عباس ابن حجي ربيع، الشاب في الجريدة، الأسمر الطويل، الجثل والعيطة، الذي تفوح منه رائحة الشيء الفائض بعد توزيع الأشياء.

ساعدتني المرحومة، أو المغفور لها، في نشر الخبر في تلك الجريدة التي توزع مجاناً ولا يكاد يقرأها أحد. عدا أسنان ذلك الرجل، فلا أظن أن أحداً مرّ عليه ذلك الخبر. صبرية وفي خضمّ محاولاتها المضنية لإرضائي وكسب مودتي، فعلت مجهودات إعلامية كثيرة لإيصال اختراعاتي إلى بر الأمان، نسقت مع مترجمين لنشر الأمر في لغات عدة، تواصلتْ مع منظمة فلمنج الفرنسية لشهور طوال لترقية أبحاثي ونشرها في أية مجلة محكمة، دون جدوى. صبرية راسلت في شهر واحد، منظمات عريقة في فرانكفورت وستانفورد وواشنطن، كانت تؤدي ذلك بلا كلل وهي في منتهى الحماس والحبور، لإرضائي ربما، أو لبث شيء من الحماس في عروقي. وكل ما كانت تحصل عليه هي تكشيرة وجهي المنبعج من المداخل، وحواجبي المعقوفة التي لا يعجبها العجب.

ينبغي أن أغادر المقهى قبل أن يتعرف عليَ أحدهم، إنه احتمال ضعيف لكنه ممكن، فعلاقتي بصبرية كانت بعيدة عن عالمها الأدبي الغائم بالكلمات والقصائد، ومن ناحيتي فقد واظبت على الدوام بترك تلك المسافة المقبولة بيني وبين دفاترها وأمسياتها الأدبية والمهرجانات التي تحضرها وتلبي دعواتها في بغداد والبصرة وما بينهما.

تعرفت على القتيلة في صيف قائض قبل عشر سنوات، كانت قوات الاحتلال البريطانية تدشن أسبوعها

الأول في البصرة.

ماشياً باتجاه الجامعة، أفكر باستحصال نسخة جديدة من وثيقة تخرجي من كليّة الهندسة، في قلب المدينة حيث ينتصب تمثال سمكة القرش الكبيرة التي يعتليها محارب عراقي ويشق ظهرها، هناك، جلست وتربعت ونفخت على الصبة الكونكريتية كي لا يتسخ بنطالي الكتان حالك السواد، تنحيت قليلاً كي أقع على ظل تمثال القرش، القرش المهزوم الذي يرمز إلى العدو الفارسي في حرب الثمانينات. قصفت وحدة المشاة البريطانية تمثال المقاتل يوم دخولها مركز المدينة وأبقت على القرش تتساقط منه بعض الكتل الإسمنتية بين حين وآخر. لاح لي طابورٌ طويل من البشر الذين يرفعون أذرعهم ويلوحون بما يحملون من ملفات وسجلات. يتحرك الطابور بتثاقل ويتثنى مثل دودة القز، يبدأ من الشارع العمومي ثم يدخل في طريق خدمي حتى يلج في مبنى الإذاعة والتلفزيون المقابل لتمثال القرش والمقاتل، فكرت أن مسألة حصولي على وثيقة تخرج إضافية هي معمعان لن ينتهي حتى آخر النهار، وتسللتُ خارج ظل القرش وتوجهت نحو الطابور الذي بدأ ينكمش ويتداعى.

اتضح لي أن الناس في الطابور يقفون بانتظار لقاء مسؤولين إنجليز لتسهيل بعض مهامهم وتمشية أمورهم المتعطلة بعد توقف خدمات الحكومة بسبب الاحتلال وتغيّر الأحوال، قلت لنفسي، لم لا أعرض عليهم الرجل

الآلي الذي اخترعته وانحبست بسببه وكدت أفقد عمري يوم عرضته على المسؤولين في الجامعة.

قبل أن تختمر المغامرة في رأسي، تخطيت الطابور واجتزت الأيادي والرؤوس نحو الشباك، سمعت الناس خلفي يتذمرون ويبدون امتعاضهم الشديد من تجاهلي إياهم وضربي لأدوارهم عرض الحائط.

خلف الشباك، يجلس شخص نصف وجهه مخبوء بنظّارات عسكرية فسفورية، يصعب تبين عمره وعنصره، سألته بانجليزية مضعضعة ونصف مأكولة: «هل سيبقى دكان الإنجليز مفتوحاً حتى ساعة متأخرة؟، لأني أريد أن أجلب شيئاً من البيت».

قبل أن يصرخ بي ويأمرني بالعودة والوقوف في آخر الطابور، قال لي بعربية واضحة وجهورية: «هل لديك أختراع جديد أنت ايضاً؟».

لحظتها، انسحبت إلى الوراء وتذكرت ذلك النوع من العجائز اللائي يدخن سجائر المزبن ويجلسن في الزوايا الضيقة لدرابين وسكك وسط المدينة، كنت أسمعهن وأسمع حكاياتهن، لديهن طريقة درامية في استعراض انبهارهن واعجابهن وتقززهن واشمئزازهن من الإنجليز في الوقت نفسه، عجائز السكك كنّ يعتقدن بأن الإنجليز يعرفون كل شيء. وكنّ يستعذن بالرحمن أحياناً من الانجليز، شاهدت إحداهن تبصق في جيدها وتردد: تف تف تف، إذا ما ذكر أمامها لفظ الإنجليز. كانت تَرجمهم في سرّها وتقر بتفوقهم والله وحده هو

من ينجيها من شرورهم، فهم يعرفون كل شيء، حسب قولها.

وهذا الإنجليزي الذي يتحدث العراقية يعرف مثلهم كل شيء، وإلا كيف عرف بسر اختراعي. ثم تنبهت بسرعة إلى أنني عباس ربيع، الذي يؤمن بالعلم وحده ولا مساحة في عقله للتخاريف.

شعرتُ بيدٍ تضغط على خاصرتي من الخلف، تجاهلتها وعدت أدراجي نحو الخلف، الأصابع ضغطت مرة أخرى، فانفعلت وأمسكتها واستدرت.

إنه رجل في الخمسين من عمره، على رأسه طاقية سوداء ترتخي فوق أذنين واسعتين وجبين محزز بخطوط التجاعيد، قال لي بأنه قدم اختراعاً للضباط في الداخل غير أنهم لم يهتموا به، لقد استهزؤوا به ولم يأذنوا له بمقابلة الميجر، الرجل كان يقصد مشاركتي خيبته وتألمه من سوء معاملتهم له، ثم سَحب يدي محاولاً إيقافي، اقترب من وجهي وهمس لي: «الضباط البريطانيين قالوا لي نحن يا عم غير معنيين بآلة الزمن التي اخترعتها، هذا خارج نطاق مهماتنا، تأتينا الكثير من الطلبات حول معاينة اختراعات تختص بالسفر عبر الزمن، ونحن نستغرب حقاً من هذه الطلبات».

توقف الرجل عن الكلام ثم حدَق في عيني وتابع: «قالوا لي، لماذا تريدون السفر إلى زمن آخر، ابقوا معنا هنا في هذا الزمن، نحن نحبكم».

ثمَ ضحك.

انتقل مزاج الرجل بسرعة إلى حالة من الانبساط والتهكم، أثار استغرابي بتلك الانتقالة السريعة في مزاجة وحالته المعنوية، أخرج من فمه ضحكة صادحة كأنه أخرجها من جيبه، أشعرني بأنه لم يضحك منذ أسابيع.

طلب مني أن أساعده في بلوغ موقف الباصات، أشرت له نحو باص قصير يقف عند انعطافة الشارع العمومي، استدار بوجهه مستنكراً عدم مساعدتي إياه، أشعرني بأني ولد عاق ومن منتوجات آخر الزمان عديمة التربية والأخلاق، لكني لم استسلم لضغوطاته العاطفية، قاومت نظراته المقهورة التي خرجت للتو من مسلسل تلفزيوني عراقي من أيام التسعينات، كنت مصراً على خذلانه والتغاضي عن عروض الوعظ والإرشاد التي كان يبذلها ويؤنبني بها، قاومته حتى سمعته يقول:

«أهلاً بالست، جاءت الست لا حاجة لي بك».

هنا ظهرت شابة بعباءة وأنف وجزدان كبير، امسَكت الرجل من ذراعه وقادته نحو الشارع، شاهدتها تَفتح الجزدان وتدس في جيب الرجل مبلغاً من المال، ربت الرجل على كتفها ثم قذفني بنظرة الوالد الذي عقه أبناءه مرة أخرى، أدخل رجله في الباص واختفى داخله، لم أشاهده في حياتي بعد ذلك، لكني لم أستطع محو منظر الباص من ذاكرتي، انتبهت إلى وجوه الركاب في النوافذ، لقد نزلوا جميعاً حال رؤيتهم له يدخل

الباص، حَدث اضطرابٌ في داخل السيارة وغادرها الجميع؛ إلا الرجل والسائق.

ما زلت أجهل سببَ ذلك، لكن المشهد الذي لم أكن قريباً منه لأسمع وأرى كلَ التفاصيل، كان مُثيراً بالنسبة لي، ومؤسياً في الآن نَفسه.

هل هربوا من سَفرة الزمن؟، سألتُ الفتاة التي وجدتها إلى جانبي.

لكنها وكما يبدو لم تكن مهتمة بمُزحتي البائخة. قدمتْ نفسها بأدب جَم وطلبت مني أن تجري حواراً صحافياً:

«أنا صبرية جياد، أعمل في صحف محلية عدة هنا وصحيفة مركزية في بغداد، أراسل الكثير من المجلات وأنجزت عدداً كبيراً من الريبورتاجات والحوارات، أعد حالياً تحقيقاً صحفياً عن ظاهرة النطاسين في البصرة، هل أنت مهتم بذلك، أخبرني الرجل بأنك مخترع، ما هو اختراعك؟»

مدَّت يدها في جيبها ولكنها لم تتوقف عن الكلام، تلت ما عندها كما لو كان نشيداً أو محفوظة، يبدو أنها تحدثت مع الكثيريين بالطريقة نفسها:

«ليس عليك إظهار اسمك وهويتك إذا كنت تخجل من ذلك، التقرير يناقش متلازمة العبقرية العلمية التي انتشرت في المدينة هذه الأيام، صحياً وبدنياً وسايكلوجياً، الكثير من الناس يعانون من متلازمة الاختراعات، الموضوع شيق حتماً، لدي قائمة كثيرة

بالمصابين بتلك الظاهرة، يمكننا أن نتحدث ونشرب الشاي في المقهى، هل يعجبك ذلك؟، نحن نعطي مكافآت مجزية للمشتركين، ليست مجزية تماماً لكنها تغطي نفقات النقل والضيافة، فما رأيك؟».

صحراء الرميلة، أوائل أيام السنة 1988 الميلادية

حدَث ذلك في يوم رطب، راديو الماليبو يلتقط إذاعة مونت كارلو، برنامج بنك الصداقة، المذيعة هيام حموي تقرأ المُراسلات، أناس يبحثون عن صلات جديدة، وأبي يُلاعب عتلات الراديو فاسمعُ كلمات الباحثين عن الصداقة متقطعة ومشوَشة، كأنهم يتحدثون من قعر زجاجة تَتهادى فوق الأمواج، غرقى في الأثير يفتشون عن أوكسجين المحبة، يجاهد أبي لاقتناص موجة الإذاعة، كما لو كان يريد تعليمنا درساً في تحصيل الأخوان وكسب الخلّان. لقد كبرتُ يا أبي وشابَ شعر عانتي ولم أُتقن هذا الفن، وما زالت رسائل هؤلاء المُستمعين تطنُّ مثل ذبابة محبوسة في طبلة أذني، وكلما فتحت حساباً في بنك الصداقة أقفلته القروض، وما أفهمه اليوم هو أن بنك الصداقة الجيد هو الذي يمنح بلا فوائد ولا بيانات. كان ينبغي على الآنسة هيام أن تسمي برنامجها كلينكس الصداقة لا بنكها، لأنها من الأشياء التي نستخدمها مرة واحدة، هذا الاسم لن يربكني على الأقل، فـأنا لدي صديق واحد، وبدقة أكثر، كان لدي صديق واحد، هو فاضل.

لقد صادفَ عيد ميلادنا ذلك اليوم، عندها فهمتُ مقصد أبي في ارغامنا على الاستماع لبنك الصداقة، ففي آخر فقرات البرنامج قرأتْ المذيعة معايدات الناس لبعضهم البعض بمناسبة أعياد ميلادهم، امتقعت وجوهنا بالغضب، فلم نكن نرغب أن يكون لنا عيد ميلاد

واحد، وما لم يفهمه أبي هو أن وجوهنا المتجهمة في تلك الساعة هي رغبتنا في أن يحظى كل واحد منا بعيد خاص به.

اكتملت غَضبتنا واشتدت حينما وصلنا إلى فضوة أبي الرشمة، وهو المكان الظليل الذي استقر به البدوي مع أغنامه وحدبته التي فوق ظهره. نَزل أبي إليه كالمعتاد ووضعنا على مسافة، ثم تسللت إلينا حدبة بعد أن استقلت عن جسم أبيها.

ما زلت متأكداً بأنها هي من ابتدأ العراك، لدى حدبة ثأر بائت من المرة الماضية حينما نَكشنا شعرها وحشونا ملابسها بالرمل، تقدمت صوبنا وجَلست على تختة خشبية سحبتها معها من متاع أبيها، وضعث رأسها الصغير كرأس دبوس بين كفيَها، ثم قالت بلا مقدمات، براحة بال ولامبالاة:

«أروح فدوة لله، الله سخطكم وجعلكم متشابهين جداً».

صدقنا حدبة واعتنينا بكلامها!، وصرنا نؤمن حقاً بأن الله لا يحبنا لذلك عذبنا بجعلنا متماثلين تماماً. توقف الدم في عروقنا وتصلَبنا من الغضب، ولا أدري حتى اللحظة لماذا لم نلقن تلك البنت الضئيلة درساً يترك شجة دائمية في حياتها ووجهها. لأنها أوجعتنا بكلامها، والكلمات هي القاتل الوحيد الذي لا يقبض عليه أحد، يمشي طليقاً ومزهواً بفعلته.

حوَلت حدبة عيد ميلادنا الذي نحتفل به لأول مرة

إلى يوم رمادي مشحون بانكسار هيبتنا كجبابرة صغار.

قلَب أبو الرشمة مذياعه على الأرض وفتح غطاءه، أماله ودس أصابعه فيه كما لو كان يطرح نعجة ويحلبها، كان يبدو ملتذاً ومسروراً للغاية وهو يضع البطاريات في عقب الجهاز، رأينا بسمته تتطاير مع ريح ذلك اليوم المحملة بوخمة البحر ورطوبة مساء الليلة الماضية، سمعناهما يتكلمان عن النار، عن إطلاق النار، أبو الرشمة يؤشر بيديه شمالاً ثم غرباً، وأبي يؤشر جنوباً ثم شرقاً، كانا يتجادلان حول الممرات الآمنة في تلك الصحراء والتي تجنب السالك فيها القصف والشظايا القادمة من السماء، حيث تتعارك المقاتلات الحربية في الجو وتنبع الصواريخ من السحاب كالمطر.

سمعت أبي يقول:

«هنا أمان، وهناك أمان، وهناك أمان، كن قريباً من مداخن الآبار، لا أحد يقصف الآبار، إذا أردت أن تنجو من القصف أنت وابنتك وغنماتك عليك أن تحافظ على مساراتك في حدود المنشآت النفطية، الحرب هذه مثل عركة بين عاهرتين».

اقتربنا منهما أكثر حينما سمعنا كلمة عاهرتين، لمحنا أبي يقترب فخفف من شدة صوته لكن حلاوة الكلام أخذته ولم ينجح في حمايتنا من الكلمات النابية:

«هذا القصف مثل عركة بين عاهرتين، يتم فيها استعمال كل شيء، تشتبك الأيادي والأرجل، جلاليق ودفرات وبوكسات وتمليش للشعر وفقأ للعيون، إلا

الفروج، لأن العاهرة بلا فرج ما تسوى شي».

وفي آخر جملته كان أبي يشير بيده إلى ما بين فخذيه، يشير نحو نقطتين تعويضاً عن الإشارة بيده المبتورة.

ضحك البدوي وهو يراقبنا نتلصص ونسترق السمع، وفهم مقصود أبي، الحكومتان الإيرانية والعراقية تمولان هذه الحرب من النفط، وتحرصان على حماية مصدر رزق الحرب ولا تقصفان منشآت النفط والغاز الحدودية بين البلدين، حيث نعيش وحيث يسرح البدوي مع غنماته وابنته.

حانت اللحظة التي يتسلم فيها أبي عطيّته من أبي الرشمة بعد أن دفع له البطاريات وتأكد من صلاحيتها، علينا أن نشيح بوجهنا قليلاً كي نترك لأبي مساحته الخصوصية ونثبت له حسن سلوكنا وسريرتنا. توجهنا نحو حدبة التي ما زالت تعتلي التخت مولية ظهرها لنا ومستقبلة فراغ الصحراء بوجه أكلته سخونة الرمال المشوية بالشمس، عدنا لها غير عابئين بكلماتها الجارحة، فما يهمنا في تلك الساعة هو أن نكون ولدين حبوبين ومؤدبين.

لكزت فاضل لأنه أخل بسلامنا وبتظاهرنا بالوداعة والسكون، فقد كان يحدق ملياً في وجهها، والحق يقال، يصعب أن تتخطى الأعين حضور حدبة ووقارها المبكر.

سمراء مثل القهوة وعلى كاحلها يتدلى حجل ذهبي ينتهي بشذرة من الكهرب، حافية لكن رطوبة الليلة

الماضية جعلتها تنتعل حذاءً من الملوحة المترسبة على قدميها. يبدو أن أبيها سمح لها أن لا تكون حدبته وتركها تمشي على الطين ليلة الأمس.

على مبعدة خمسة أمتار أنهى الرجلان صفقتهما، سمعت أبي يؤكد لأبي الرشمة مسارات الطرق الآمنة ويؤشر بجدية نحو الجنوب والشرق حيث ترتفع أعمدة الدخان المنبعثة من محطات عزل النفط والغاز.

سحب أبو الرشمة خيطاً كان يمرح في الهواء، خيطاً رفيعاً لا يكاد يرى، شعرنا للحظة بأن هذا الساحر يرى خيطاً لا نراه. بدأ الخيط يرتفع من الأرض ناثراً التراب والرمل، أومأ أبي إلينا استعداداً للمغادرة، فتحنا له باب الماليبو لأن يده كانت مشغولة بشيء ما داخل الكيس الذي سلمه له البدوي.

دخلنا في السيارة وعيوننا ما زالت معلقة بالخيط تتابع نهايته، الخيط يمشي ويصطدم بمويجات الهواء قالعاً الحصى الصغيرة وذرّات الأتربة فوقه، يبدو بأنه قد ثبته بالأرض قبل مجيئنا وأسند فوقه الحصى والصلابيخ، فزّت حدبة وهمت مسرعة بحمل التختة الخشبية والفرار نحو أبيها، فعرفنا أنّ خيط أبي الرشمة مشدود إلى ساق ابنته.

سألت أبي لماذا يربط هذا الرجل ابنته بالخيط؟، فقال لي إنه لا يربطها، حدبة لاتسمع، إنه يجعلها قريبة منه بواسطة ذلك الخيط ويحرص على متابعتها من خلاله إذا ما نزلت عن ظهره، مع إنها لا تنزل عن ظهره

إلا للضرورات، حدبة تبقى حدبته حتى في الليل.

«لكننا سألناها عن اسمها وأجابت، في الأسبوع الماضي حينما جلبنا السلحفاة رحمها الله».

«إيه، البنات يسمعن بالنوايا أحياناً» قال أبي، ثم أرتد إلى الخلف وهو يعب صدره من فتحة التبريد، أطلق الهواء من منخريه وهو يستأنف كلماته: «النساء بلا أذنين يعشن حياة أطول، لا تقلق على حبيبتك حدبة يا عباس».

لم يحدثنا أحد عن الفراشات بعد، الفراشة الأولى التي وقعت عليها أبصارنا هي تلك الفراشة في الكيس، في حجر أبي. كنا نسمع كثيراً بكلمة فراشة في المدرسة، المعلمة وهي تعلمنا كيف نكتب حرف الهاء كانت تقول هكذا هكذا كالفراشة وهي ترسمه على السبورة، حرف الهاء الوسطي يشبه الفراشة، تخيلوا الفراشة وأنتم تكتبون حرف الهاء، إنه جميل وخلاب مثل أجنحة الفراشة، مع أننا لم نشاهد فراشة، لذلك، حينما أعلن أبي أنّ في الكيس فراشة؛ كنا نترقب رؤية حيوان يشبه حرف الهاء.

لم نكن ندري أن لها بدن حساس وأجنحة تنث طحيناً ملوناً، فراشة البدوي تلك بحجم نصف الكف، سَألنا أبي كعادته في اختبارنا: ما لونها؟، قلنا له نفطية، فتوردت خدوده ضاحكاً وهو يصيح في وجوهنا: صح.

يترك أبي قهقهاته في الهواء، في الرف العلوي ويحكم إغلاقها، يحافظ عليها جيداً ويوزعها علينا وقت

العازة.

ينبغي أن يجفف أبي الفراشة ثم يطحنها، يضعها في كتاب سميك ويضغط بدنها في طياته، تتيبس ثم يسحقها بطاحونة البن اليدوية. يسكبها في قدح من ماء الورد المعالج بجوز الهند وحبة سودة، ثم يشربها كي يشعر بمزاج رائق حسبما أخبره البدوي. إنه مصيرٌ مرعب بالنسبة لفراشة، مع أن أبي وعدنا بأن نلعب بها بعد تنظيف المطبخ من بقايا كيكة عيد الميلاد التي أعدها طباخ الشركة الهندي. لكننا لم نشأ التغاضي عن ما سيحدث للفراشة النفطية.

في يوم السبت الذي تلا ذلك، كانت الفراشة في الصحن ونحن ننادي زبائننا من التلاميذ لمعاينتها واقتراح السعر المناسب، لقد أتممنا عملية خطف الفراشة بظفر واقتدار، مع أن الرهينة وجدت ميتة في صندوق أبي لكننا أنقذنا جثمانها من عاقبة غير محمودة.

لم تنجح كل محاولاتنا في تسويق الفراشة، أبلغنا أكثر من تلميذ بأن هذه الفراشة عاديّة وليست شيئاً يستأهل كل غرورنا وتبجحنا. طالبان قالا لنا بأنهما قد اقتنيا فراشة مثلها بالضبط قبل فترة، وأقسم لنا طالب آخر بروح عمته الميتة بأنه قد عاين بنفسه واحدة مثلها في قن الدجاج، أما الذي أقسم بروح أبيه الشهيد فهو تلميذ حاز على رتبة قدوة الصف؛ أصر بأن هذه الفراشات تتطاير بأسراب هائلة في ربوع حيهم، ولم

يكن بوسعنا مقاومة الإفادة المحايدة التي أدلى بها قدوة الصف، ليس لأنه ساكت طوال الوقت ولايخرج عن صمته إلا لأمر جاد، بل لأن تلاميذ مدرستنا الذين يحلفون بأرواح آبائهم الشهداء لايكذبون.

ظهر السأم على خدود فاضل، وخدود فاضل تفضح حالته وتشرح وضعه مثل إشارات المرور الضوئية، وقرَ في قلوبنا غضب صغير ضد أبي الرشمة، كيف له أن يزعم بأن هذه الفراشات مخلوق نادر يصطاده من بقعة سريَة ونادرة في صحراء الرميلة، لقد أوهمنا أنه يعرف بقعة لا يعرف موضعها أحد، تعيش فيها تلك الموجودات الغريبة من سلاحف برأسين وفراشات بلون النفط الخام وغير ذلك مما لا تتسع له أدمغة الزعاطيط من أمثالنا.

يمكن مغافلة أبي في نهارات الأحد والإثنين والأربعاء، وفي مساءات الثلاثاء والخميس، فهو يعمل في هذه الأوقات، لذلك تقرر دفن الفراشة في ظهيرة يوم الأحد، وفي الجبانة نفسها، مقبرة الحسن البصري، حيث يمكننا الاستدلال لو ضللنا الطريق بمنارة ضريح الحسن البصري التي تشبه أفاريزها طلع النخيل.

سرنا مع زمزمية ماء وقبعة خوص، خرجنا كمن يخرج من مسلسل كارتوني؛ نبحث عن بلاد العجائب أو عن الولد التائه أو عن تسليم الفراشة إلى أهلها قبل أن تغرب الشمس وتتحول إلى أميرة.

عبرنا سكة الحديد ونحن نتلفت نحو قوة مجهولة تترصدنا، ولمحنا منارة المقبرة وسلكنا الدرب باتجاهها،

هل الفراشة في جيبك؟، كنت استجوب فاضل كل دقيقة تقريباً.

أصوات الراجمات الحربية لم تقو على اخافتنا، كنا نمشي على بركة الفراشة، بل على بركة سرب الفراش، فقد حدث أن صحت أقوال التلاميذ وظهر في الجو سرب من الفراش النفطي اللون، للحظات شعرنا أن الفراش يتبعنا، وغمرتنا نشوة الانجاز والشعور بأننا نخاطب الفراشات أو نفتعل معها صداقة ما، كانت المئات من حروف الهاء تحلق فوقنا وتجعل من ضياء الظهيرة أقل شدة، الهاءات تلك لم تكن تحلق فوقنا، ولم تكن تتبعنا في حقيقة الأمر، إنما مرّت وسافرت بعيداً، بعيداً إلى حيث لا أين، وحيث لا نعرف.

كل شيء كان خاكياً او نفطياً أو بلون ثياب الجنود في تلك الأيام، لقد شعر فاضل بأنه يسمع أزيزاً تحت خيمة الفراشات التي مرت من فوقنا، صدقته وصرت مثله أعتقد بأن الفراشات تتحدث.

دفنّا الفراشة المرحومة، ولكننا نسينا أن نطلق عليها اسماً، نبشنا قبرها واعطيناها اسماً لا أتذكره ثم دفناها من جديد. بعد فراغنا من الدفن جادلني فاضل لماذا اخترت هذه الزاوية للدفن، فجادلته بأن هذه الزاوية قريبة جداً للقبر الكبير تحت القبة والمنارة، وهو ما دفع فاضل للدخول إلى غرفة الضريح وقراءة اللوحات والجداريات والتمعن في الصور داخل المبنى، كانت صورة الرئيس تحتل المكان مواجهة قفص القبر،

وتحتها جدارية كبيرة مخطوط عليها هذا قبر ابن سيرين أبي بكر محمد بن سيرين البصري. لم أكن لأتذكر الاسم كاملاً منذ ذلك اليوم ولكني واظبت كثيراً على زيارة قبر ابن سيرين المشهور بكتابه عن تفسير الأحلام.

ليتني كنت أعرف ما صرت أعرفه لاحقاً عن صاحب القبر كي أخبر أخي فاضل بذلك، ليتني.

لم نترك المكان جاهلين تماماً بصاحبه، فقد عرفنا مما حدث هناك بأن ابن سيرين وبسبب كتابه كان مسؤولاً عن تفسير ملايين الأحلام وتأويل منامات الناس وشرحها لهم وفك رموزها، لقد قضى ويقضي الكثيرين من الحالمين في منامهم ساعات طوال مع كتاب ابن سيرين في فهم أحلامهم ومحاولة قراءة الطالع من خلالها. وعشت بعد ذلك لكي أعرف بأن كتاب ابن سيرين الذي استعمله الناس في تفكيك مناماتهم كان ملفقاً عليه ولم يكن له.

سمعنا سادن الضريح ينهر امرأة ويطلب منها الخروج، كانت السيدة مذعنة لأمره ولم تظهر أي اعتراض، كانت تحمل حزمة دفاتر وكتب، وحينما خطت نحو عتبة الباب سقطت منها علبة سجائر، تطوعنا أنا وفاضل باللحاق بها وتسليمها العلبة، التفتت السيدة وفي وجهها ابتسامة سرعان ما انحسرت وخفتت حالما تعرّفت علينا.

«عباس وفاضل!»، ثم وضعت كفها على فمها كأنها

تكتم ذهولها وتحبس سيلاً من علامات التعجب كي لا تنفلت من رأسها.

أعرف اسمي حينما تلفظه فيرونيكا، إنه ليس عباس حينما تقوله، إنه فارس بجناحين ورمح ودرع من الإبريز يعتلي جواده المطهم في الفلوات.

غطتنا فيرونيكا بعباءتها كما تحب أن تفعل، وضعتنا في سيارتها وسلّمتنا بالجرم المشهود لأبي.

لن أنس مهما مرت الأيام كيف كانت سيارتها تذرع الطريق إلى بيتنا وتخوضه مثل سمكة، وكيف كان العالم يبدو من وراء نوافذ عربتها الكراون السماوية. لأننا في ذلك اليوم عرفنا ماذا تعني الأحلام، وبختنا وقرصت خدودنا لأننا نمشي تحت القصف من أجل دفن فراشة، قالت لنا بأننا كنا على وشك الموت، بمقدور جثمان الفراشة أن ينتظر قليلاً، ثم أن الأفضل هو دفن الفراشات في حدائق البيوت، ثم حكت لنا عن ابن سيرين، مفسر الأحلام وعلاقتها بكتابه وشغفها بتفسير الأحلام، وبعدها طلبت منا فيرونيكا أن نحكي لها آخر حلم حدث لنا خلال النوم.

أصبنا بسكتة طويلة، فنحن حقاً لم نكن نعرف معنى الحلم في المنام، إننا حرفياً لا نحلم. نحن من تلك الأقلية القليلة من البشر التي لا تعرف معنى الرؤيا، وحق لفيرونيكا أن تتعجب وتطلب من أبينا أن يهتم بذلك الأمر ويعامله بجدية بالغة، لا أذكر أن أبي قد فعل شيئاً حيال الأمر، لكنني أذكر محاولاتي المرهقة في

عصر سحابة رأسي في الليل بحثاً عن حلم في المنام.

كنا نهجع في أواخر الليل ويوقظ بعضنا بعضاً متسائلين: «ها، هل حدث لك شيء؟».

فيجيب كلانا بالنفي. لذلك، كنا نؤلف الأحلام ونسردها على أبي في الصباح وعلى فيرونيكا في المساء حينما نتسلل إلى حجرتها وندخل تحت لحافها، كل واحد يؤلف حلماً للآخر ونتبادله، كان أبي لا يمانع الأصغاء لقصص أحلامنا بل ويفسرها أحياناً طبقاً لكتاب ابن سيرين. أمَا فيرونيكا فكانت تقع في نوبة ضحك تفقد فيها نصف مهابتها، ثم بعد أن ننتهي من سرد أحلامنا تجلب لنا صحناً من الجلاتين الأحمر البارد تتبعه بطاسة من المحلَّبي حتى نرطب أفواهنا من الكذب كما تقول.

مبنى المحكمة الاتحادية في البصرة، 23 كانون الثاني من السنة 2013 الميلادية

في المَمشى المؤدي إلى غرفة النائب العمومي، يصطف رهط من النساء المحجوبات كلياً بالسواد، يتصلن ببعضهن مثل مسبحة بشرية تستعيذ من الانتظار، انتظرت طويلاً مثلهن، واستعذت من شياطين الانتظار التي لا يُحبها أحد، الانتظار يجعلنا نتذكر. أصغيت إلى ما يتساقط منهن من أطراف الكلام وطرطشة الأخبار، في هذا الركن من المحكمة تغص الألسن بجرائم الشرف، ويحضر النساء في العادة مستورات هنا، حتى لا يتعرف عليهن أحد، ومن خلف فتحات العباءة يعمدن إلى تغيير أصواتهن حتى لا يمكث صوتهن طويلاً في ذاكرة من يسمعهن. بدأت مسبحة النساء بالانفراط وسألث شخصاً يبدو أنه يعمل هنا كمحام أو معقب، فسألني بدوره عن سبب مثولي هذا اليوم في المحكمة.

«أنا هنا لأني القاضي أرسل بطلبي، شخص أعرفه عثر عليه مقتولاً ومتفسخاً في الشط».

«لا تخف، زَرر قميصك جيداً وقف باعتدال أمام المحقق وأرفع صوتك وأنت تجيب، عدا ذلك، أنت في مأمن، لا أحد يتوصل إلى حكم قضائي ضد أحد هذه الأيام، الحوادث هذه بالجملة»، قال الشخص الذي سألته دون أن يكلف نفسه في النظر إلى وجهي.

رفعت حاجبي مستغرباً من علاقة أزرار قميصي

بالموضوع، ثم أن الرجل لم ينظر إلي أصلاً كي يعرف بأني كنت أرتدي تيشرت أبيض رخيص بلا أزرار مكتوب عليه أنا أحب قطتي. وكنت قد حذفت كلمة قطتي وأبقيت أنا أحب. هذا التيشرت اشتريته من مخلفات الجنود البريطانيين التي تباع في سوق الجمعة للحاجات المستعملة. يبدو أن جندياً اسمه ماكس أو ثيودور اشتراه في ترانزيت رحلته العائدة من البصرة إلى إسكتلندا لاغراء الفتيات اللائي لا يحبن الكلاب.

أو، لعل ذلك الشخص، وهو رجل بسترة واسعة وصلعة بيضاوية، يؤمن بنظرية أثر الفراشة الفوضوية، حيث يرجح الفيزيائيون تأثير الأمور الصغيرة على الأمور الكبيرة، أشياء متناهية في الصغر تحدث فروقاً تأريخية، دخول البريطانيين مثلاً إلى البصرة وتغيير نظام صدام حسين كان سببه إن بنتاً مكسيكية لم ترتدي ستياناً في أحد الأيام، الأمر الذي جعلها محرجة ومرتبكة أمام حراس الحدود وهي تتسلل إلى كالفورنيا ولم يسمح لها بالدخول، فشارك أقاربها الغاضبين من الأقلية الإسبانية في تظاهرات عارمة، أدت إلى تراجع خصوم الديمقراطيين وفوز بوش الابن في الانتخابات، الذي استطاع اقناع البريطانيين بأن في العراق أسلحة دمار شامل، فجاء الإنجليز والهولنديون والأمريكان والاسبان واليابانيون وغيرهم ودخلوا البصرة.

أما صبرية، فكانت تحب النظرية وتأثيرها أيضاً، لم تكن لتفهمها فيما لو شرحتها لها، لكنها تستعملها في

التقريبات الرومانسية التي تجريها في علاقتنا، فهي تعتقد بأن ذكري لهذه النظرية هي طريقتي في التعبير لها عن هيامي بها، لأنها تظن بأني أشير بشكل ما إلى كتاب شعري تعرفه هي اسمه ظل الفراشة، أو أثر الفراشة، لا أتذكر بالضبط، لشاعر فلسطيني اسمه محمود درويش، ويطيب لها أن تردد أحياناً:

أثر الفراشة لا يُرى

أثر الفراشة لا يزول

كانت تعتقد بأن ذلك يعجبني، وحينما أؤكد لها بأن الشعر لا يعجبني، كانت تنقر صيوان أذني وتدندن قائلة:

وأنا أيضاً

لا شيء يعجبني

لا الراديو ولاصحف الصباح ولا القلاع على التلال

أريد أن أبكي

نظر المحقق أول ما نظر إلى كفي وأنا أقربها من حنكي محاولاً تغطية الكتابة على التيشرت والتظاهر بأني أكمّم أزراري، دوَّن أسمي ومحل سكناي ثم طلب مني أن اخفض يدي وأقف معتدلاً، هو لم يطلب مني إذا توخينا الدقة؛ إنما صرخ في وجهي وتضاحك النسوة المنتشرات في غرفته..شعرت بالحنق وفضّلت السكوت والطاعة كي لا أهان أكثر أمامهن.

تركته يدقق النظر على التيشرت لثوانٍ، أشار بيمناه نحو غرفة القاضي وهو يهذي مع نفسه:«آي لاف آي

لاف يا عمي إيش علاقتي أنا».

كنت أترقب منظراً أكثر سينمائية، صالة وطاولة متعالية عليها ثلاث قضاة برؤوس بيض، قفص يحبس خلف قضبانه مجرماً ذميماً يزبد ويرعد وشرر الجريمة يتطاير من عينيه. لكن ما حصلت عليه هو مشهد أقل من بذلك بكثير، غرفة صغيرة وطاولة مثل علبة كبريت يجلس خلفها رجل بادرني بالكلام: «تفضل عمو هنا».

جلست حيث أشار إلي وسمحت لعيني أن تجيل النظر في تفاصيل الغرفة شبه الفارغة، بينما غطس القاضي في حزمة أوراق أمامه.

«سولف لي كيف تعرفت على القتيلة صبرية كياد، جياد عفواً»، قال ذلك وهو يضع كفيه على حواف الطاولة كأنه يريد دفعها باتجاهي. قرأت أنا ذلك على إنها إشارة لاشعورية منه برغبته بالتخلص من هذا الدور، الدور الرتيب الذي يفعله كل يوم، إناس يقتلون وقاض يحقق في اللاشيء بحثاً عن اللاشيء، ففي تلك الأيام كانت مهنة القضاء والحسم والاتهام في قضايا قتل النساء والعلماء هي أبسط مهنة في الدنيا، فأنت في الغالب ستصل إلى نفس النتيجة، لا تتهم أحدا لأنك تخاف من الجميع، ولكنك تحافظ على صورتك وتبدو صارماً ومنضبطاً.

«حضرة القاضي أنا لم ألتقيها منذ شهرين»، قلت للقاضي مبتدأ كلماتي بهذه العبارة.

«تعرفت عليها أمام مبنى الإذاعة والتلفزيون قبل

سنوات، كنت أنوي تسجيل اختراعي وعرضه على القوات البريطانية، المرحومة تعمل صحفية وكانت وقتذاك تنجز تقريراً عن الأشخاص المصابين بمتلازمة النطاسي الموهوم»

«وضّح، وضّح إجابتك دون تشعب أو إيراد معلومات غير ضرورية»، قاطعني القاضي.

«أي إنها تبحث عن أشخاص يظنون بأنهم عباقرة لكنهم ليسوا كذلك، لقد أجرت الكثير من الحوارات مع هؤلاء.كانت صبرية تظن بأني مريض بتلك المتلازمة، وكنا نتجادل حول الأمر كثيراً. لم يكن ذلك يزعجني، لا أعرف السبب، ربما لأنها كانت تطرح الأمر كميزة متفردة، كانت تلفظ عبارة متلازمة مرضية كما تلفظ عبارة افتح يا سمسم، تتعامل معها بطريقة غنائية حالمة».

«أستاذ عباس، ما هو تحصيلك الدراسي؟»

«أنا خريج هندسة، بكالوريوس، لكني كتبت أكثر من سبعين أطروحة تضاهي الواحدة منها عشرات دراسات الدكتوراة هنا»

«أستاذ عباس، أريد إجابة محددة، قل لي فقط بإنك خريج هندسة، بكالوريوس، أو قل مهندس، وكفى، الأمور الباقية لاتهمنا»، قاطعني القاضي الذي اتضح أن صبره بدأ بالنفاد، ويبدو أيضاً أن قدح الحليب بالشاي الذي يضعه على يساره بدأ بالتخثر.

واصلت حديثي: «لم نكن مخطوبين رسمياً، لا عقد

محكمة ولا عقد شيخ، ولا أعتقد أن ما يجمعني بها هو علاقة غرامية أو عاطفية، كنت أقضي معها بعض الوقت لأنها تسألني دائماً، صبرية تظن أني أعرف كل شيء».

«أستغفر الله»، تمتم القاضي متبرماً.

ابتلعت ريقي وأكملت: «في التقرير الذي نشرته كانت تشير إلي بعبارة مصاب رفض الكشف عن اسمه، في الحقيقة كل تقارير صبرية كانت تشركني بها تحت هذا العنوان، لكن ميزة ذلك التقرير هو الوحيد الذي وصفتني فيه على أنني مصاب، باقي التقارير كانت تحمل صفاتاً عدة تعود إلي، رجل رفض الكشف عن اسمه، مهندس رفض الكشف عن اسمه، شاهد عيان رفض الكشف عن اسمه، مصدر رفض الكشف عن اسمه، الثابت في الجملة هو عبارة رفض الكشف عن اسمه، مع أني لم أكن أبالي في كشف اسمي ولا أمانع ذلك. كانت فقط تريد حراستي من المخاطر»

«ولماذا تعتقد بأن لهذا الموضوع وذلك التقرير علاقة بقتل المجنى عليها؟»

«في أحد الأيام كنت على موعد معها لاطلاعها على واحد من اختراعاتي، قد يبدو الأمر مضحكاً بالنسبة لك..»

«أكمل حديثك وأرجو ان لا تسترسل»

كرسي القاضي كبير، ولا أكاد أرى من جسده سوى أصابعه ورأسه، باقي جسده يغطس عميقاً بين الطاولة

والكرسي. كل هذا لم يكن حائلاً دون رؤيته يتراجع إلى الخلف ويبسط ظهره ويبدو متأهباً ومهتماً للاصغاء إلي.

«حاضر، لكن هل لديك الوقت الكافي للاصغاء؟»

«عدل جلستك وأخرج يديك من جيبك، وأكمل كلامك»

قال ذلك بنبرة ساخطة هو يحدق في الساعة الصندوقية المعلقة بالحائط، فشعرت بأنه يقضي معي استراحة الغداء ولا يأخذني على محمل الجد، هنا يصدق القاضي المجني عليها وتشخيصها لي كمصاب.

«حاضر سيادة القاضي، لقد التقينا في ذلك اليوم واطلعتها على رسائل بخط اليد بيني وبين صدام حسين..»

قال القاضي وهو يقاطعني مبتسماً: «حلو، لكنك قلت بأنك قابلتها بعد الاحتلال»

أجيبه مسروراً بتفاعله الإيجابي وارتياحه معي: «نعم لأن صدام ظل يراسلني، إنه يراسلني، يراسلني بانتظام، لكن رسائله انقطعت قبل جمعتين»

«ها، يعني حضرته يبعث لك رسائل من القبر»، قال القاضي مع ابتسامة أعرض من سابقتها.

«لا، لأنه لم يمت ولم يقتل أصلاً، هذا هو الموضوع الذي أود سرده عليك»

«كلي آذان صاغية»، قال ذلك وهو يضع كفيه على أذنيه، مثل تمثال القرود الثلاثة التي لاتسمع ولاترى ولا

تتكلم، كان القاضي تقريباً يشبه القرد الذي لايسمع.

أكملت وأنا أرفع من نبرة صوتي: «لقد بدأت بمراسلة صدام وأنا في البصرة عن طريق أحد معاونيه الحزبيين الذين ارسلهم إلى هنا في اليوم الذي أمهله فيه بوش يومين ليغادر الحكم هو وابنيه».

القاضي: «هممم».

«لكنه اليوم يستخدم الايميل الإلكتروني، المهم، والحق يقال، أنا من بادر بمراسلته، فقد عرضت عليه مشروعي في التخفي، لم يقتنع الرجل بادئ ذي بدء وشكر لي حسي الوطني الرفيع وروح التفاني الباسلة التي أمتلكها أنا وأسرتي».

«واين أسرتك الآن، هل ساعدتهم في الاختفاء أيضاً؟»

«لا، لم أساعدهم، أسرتي ليست معي، إنهم غير موجودين، أنا بلا أسرة ولا عشيرة»

«واضح، نعم وماذا فعلت بسيادة المهيب الركن، ماذا فعلت بالرئيس؟»، قال ذلك بصوت خفيض محاذر، أو مستخف، لا أدري، لفظ كلمة الرئيس وهو يمسح الكرسي بمؤخرته وتحولت ابتسامته إلى نظرة قهقهة الكاهن الشرير، لا بأس عندي أن يضحك على كلامي قاض، تجرعت استخفافه بي عندما انقدحت في ذهني واحدة من قراءاتي التي تفيد بأن انسان النيادرتال انقرض لأنه لم يكن قادراً على الضحك، وتأملت أننا حالياً نطور نوعاً من البكاء على الضحايا اليوميين لذات

السبب الذي جعل البشر يقترحون فكرة الضحك والإضحاك؛ للحفاظ على الجماعة والضحك معاً.

«أستاذ عباس، خليك مركز معي، ماذا فعلت بالرئيس؟»

«أرسلت له جهازاً لتطبيق النظرية الحتمية من تصميمي، لقد قمت بتحوير سبطانة بندقية كلاشينكوف وقطعتها ثم ثلمت فوهتها إلى نصفين، وعلى حلمة الغاز ثبت مزيل شعر نسائي ليزري حصلت عليه من مزبلة بالقرب من صالون تجميل للعرائس، في الواقع؛ كل قطع غيار ذلك الجهاز زهيدة الكلفة وأغلبها من النفايات».

أغمض القاضي جفنيه لثوان وشبك ذراعيه على صدره ولعله كان يضغط على حلمتيه.

تابعت شرحي للجهاز: «تسلط حلمة الغاز في الكلاشينكوف إشعاع الليزر باتجاه مستقيم، ويقوم مستخدم الجهاز بتصغير قطر حلمة الكلاشينكوف كي يتحكم بقطر بقعة الضوء المنعكسة على الجسم المراد التلاعب به. علمت صدام ماذا يفعل بالضبط، أرسلت له عشرات المخططات المرسومة على ورق سلوفان السجائر، وكان الرجل يستعلمني ويجرب تفكيك الجهاز بنفسه حتى صار فيه حجة من الحجج. بل صار يناقشني في التفاصيل، وهذا الأمر أبهرني بصراحة، ولا أخفيك قولاً؛ أنا لم أتوقع كل تلك النباهة منه. خصوصاً بعد أن تطوع من عندياته لتصميم صندوق الجهاز، فجعله عبارة عن غرفة خشبية رئاسية مزينة بالزخارف

واللمبات. وأرسل لي صورته وهو داخل الصندوق»

«أنت عبقري يا عباس، لم لا تهاجر وتدرس في الخارج، لكن قل لي، لدي سؤال صغير، هل قصصت ذلك على أحد قبلي؟، على أية حال، أنا لا ألعن إلا الزمن الأغبر الذي أجلسك أمامي، تفضل، تفضل أكمل، أكمل والتهم ما تبقى من التبن».

لكني تابعت كلامي ولم أعبأ بما يقوله حضرة القاضي، إنني معتاد على كلمات مثل هذه وتوقفت منذ سنوات عن الإصغاء لها، أنا أمضي في طريقي ولا أتوقف عند نباح المتربصين بما أفعل، الناس لا يشجعون أحداً ولا يفهمونه، إنهم يصرون على تحطيمك وفل عرى عزيمتك، أنا لم أنتظر المساندة من أحد أبداً، وفي ملتي واعتقادي أن التلفت في المسيرة إلى أقوال الناس لن يوصلني أبداً.

لمّا كنت في المدرسة الثانوية، لم أكن لأضيّع وقتي في مشاهدة هذه الأمور، لكن مدرسة التربية الفنيّة جذبتني من رقبتي وأدخلتني في غرفة المدرسات، كانت سيدة ممتلئة تفوح منها رائحة البستج، لأنها كانت تمضغه كل حين، وجدت نفسي في حضنها تقريباً، نادت على باقي المدرسات وقالت لهم:«ألا يشبه عباس الدكتور ناصف؟»، فاجتمعت المدرسات وتحلّقن حولي، ينكشن شعري ويعبثن ببراطمي المتهدلة وخدودي البارزة، ظننت أن الدكتور ناصف هو شخص ما من الهيئة التدريسية، غير أني وبعد عودتي للبيت، وفي

الليلة ذاتها، عرفت من هو ناصف هذا، كنت لا أطفئ التلفاز وأرفع صوته كي يشعر من يمر على دارنا بأنها ليست فارغة، كما إن أصوات الممثلين والمذيعين والمذيعات تملأ الغرف بالحيوية، كنت وحدي، وحدي أنا والوجوه التي تصنعها الرطوبة على الحيطان. سمعت صوتاً من التلفاز يقول: أنا معايه تلاتة ماجستير واتنين دكتوراة وعقلية معملية فذة، وعرفت أن في ذلك شيء يخصني، إنه صوت الممثل يونس شلبي في مسلسل مصري تبين لي بأن اسمه مطلوب عروسة؛ والشخصية اسمها الدكتور ناصف أبو الفضل، إنه محب للعلم مثلي ويجري التجارب ويكتب الأطاريح، ويردد جملته الأثيرة في المسلسل: «أنا شخصية معملية فذة». لم يكن يشبهني بالضبط، هو بالأحرى يشبه تلك الصورة الموجودة في رؤوسهم عني.

طلب مني القاضي أن أختصر وأنعطف بالحديث نحو المجني عليها، نادى على شخص ما في الخارج وطلب منه أن يرفع الشاي بالحليب ويجلب لي كوب ماء.

سمحت لنفسي بأن استأنف: «إذا شغل صدام الجهاز في لحظة هادئة ومستورة فسيتواجد مرتين في مكان واحد، لن يتحول إلى نسختين ولن ينشطر أو ينقسم، إنما إحساس الناظرين إليه سيكون في منظورين مختلفين، الفيزياء الكمومية..»

القاضي مقاطعاً: «ها؟»

أجيبه:«الكمومية، هنالك عالم اسمه شرودنغر جلب

ذات مرة قطة، وهذه القطة مشهورة جداً، لأنها ميتة وغير ميتة في الوقت نفسه، لقد سلط عليها غازاً ساماً ونحن نعرف أن الغاز يمكن أن يقتلها، لكن الألكترونات في ذلك الغاز قد تنتشر ويتحرر الغاز ويجد طريقه إلى أنف القطة، وقد لا يتحرر. الذي يقرر ذلك هو نحن، نحن الناظرون إلى الشيء نحكم على صورته وأحواله، فلكل شيء عدد لا نهائي من الصور والاحتمالات، والذي يختار احتمالاً من احتمالات الوجود تلك هو أدمغتنا. نحن الذين سنرى القطة المحبوسة في صندوق مظلم مع الغاز، دماغنا هو الذي سيلاحظ هل تحرر الغاز وقتل القطة أم لا؟، ولكن قبل أن نفتح الصندوق فهذه القطة ميتة وحية في الوقت نفسه، لأن دماغنا لم يلاحظ ذلك بعد، لأن سلوك جسيمات الغاز خاضع لاحتمالات لامتناهية. وصدام مثل القطة خاضع لاحتمالات الغاز، الذي فعلته أنا هو أني أبقيته داخل الصندوق تحت تأثير عدد لامتناه من الاحتمالات، ثم قمت بتحديد احتمالين فقط، الاحتمال الأول هو أن يعثر عليه الأمريكان في الحفرة فيفتحوا فمه ويفحصوا أضراسه ويعتقلوه. والاحتمال الثاني هو أن يكون على السطح أمام كشك صغير لبيع الخيار والرمان. ولقد تحقق الاحتمالان بنجاح ونجا صدام وعاش واعتقلوه وأعدم في الوقت نفسه».

صفق القاضي أوراقه ببعضها ولم يظهر أي علامة على الاهتمام، بدا لي أنه كان يحاول تغذية رغبتي في

الحصول على مستمع من طراز رفيع، وخير ما فعل.

غادرت المحكمة وأنا أتلفت يمنة ويسرة، أوقفت أول سيارة تكسي ظهرت لي وطلبت منه أن يوصلني إلى قلب المدينة، حيث مقهى البريكان.

بيت فيرونيكا، من أيام شهر تموز في السنة 1988 الميلادية

في بيت فيرونيكا شاهدنا لأول مرة أفعى محنطة، ولأول مرة شاهدنا حوض أسماك الزينة، وطائر اسمه البرقان، محنط هو الآخر، لكن رائحته لم تعجب فاضل، لونه رمادي وهنالك مساحة زرقاء فوق منقاره، ضحكت وأنا أقول لفيرونيكا إنّ هذا الطائر يشبه البدوي أبي الرشمة. الاستهزاء بالآخرين عيب يا عباس، نبهتني وهي تبتسم ثم أضافت:

«هذا الطائر هو أول مهندس نفط في هذا المكان، لقد لاحظ الرحالة بأن منقاره ملوث بالزيت، فعرفوا أن في هذه الأرض نفطاً، فجلبوا عرباتهم وحفّاراتهم وعبيدهم، فغاب الطائر ولم يعد يتواجد هنا بكثرة».

تحت البرقان ثلاثة طيور صغيرة وبدينة، يشبه واحدها كرة الصوف، على رقبة كل واحد منها يافطة نحاسية صغيرة محفور عليها سطر من الكلام بالإنجليزية، بعد أن شاهدتني فيرونيكا أمرر أصابعي على الكلام، بدأت تترجم كلما وضعت يدي على طائر، تدلك السلحفاة على الطريق أكثر من الأرنب، النجاة ليس للأقوى ولا للأذكى بل للذي يستجيب للتغيير، سيتوقف بحثنا عن السمكة إذا عرفنا بأنها داخلنا.

كلمة عربية واحدة كانت منقوشة تحت كل طائر، «سلحفاة»، اعترض فاضل متبجحاً بعربيته ومصححاً لها، هذا طائر وليس سلحفاة، وما كان منها إلا أن

تظاهرت كطفلة في الابتدائية أخطأت في التهجئة والاملاء، وقلدت صوت طفلة وهي تقول: «كيف لي أن أشرح ذلك!، هنالك رجل ولد في نفس المدينة التي ولدت فيها، جمع مجموعة من طيور الفناجس وكتب عنها، وهذه الطيور المحنطة هي طيوره نفسها، ودانيال زوجي يسميها على اسمه: فناجس دارون، لا أدري صراحة لماذا سماها دانيال سلاحف بينما من الواضح بأنها طيور».

أمسك فاضل واحداً منها ولاحظ بأنه محشو بالصوف، لم تكن له عينان بل وضعوا له خرزتين في وجهه، فاحت رائحة الفورمالين من الطير الميت فتركناه وانجذبنا نحو ساعة كبيرة في زاوية الصالة، كانت الساعة أكبر منا، لها باب زجاجي مؤطر بالنحاس ونواقيس تتحرك يميناً وشمالاً، وفي الأعلى صندوق مكعب يحتوي على عقارب الساعة والأرقام العربية البارزة، نجحت في فتح الباب ودخلت إلى صندوق الساعة، لم أستطع أن أحشر جسدي بالكامل وضغطني فاضل وهو ينظر للأعلى، يضغطني ويدقق في عقارب الساعة، وحينما نجح في اغلاق الباب قلت له:

كم الساعة الآن؟

فاضل: «السابعة والنصف».

خرجت من الساعة ودخل هو مكاني وسألني السؤال نفسه.

«السابعة والنصف»، أجبته الجواب نفسه.

أتذكر بأنه غضب وزمَ شفتيه، يغضب فاضل حينما يكتشف بأننا متشابهين في كل مرة، كما أن ما قالته حدبة في ذلك اليوم ما زال يعتمل في نفسه. لم يعجبه أن الساعة لم تغيّر رأيها حينما تبادلنا المواقع.

فيرونيكا كانت واقفة على مقربة منا تعبث في مطبخها وتراقبنا، تقدمت لنا وقالت:

«يا أولاد هذه ساعة وليست ميزان، فيما يخص الساعات فنحن ننظر إليها ونعرف الوقت، إذا دخل أحدكم في بطن الساعة فلن يتغير الزمن، الزمن ثابت هو هو. أما الميزان فتحتاج أن تضع في الكفة شيئاً ثم تقرأ الوزن، هل هذا واضح؟».

لم نجبها وفضلنا أن نحاول الدخول إلى الساعة مرة أخرى.

«ما اسم معلمة العلوم في المدرسة؟»، تسألنا فيرونيكا محاولة إيقافنا من اللعب بالساعة.

لا نجيبها.

لم نكن مهتمين جداً بتأخرنا في بيتها وغيابنا عن المنزل، هي لم تسألنا ولم تظهر أي شعور بالذنب حيال ذلك. حتى حينما يطلب فاضل صحناً إضافياً من الجيلاتين لم تكن تتبرم أو تجزع من طلبه، بل إنها ملأت زمزميتنا بعصير البرتقال وعلقت قبعتي الخوص خلف الباب، فيرونيكا كانت الشخص الوحيد الذي يبدو متفهماً لمهمتنا الشاقة، ولأنها لم تكن تمانع الحديث في الموضوع فقد أبلغناها بأننا لن نتأخر عن دفن الفراشات

حتى لو أصبح القصف أشد من ذلك، بل حتى لو منعنا والدنا من الخروج وضربنا.

«وهل سبق أن ضربكم الحاج ربيع؟»، قالت فيرونيكا ونحن نأكل تحت جنحها وفوق سريرها.

فاضل: «أبي لا يستطيع أن يضربنا نحن نركض بسرعة».

أنا: «فاضل يضربني».

فاضل: «أضربك عندما تبكي، صوتك يشبه ماطور الماء».

فيرونيكا: «ينبغي أن نذهب الآن إلى بيتكما، سأمشي معكما وأسلمكما إلى الحاج ربيع».

عندما أتممت جملتها تلك سمعنا الباب تطرق بضراوة، ثم تلا ذلك صوت أبي منادياً:

«ست فيرونيكه، افتحي الباب ست فيرونيكه، اعرف بأنهما في الداخل، ألف مرة قلت لك لا أريد أن أرى أطفالي في بيتك، ألف مرة».

هبت فيرونيكا ووضعت القبعتين على رأسينا، ودفعتنا دفعاً نحو الباب، فتحته وأشارت إلينا بالخروج وهي تغمض عينيها.

طلب مني أبي أن أمسك يد فاضل ولا أتركها، بينما أمسك هو يد فاضل وظل يمشي قاصداً بيتنا، كنا نركض لحظة ونمشي ببطء للحظات، كان أبي يستجيب لأصوات القصف ويحاول أن يختبئ قدر الامكان تحت

السلالم الخارجية للمنازل، وذلك لأنه قد لاحظ كيف تصمد السلالم كل مرة حينما تقصف البيوت، فالاختباء تحتها أمر محمود وضروري للنجاة، وبعد أن وصلنا البيت ابتدع فاضل رقصة اسماها برقصة الطن طن طا، استلهمها من توتر أبي وحركات جسده وهو يركض بنا تحت القصف، كان يخفت تارة ويتوقف ثم يسرع ويركض تارة أخرى استجابة لايقاع القذائف، اعتبر فاضل ذلك الايقاع موسيقى لتلك الرقصة، رقصناها معاً حتى ونحن نتظاهر بالزعل من أبينا، فلقد حبسنا في الغرفة ودخل هو إلى الصالة ووضع رأسه قريباً من المذياع.

بعد أيام من ذلك، حدث الشيء نفسه تقريباً، عثرت على فراشة ميتة، لون جنحها بلون الرمّان لكنها أصغر من باقي الفراشات المرحومات، الأمر الذي جعل فاضل يبكي بمرارة، ورغم أني أوقفته قائلاً: «صوتك وأنت تبكي يشبه ماطور الماء أيضاً»؛ لكنه لم يدخر جهداً لتسهيل موضوع دفن الفراشة، فلقد لبسنا قبعات الخوص وانطلقنا تحت جنح المغربية نتعثر ونذرف الدمع ونتثاءب من العناء.

قبل بلوغ المقبرة لاحظنا النور يشع من قبر مفسر الأحلام ابن سيرين، كانت النافذة مضاءة واستطعنا أن نرى خيال رجل في الداخل، تسللنا بحذر كي لا نصطدم بوجه الحارس ويطردنا، فلقد جئنا لدفن الفراشة ولا شيء غير ذلك يهمنا في تلك الليلة، وهذا ما حدث،

حفرنا حفرة بملعقة الطعام كالعادة ووضعنا الفراشة ورمينا فوقها حفنة من التراب، كل شيء كان روتينياً وعادياً ومشابهاً لما كنا نفعله في المرات السابقة، هكذا كنت أظن حتى فاجأنا صوت من الخلف: «ماذا تفعلان ها؟».

التفتنا لنرى جندياً قصيراً بديناً بوجه مكتنز يقف خلفنا قريباً من قبر ابن سيرين، لم يكن صعباً معرفة أن خيال الظل في غرفة الضريح كان عائداً له.

لا أتذكر جوابي له بالضبط، غير أنه كان لطيفاً معنا، وحينما أبلغنا بأنه عطشان سقيناه عصير البرتقال من الزمزمية، أخبرناه أننا هنا لندفن الفراشة، نحن متخصصان بدفن الفراشات وبيتنا في البرجسية وأبانا اسمه الحاج ربيع، «هل تعرفه؟».

حرك الجندي رأسه نافياً دون أن ينظر إلينا، كان مشغولاً بالانصات إلى صوت صافرة الانذار والتأكد من توقفها.

«لقد ظننت بأنكما محمد وهشام، لدي صديق مدفون هنا، وهذا قبره، ولديه ابنان بعمركما».

قال ذلك وهو يؤشر نحو قبر قريب.

ثم سألنا: «هل تعرفانه؟»

قلنا لا، وانتبهنا إلى إننا دفنا الفراشة قرب ذلك القبر دون أن نعرف صاحبه، لذلك ظن ذلك الجندي بأننا من أقرباء ذلك الميت.

طلب منا أن ندخل معه غرفة الضريح، قال لنا أن لانخاف وعليه أن يطفئ النور؛ لأن ذلك خطر وسنكون عرضة للقصف لو ترك المكان مضاءً، اقترب مني فاضل والتصق بي، كان الجندي يحتفظ بمسافة بيننا وكنا نسمع حسه يأتي من جهة اليمين.

«هل هذه الفراشة سنية أم شيعية؟».

سألنا الجندي فتأخرنا في الرد، قال فاضل بأنها سنية، ثم اختلفت معه وأكدت للجندي بأنها شيعية، فقام فاضل بفرث لحم خاصرتي وقرصها.

قال الجندي: للشيعة مقبرة وللسنة مقبرة أخرى، عليكما أن تحسما الأمر وتدفنانها مع أهلها.

لم نكن نعرف ما معنى سؤال الجندي، إنما كنا نحاول أن نتحاذق ونتظاهر بمعرفة كل شيء، فلقد كنا حقاً نجيب على كل شيء يسأل لنا.

تربية سيئة، هذا ما ينتابني حينما أتذكر لهفي في جواب كل شيء، لقد ربانا أبي على نهج بائس، كان يعاملنا على أننا أذكياء فوق العادة، أنا مدين لكل من شتمني يوماً ما وقال يا عديم الرباية، تربية سز، أهلك ما ربوك. أنا عديم التربية، هذه هي الحكمة التي أؤمن وينبغي أن أخطها كوشم على زندي. لقد استمرت هذه الحالة عندي حتى وقت قريب، ولم تنتهي عند قبر مفسر الاحلام.

حينما طلع الفجر، شاهدنا الجندي وهو عار تماماً، كانت تلك هي المرة الأولى التي نرى فيها رجلاً بلا

ملابس، وعندما شعرنا به يهم بالاستيقاظ أغمضنا أعيننا، فما كان منه إلا النهوض ومغادرة الضريح، دخلت قطة جائعة ووضعت أنفها في الكيس النايلون الذي طوى فيه الجندي ملابسه، ثم سرعان ماعاد الجندي وهو يرتدي دشداشة وجوربين غير متشاكلين، فسألناه هل تعرف أبي الرشمة وهل تتشائم مثله من ارتداء الأشياء المتشاكلة؟.

«لا أعرفه لكن بعض الناس يدفنون ملابس الموتى وحاجياتهم الخاصة معهم».

قال لنا وهو يطارد القطة ويزجرها، وفهمنا من كلامه بأنه سلب حاجيات الموتى.

خرجنا معه إلى الشارع، وهناك؛ استوقف سائق شاحنة وطلب منه مساعدته في ايصاله مع ولديه إلى البرجسية، رفض السائق في البداية لكنه أقنعه بعدما ذكر له بأن بيته تدمر كلياً في القصف وهو يريد ايصال ولديه إلى بيت جدهما، لكي تتسنى له العودة باكراً لدفن زوجته!، تعاطف سائق الشاحنة معه وسمح لنا بالركوب إلى جانبه ووضعنا نحن خلف كرسي السائق.

بعد دقائق من السير فزَ الجندي صائحاً بنا:«تعالا هنا، اجلسا هنا وأنا سأجلس في الخلف». وبعد أن تبادلنا الأماكن قعد عاقداً أطرافه وخافضاً رأسه، فعرف السائق أنه يحمل معه في السيارة جندياً فاراً من الجبهة ويخشى أن تمسكه الدوريات وتعدمه فوراً.

أظهر السائق سخطه في الحال وانتقم من الجندي

بالشتائم وهو يؤنبه على توريطه بمصيبة مثل هذه. ثم طلب منا الجندي أن نأخذ منه شيئاً، التفتنا نحوه ووجدناه يمد يده وفيها بطاقة هويته، طلب منا أن نقطعها ونرميها من النافذة، حتى لا يتعرف عليه أحد فيما لو استوقفتنا دورية من تلك التي تكمن بين التلال.

أخذت منه الهوية وحاولت تمزيقها لكن ذلك لم يكن سهلاً، خطفها السائق وحاول أن يمزقها غير أنها كانت صلبة جداً ومكبوسة بغلاف نايلوني مقوى.

وهنا، طلب مني الجندي أن أجعلكها بفمي وأضغط عليها بأسناني.

فعلت في الحال ما طلبه مني، اخذت الهوية وأدخلتها فمي فانثنت وبدأت تتكسر لكن طعمها كان حامضاً وزنخاً جداً، سمعني فاضل وأنا أسعل بقوة بعد أن أخرجت الهوية من فمي ورميتها من نافذة باب السيارة، حدّق بالجندي بغضب وسأله «هل سيموت أخي؟».

فنفى الجندي ذلك، أتذكر بأنه استعاد اتزانه وتنفس الصعداء ثم أكد لفاضل بأني سأكون على ما يرام، لن تستمر تلك الحموضة في فمي كثيراً، عليك بغسل وجهه ومنحه قدحاً من الماء حينما تصلون إلى البيت. ثم طمأنني وربت على كتفي قائلاً:«لا تخف ستكون تمام، الهوية طعمها سيء لأني كنت أخفيها في مؤخرتي».

وصلنا إلى البيت وكان السيد الوالد بانتظارنا مع حزمة أسئلة وصيحات غاضبة لم ينجح في كتمانها، لقد

كان حريصاً على أن لا يبدو غاضباً وأن لا يجعلنا نشعر بالرعب منه. مع ذلك، لم تطاوعه نفسه فقذف نحونا حذاءه الجلدي الكبير المزود بالمغناطيس.

لدى أبي تشكيلة لا بأس بها من تلك الأحذية الممغنظة التي يستعملها عمال حفر الآبار النفطية لأغراض السلامة، فهي تلتصق في الأرضيات الحديدية وتسهل من مشيتهم وتسلقهم للأبراج. هذه المغانط تجعل الحذاء ثقيلاً وصلباً للغاية، أنا وفاضل كنا نعمد كثيراً إلى اخراج أحذية أبي من الخزانة وتقريبها ببعضها حتى تلتصق وتتكدس مشكلة كتلة كروية من الأحذية، نأخذها ونعلقها على أغصان شجرة الغردق في الحديقة.

في ذلك اليوم اصطدم الحذاء الذي قذفه أبي بأسنان فاضل فانكسر واحد من أسنانه الامامية؛ فحدث فرق جديد بيننا ربما كان يبحث عنه الجميع، فاضل في مفرق أسنانه ثلمة وأنا بلا ثلمة. وهذا أوجه بكثير من الفرق الوحيد الذي كان ظاهراً بيننا، فأنا أيسر وفاضل أيمن؛ وهذا أمر لا يتوصل إليه أحد إلا بعد أن نكتب أو نفتح علبة، أو نقول وداعاً فيحرك فاضل يمناه وأحرك أنا يسرتي.

أصبنا بحالة من السكون التام وتركناه يطببنا من أوجاع الحذاء الممغنط، غفا فاضل كذباً وتظاهرت انا بالتعب الشديد فألقيت جسدي على القنفة، كان فاضل تحتي بعد أن فرش له أبي على الأرض وأمام التلفزيون

ووضع إلى جانبه صحناً من الفواكهة.

حينما اختفى أبي عن الأنظار سمعناه يصلي ويبكي في الحديقة، لم تشفع أنَاته في خفض احساسنا بالقهر وقتها، فغافلناه وهربنا من المنزل، تسلقنا السياج وقفزنا دون أن يشعر بنا.

لم نذهب إلى بيت فيرونيكا ولا إلى المدرسة، لا إلى المقبرة ولا إلى أي مكان من أماكننا المعتادة.

بقينا نمشي في الطريق الترابي حتى لمحنا دورية تَقطع الدرب بسيارة نقل خاكية صغيرة.

تحدثنا معهم وأركبونا سيارتهم، ولم تكن سوى لحظات حتى عدنا مع الدورية إلى البيت.

لا أتذكر بأنهم كانوا جنوداً، أغلب الظن أنهم كانوا من الشعبة الحزبية، التي كانت تمارس مهامها في تلك الأيام في الرصد وتعقب ما يحدث من أمور تحت القصف والهلع.

رفسوا بابنا ودخلوا، أبقونا عند الباب وصرنا نتابع ما يفعلون.

بعد أقل من ثلاث دقائق شاهدناهم يسحلون أبانا ويضعونه في مؤخرة السيارة معصوب العينين. كان هادئاً ووادعاً يطلب منهم برفق أن يرانا ويستأمننا عند أحد الجيران قبل اعتقاله.

لكنهم كانوا يعاجلونه بأجوبة من لكمات ورفسات وضغطات لفكه العجوز.

لم يكن أبي ليعرف بعد بأننا قد اشتكينا عليه وقلنا لهؤلاء بأنه قد شتم السيد الرئيس. لم يكن يعرف بأن فاضل قد بكى أمامهم؛ وأخبرهم بأنه أبيه الحاج ربيع قد كسر سنه لأنه اعترض على شتمه للرئيس.

لم يكن يعرف ذلك، كلما كان يعرفه بأننا هربنا من البيت، وكلما كان يفعله هو النحيب والتذلل لهم والطلب منهم أن يعثروا علينا، لقد أحكموا الغطاء على عينيه فلم يكن ليرانا ونحن نراه في السيارة، وهو يحمل حقيبة جلدية مفتوحة من الأعلى.

حينما تحركت السيارة وقفنا عند باب بيتنا ولمحناها تبتعد وتغرب عنّا، ولمحناه يتقلب بين أيديهم وهم يلكمونه ويصفعونه.

ثم سقط من حقيبته شيء في الأرض.

انتظرنا أن تختفي السيارة وهرولنا باتجاه ذلك الشيء، تأكدنا بأنهم ليسوا في الأفق وتقدمنا ببطء ووجل نحو الشيء الذي سقط من حقيبته.

قال فاضل بأنه جذع، قال ذلك وهو يرفعه من الأرض ويرميه عليها مرة أخرى.

قلت له:«لا، هل نسيت؟، إنها الذراع الخشبية التي صنعناها لأبي».

«هل نحن ابناء زفرة؟»، سَألني فاضل.

أخذنا الذراع وانصرفنا نحو بيت فيرونيكا. ونحن نطرق بابها مر القطار مطلقاً صفيره فشاهدناها تقترب من نافذتها وتنظر إليه وهو يتلاشى، وتتلاشى معه

ملامح وجهها الكئيبة بعد أن لمحتنا.

لم تسألنا عن أبي ولم تؤنبنا لأننا خالفنا أوامره، وضعتنا في فراشها ورمت فوقنا أوراقاً وأقلاماً ملونة.

«رسمنا حتى تمكن من أجفاننا التعب، قلنا لها هل نستطيع أن ننام هنا على سريرك؟».

«هل تتبولان في السرير عادة؟».

«نحن لا نتبول، لكننا لا نحلم فهل تقبلين بذلك؟».

مقهى البريكان، 23 كانون الثاني من السنة 2013 الميلادية

على دكة قريبة من باب المقهى جلست وطلبت استكانة شاي حامض، اسمعهم يتحدثون عن القصص، حلقة من الشباب يتذاكرون ويكتبون فيما بينهم، كنت قريباً من آخرهم، قبل دخولي للمقهى كنت قد دلفت إلى سوق الملابس وانتزعت سترة من الملكان ووضعتها على جسدي ودفعت ثمنها وانصرفت، أنا سريع في شراء الملابس ومحلات الملابس عندي مثل الصيدليات، ومن المؤسف أن باعة الثياب يقفلون دكاكينهم في الليل، كثر ما حدّثت نفسي عن ضرورة أن تكون هناك محلات ملابس خافرة في منتصف الليل، ألجأ لها في نوبات كآبتي، اللبس الجيد يعني شعور جيد ودراميات أقل.

الشخص القريب مني والذي يذاكر مع زملائه في الحلقة كان يناقشهم بحرارة عن شيء اسمه الواقعية الاشتراكية، انتبهت إلى أنه وفي خضم لهفته في الكلام التقط شيئاً من الأرض وظل يدخله إلى فمه ويحشره تحت فكيه، يخرجه ويدخله وهو يبيّن وجهة نظره في تأثير الواقعية الاشتراكية في ظهور شخصية المثقف العضوي، ذلك المثقف الذي له رأي ووعاية فيما يدور حوله، كان الولد يكرر لفظة وعاية بين جملة أخرى، كان يتلكأ أحياناً وكأنه يتجنب استعمال لفظة وعي حتى لايبدو ما يقوله عادياً، عندما توقف عن الحديث دس

الزملاء رؤوسهم في أوراقهم وشرعوا بكتابة شيء ما، أما هو فلم يتوقف عن علك الشيء الذي بين فكيه.

دخل تيار هوائي خفيف من النافذة المربعة فهممت بقفل سترتي وبحثت بأصابعي عن الأزرار، لم أجد الزر العلوي في سترتي الجديدة ووقعت أصابعي على نتفة خيوط حلّت محله، لم يكن عسيراً ملاحظة أن الشيء الذي في داخل فم الشاب هو زر سترتي.

رفعت بصري لأتصفح جدران المقهى باحثاً عن أشياء صبرية التي كانت تعلقها وتزيلها حسب المناسبة، إلى جانب لوحات بالألوان المائية وبورتريهات رديئة لشعراء وقصاصين كانت هنالك قصاصات ورقيّة تحمل مقتبسات وجذاذات شعرية. ميّزت خط صبرية بين تلك المقتبسات المعلّقة. ووقفت ثم خطوت نحو خطها وسمعت الشاب يشرع في الحديث عن شيء اسمه الواقعية السحرية وهو يغلق فمه على زر سترتي ويمتصه ويعالجه بلسانه كما لو كان قطعة حامض حلو.

كتبتْ صبرية في القصاصة المزينة بالورود والأغصان: كل مدينة هي مدينة عجائب، وكل مدينة هي بصرة بشكل من الأشكال ونحو من الأنحاء.

قريباً من رسمة تخطيطية لوجه الشاعر محمود البريكان كتبتْ: الألم قارب، الوحدة سمكة، الشعر سطح الماء، الشوق هَبة ريح، الهيام يعتذر للشمس، القلق يبلل المجداف، الخصلة صنارة، الجزيرة أنت.

ووقعت تحت الكلام باسمها: صبرية جياد، وتحت

اسمها كتبت اسم مجموعتها الشعرية: صهد.

عدت إلى مكاني وأنا أرهف سمعي لعلي اسمع أي طرطوشة كلام عنها، وضعت جسدي على الدكة وأصغيت من جديد إلى كلام الشاب، لاحظت أن لافتة صغيرة وحيدة مكتوبة باملاء سيء جيد تقول: *احترس انت بين المؤلفون والكتاب فقد ربما تصبح مكتوب في ما يكتبون فلطفا لاترفع صوتك.*

شعرتُ بأنه تهديد وعليَ أن أحمي نفسي من أن يكتبني هؤلاء القصاصين والروائيين، أحسست أن أوراقهم وحواسيبهم وأقلامهم ملاعق وسكاكين وأكف مضمخة بالرز والدهن تطاردني وتحاول التهامي وبطحي على صحن الكتابة، وقبل أن تهرسني الملاعق يُنثر فوقي قليل من الهمزات والشدات كمطيَبات.

تجلى ذلك في رأسي وأنا أمعن النظر بالشاب مرة أخرى وهو يقضم زر سترتي.

ما قادني إلى المقهى هو نزوعي هذه الأيام وبعد استلام تبليغ المحكمة إلى حالة من العطش لأي شيء يخص صبرية، فلعلي أسمع هنا أنباءً جديدة عن قضية مقتلها، أتشمم الأخبار واتسقط الألسن، لكن وكما يظهر بأنهم جميعاً كفّوا عن التطرق لأخبارها، الحديث الغالب هو حديث عن اعتبار ذلك الشهر هو الشهر الأكثر دموية في السنة من ناحية أعداد ضحايا العمليات الانتحارية، فمن ذا الذي يجرأ في ذلك الصخب أن يفكر في ضحية واحدة بعينها، مئتين وخمسين شخصاً قتلوا في ذلك

الشهر وقياساً بهم فطريقة مقتل صبرية وربطها وقذفها في النهر هي جريمة اغتيال رحيم نسبياً، هي لم تتعلق أمعائها على الأسلاك الكهربائية ولم يتناثر مخها ويسقط على الرصيف ولم ترم من الشواهق حيّة، لقد ماتت بطريقة مألوفة وعادية، رصاصة ولفة بطانية وسلك تلفون وجثة في النهر تلدغها الأسماك الصغيرة التي تحب الأشياء الحلوة إذا ما وقعت في الماء المالح.

سمعت الشاب الذي يتحدث عن الواقعية السحرية ينعطف بحديثه مرة أخرى نحو المثقف العضوي، لقد شارك اصدقائه رأيه القائل: وهكذا كانت الأمور الغرائبية والترميزات والقصص اللامعقولة هي نوع من الاحتجاج على الواقع ووعاية التأريخ.

أحسست بطاقة خفية تشدني نحو دق عنق ذلك الشاب ووضعه على الدكة والجلوس فوقه حتى أنتهي من مهمتي في المقهى، لكني استسلمت لروح النشاط والانتباه التي يبادله إياه زملائه، فلا أظنني سأنجو من أياديهم لو مسست صاحبهم بسوء، ثمّ إنني رجل غريب عن المكان، دخلته مرتين أو ثلاث برفقة صبرية وكنت أتأفف من حضوري ومن كل تفاصيل المكان، لذلك فكل ما ينبغي فعله هو الحفاظ على توازني وهدوئي في المقهى حتى ينتهي ذلك اليوم بسلام ويعبر إلى ضفة الماضي.

إنه إذن يوم غير استثنائي، رتيب وعادي والفارق الوحيد فيه هو أنه من تلك الأيام التي يعيشها الناس

الأحياء بلا صبرية، وأعيشها أنا بلا صبرية وبلا طاقة أو احتمال، لكن الرتابة انقضت فجأة حينما خرجت من المقهى ووليت ظهري للأدباء ولغابة الواقعيات التي يشرحها ذلك الشاب. تغير اليوم كله وانقلب على عقبيه، وتحول من يوم أعيشه بسأم وثبور إلى يوم لا أعيشه أساساً بل أتبرزه وأتخلص منه مثل السموم والمخلفات البشرية، الزمن حسبما أرى هو سم بشري آخر لا يحتاج لخبرة مختبرية لإنتاجه، كلنا أساتذة في جعل الدقائق تمر وتأخذ مكانها في رف الحوادث الماضية.

هذا على الأقل هو ما شعرت به وأنا أضع رجلي خارج المقهى، رن هاتفي فأخرجته واخترت مكاناً هادئاً لأجيب، تحديداً تحت مظلة رجل يبيع كبة البرغل ويقف ممسكاً ملعقته الكبيرة ويغرف بها لزبائنه.

«ألو نعم»

«هلو عباس، شلونك، أنا صبرية»

«من؟، لحظة دعني أجد مكاناً بلا هذا الضجيج»

«اخرج من مظلة الكبة»

«كيف عرفت بأني في مظلة الكبة، أين أنتِ؟، لا أراك. لحظة لحظة من أنت؟»

«أنا صبرية يا عباس»

«صبرية؟ صبرية؟»

«إيه صبرية ما بك؟»

«ملعون أبو السخافة، أنا لم أصدق بأنكِ ميتة، مالذي

حدث، ولماذا مازال الناس يحضرون مجلس الفاتحة، أين أنتِ؟»

«اخرج من مظلة الكبة، اخرج من السوق وتعال اركب في السيارة»

«أي سيارة؟»

«أنا خلفك بالضبط، بيك آب حمراء»

أعدت الهاتف إلى جيبي وأدرت ظهري وراوغت أجساد الباعة الجوالين باحثاً عن سيارة البيك آب الحمراء، لمحتها عيناي بعد تصفح سريع لألوان الشارع لكني لم أشاهد صبرية، عبرت الشارع واقتربت بالتدريج وعلى مهل فتحت باب السيارة وصعدت.

في السيارة سائق ملثم، خمنت بأنه من ذوي صبرية وأقاربها، فعادة الناس أن يضعون يشماغاً غير محكم على رؤوسهم إذا كانوا في حالة عزاء، وخمنت أيضاً أن صبرية في مكان ما داخل السيارة لكني لم أركز كثيراً، فقد كان الشغل الشاغل وقتها أن نفلت من زحام السوق ونصل إلى بقعة هادئة حتى يتسنى لي إدراك ما يحدث.

شغل السائق عجلته وانطلق وهو يشق طريقه بتثاقل، كاد أن يصطدم بشاحنة صغيرة على الجسر القصير ثم اصطدم فعلياً بالرصيف، أعاد تشغيل سيارته التي بدت تترنح كقارب سكران، حبست سؤالي عن صبرية وكظمته تحت لساني لأني كنت مرعوباً، فلقد أشعرني السائق بأن هناك من يطاردنا وعليه أن يقود بسرعة فائقة حتى يصل إلى بر الأمان، فلا وقت للسؤال

ورفاهية الحوار.

كنت أنظر لدمية الكلب التي تتدلى من مرآة السائق الداخلية، الكلب يتملقني ويهز رأسه وأنا أصوب وجهي نحوه وأعجز عن حرف أنظاري باتجاه السائق، مرت عشرون دقيقة حتى استقرت السيارة في مجمع القصور الرئاسية التي شغلها البريطانيون كمقر لقيادتهم بعد أن كانت مخصصة للرئيس، لم ألتقط أنفاسي حتى أطفأ السائق محرك السيارة، حينما التفت نحوه كان قد فتح باب السيارة وخرج دون أن يغلقها.

مكثت وحدي في البيك آب، أخرجت هاتفي وضغطت الرقم الذي خابرتني صبرية بواسطته. رن الهاتف ولا من مجيب، ضغطت الرقم مرة ومرتين وثلاث، أربع وخمس وست وسبع مرات دون فائدة، تشجعت ونزلت من السيارة وخطوت بضع خطوات نائياً عنها، ركنت نفسي على الرصيف المجاور وتجمدت هناك وأنا أراقب السيارة وزوايا الشارع المحيطة بها.

كان حلماً، استيقظت منه، دعكت محجر عيني وفرقعت أصابعي.

لكننا أبناء ربيع كثافة لا نحلم.

لا تخالجنا الكوابيس ولا تزورنا الرؤيا في المنام، لولا هلعي وترقبي وارتجافي لضحكت على نفسي، ذلك لأني فشلت في اعتبار ما حدث حلماً مثل باقي أحلام بني البشر الذين يحلمون. الأحلام تقنية تطورية دشنتها الحيوانات لتتدرب على النجاة من الأخطار وتمارس

داخلها حريتها القصوى المفقودة في عالم الصحو.

أدركت دون تردد بأنه لم يكن حلماً؛ وصرت واثقاً حد اليقين بأن ما حدث قد حدث. أدمغتنا التي تصنع الأحلام كوسائل للدفاع ضد الوقائع المؤلمة تتأخر أحياناً في اعلان الحالة، تتلكأ في تقرير الأمر، أ هو حلم أم حقيقة، حقيقة أم حلم، لقد اخترع أسلافنا الأحلام كنوع من التمرين على تخطي الرعب الذي ينتابهم حينما تهاجمهم الحيوانات الضارية، التي يمكن أعتبار الذكريات السيئة من ضمنها.

بيت فيرونيكا، أواخر شهر تموز في السنة 1988 الميلادية

مرّ أسبوع على غياب أبي، لم نسأل فيرونيكا عن مصيره، حينما تذكره لنا نشيح بوجهنا عنها ونتظاهر بفعل شيء ما، أو نجيب بلامبالاة مصطنعة. حدث أن خرجنا معها ثلاث مرات، وحدث في المرة الأخيرة أن وضعتنا في سيارتها وانطلقت بنا نحو مشاعل الغاز البعيدة، غفوت على فخذ فاضل وأنا أشبك أصابعي حول زجاجة فيها سبع فراشات ميتات جاهزات للدفن، كنت أغفو واستيقظ على سؤالها الذي تقذفه من وراء الكرسي كأنه كرة صوف: «هل تشتاقان إلى أبيكما؟»، وكنت أتكاسل عن صد الكرة فيجيبها فاضل: شوية. يقول شوية وهو يقارب بين سبّابته وإبهامه.

لمحت منارة الحسن البصري فقفزت أطفق لهفتي: «هنا المقبرة هنا، أنزلينا هنا».

تغذ فيرونيكا السير وتتجاهل صيحتي، يمسك فاضل أكرة باب السيارة ويحركها فتصدر صوتاً يجعل فيرونيكا تصرخ: «توقف لا تفتح الباب. لا تفتح الباب ستقتل نفسك».

أعاون فاضل على فتح الباب لكن فيرونيكا توقف سيارتها وتحكم اغلاق الباب وتترجانا أن لا ننزل. تأخذ زجاجة الفراشات منا وتخلع كعبها الأبيض الذي ينتهي بحافة تشبه حذوة الحصان، تنبش به الأرض وتصنع حفيرة وتضع الزجاجة في الحفرة، فما كان من فاضل

إلا أن يلتقط الزجاجة ويعيدها إلي وهو يصرخ ويرفس الأرض برجله ويقفز عالياً في الهواء، يبكي ويرفع جسده عن الأرض بكل ما استطاع من قوة. يقلّب بصره في التراب ليبحث عن أي شيء صلب يهاجم به فيرونيكا وهو يقول:

«نحن لا ندفن الفراشات هكذا»

طلبتْ منه أن يركب بعد أن ارتفع صوت صافرة الإنذار، أما هي فقد أخذت موقعها في كرسي القيادة وانتظرت حتى يهدأ فاضل ويركب معنا، صار جلياً عندها بأننا نرفض دفن الفراشات وهي داخل الزجاجة، وبعد ثلث ساعة تقريباً قام فاضل بنفسه؛ بدفن الفراشات وهي داخل الزجاجة، حدث هذا حينما وصلنا إلى مكان قريب من مداخن النفط، يحيط به سور خفيض وباب أسود على ضلفتيه رسمة الصليب، عرفنا أن فيرونيكا أحضرتنا معها إلى مقبرة أخرى، لتحضر مراسيم دفن صديقات لها قتلن من جرّاء قصف معمل الخياطة الذي يعملن فيه.

دمعت أعيننا من الدخان الثقيل الذي ينبعث من المداخن في الفلاة، لم نكن وحدنا فقد اجتمع في المكان سبع رجال بعضهم يرتدي زياً أسود مع نقوش حمر عرفنا فيما بعد بأنهم شمامسة الكنيسة التي تصلي فيها فيرونيكا كل أسبوع في البصرة، وثلاث نساء مسنات يرتدين ثياباً بيض ولفة على الرأس وأحذية من الكتان، لوينا أعناقنا ونحن نتابع توابيت الموتى وهي

تتحدر في حفرة القبر والحضور يتلون بعض الكلمات التي نسمعها لأول مرة، لم نسأل بعضنا لماذا لا يفتحون التوابيت ويضعون الأموات في الحفر بلا أغلفة ولا صناديق كما يحدث في مقبرة الحسن البصري، لم نسأل بل انشغلنا بذلك العرض الذي اعتبرناه شائقاً، بعدها قرر فاضل أن يفعل الشيء ذاته مع الفراشات ويدفنها وهي داخل زجاجتها.

ثم تركنا الجمع وتسللنا نطالع أشكال القبور وفي أيادينا خضر الياس، الحلوى التي وزعتها علينا الراهبات، الطحين يمرغ خدودنا والجوز يلتصق في فم فاضل، تحديداً في ذلك الحيز الفارغ الذي صنعه أبي بالحذاء على أسنانه. حلوى القبور هذه صرنا نطلبها من فيرونيكا كثيراً فيما بعد، ما زلت قادراً على تذكر رائحة فم فاضل بعد أن يستيقظ فجراً، وفمه يفوح بافرازات بكتريا العفن التي نشطت بين أسنانه بعد ليلة ضاجة بالمحلّبي وحلوى خضر الياس.

اقتربنا من فيرونيكا وهي تجلس ساجدة أمام واحد من القبور، كان سهلاً أن نعرف أنه زوجها دانيال، صعدنا على حافة قبر مجاور وتركت فاضل يحاول تهجئة اسم صاحب القبر، كنت أصحح له فيغضب ويشتمني ثم أعيّره بسنّه المكسور، وبينما كنا نتعارك خيّم فوقنا ظل مقوّس، التفتنا فعرفنا بأنه شماس ينتظر مثلنا أن تنتهي فيرونيكا من الحديث مع زوجها.

طفنا حول القبر كي نتخلص من ظل الشماس، تبعت

فاضل وهو يلف ويدور حول القبر ولا يبدو أن الشماس يشعر بالانزعاج، لذلك كانت المهمة هي إثارة القدر الأقصى من الشغب كي نثير اهتمامه ويجلسنا في حجره وقد يحكي لنا حكاية خرافية مملة، وما حدث هو أن توقفنا فجأة عن الطواف؛ بعد أن سقطت أعيننا على مرآة مثبتة على أحد أضلاع القبر، قبر الجندي كما هو واضح من الشارة الحربية التي تزين اسمه كان على هيئة متوازي مستطيلات، وقد ثبتت المرآة من جهة الشمال باتجاه الباب.

عثرنا على وجوهنا في المرآة، وقد كنت ابتسم بينما كان أخي يحاول أن يضم فمه كي لا يظهر سنه المفقود، مسحنا الغبار عن وجه المرآة وتأكدنا بأنها مجرد مرآة ملتحمة بجدار القبر الملبوخ بالجص والنورة.

ولأن الشماس لم ينتبه بعد لثقل دمنا وسماجة روحينا، قررنا أن نقترب منه ونشد ثيابه، ومن ناحيته كان الرجل منبسطاً ولم يظهر أي نوع من التذمر، أمسك بيدي وفتحها وسألني عن اسمي، ثم ضم يده إلى جيبه وأخرجها مع دفتر صغير. تصفحه بسرعة حتى بلغ آخر صفحة وشرع بالشخبطة، كان ينظر إلي لوهلة ثم يدقق في رسمته ويعدل فيها شيئاً، وبعد أقل من دقيقتين خلع الورقة من الدفتر وسلّمها لي، لأشاهد وجهي مرسوماً بمهارة عليها، وليخطفها مني فاضل مدعياً بأنها له.

سألته عن سر هذه المرآة الملتصقة بالقبر، فسألني عن

عمري.

«لا أدري، لا أدري»، قلت له بعد أن شعرت بالأذى من حصاة صغيرة صوبها فاضل على يافوخي.

«كم عمرك يا ولد»، يسأل ثانية محاكياً أصوات الأطفال.

«لا أدري، لا أدري»

«قل آه»، قالها وهو يمد يده البيضاء ذات التجعيدات الوردية والشعيرات البيض ويقبض على فكي، ثم طلب مني أن أفتح فمي، دقق قليلاً داخل فمي ثم قال:

«لم تسقط أسنانك بعد»

ثم تركنا وخطى نحو فيرونيكا التي كانت جاثية وخائرة القوى.

لقد جعلني كلامه منزعجاً من حجمي وعمري، غضبت وتبعته وجذبته من ميدالية المفاتيح التي تتدلى من جيبه، وسألته مرة أخرى:

«لماذا يضع هذا الجندي مرآة على قبره؟»

«بني، ما زلت صغيراً، ولم تسقط أسنانك بعد»

فاضل في حضن فيرونيكا يسعل ويتقيء وهي تنظف وجهه بفوطة صوفية، وبدأ عدد الحاضرين بالتناقص، كل هذا لم يمنعني من أن أتركهم وأركض بعيداً وأعود بعد نصف ساعة تقريباً، أبصق في الهواء وفمي يسيل منه الدم واللعاب، فاتحاً كفي محاولاً أن أجذب انتباه الشماس.

لاحظ الجميع بأن هنالك شيء أبيض صغير في يدي، لم يكن خافياً بأنه واحد من أسناني.

«لقد سقطت أسناني هل ستقول لي لماذا يضع هذا الجندي مرآة على قبره»، هتفت به وبالكاد أخرج الحروف مكتملة من فمي النازف.

«لقد خلع الولد سنه اللبني بنفسه»، قالها الشماس وهو مطرق الرأس مدارياً إحساسه بالذنب.

أما فيرونيكا فقد أخرجت ربع ابتسامة من ذلك الجزء الشاحب من وجهها المحزون.

هذا الأمر أغضب فاضل وجعله يغادر حجرها وينتبذ لنفسه ركناً عند حافة القبر، فنحن الآن نشبه بعضنا من جديد، سنه مكسور وسني مخلوع.

أخرجتْ فوطة نظيفة من حقيبتها التي تشبه حبة كمثرى ضخمة، مسحت فمي وعانقتني فتوقف النزيف.

أما الشماس فقد جلس وهو يراقب من بعيد كيف يغادر الحضور مراسيم الدفن، كان حارس المقبرة يشيعهم حتى الباب ويغلقها خلفهم ويتمتم بامتنان لهم بدعواته وصلواته الاسلامية، أما زوجة الحارس فقد كانت تتبعه وهي تحمل طفلها نصف العاري تاركة خلفها دخان تنور طيني يعانق دخان الغاز المنبعث من المداخن القريبة.

بعد أن عمّ الهدوء أخذ صوت الشماس يحل محل الدخان ونشيج فيرونيكا، تخلص من رؤيته لي كمشاغب صغير غير مؤهل للاستماع وتفهم الأجوبة، لم

يمكث في ذاكرتي كل ما قاله لي لكني استطيع استعادة ما تيسر من جوابه، الجزء الذي ترسب في عقلي من كلامه هو كلماته الأولى:

«هذه ليست مرآة، إنها زجاجة لكنها تبدو بعد لصقها بالجدار مثل المرآة، لم تكن صقيلة وناصعة دائماً، لقد قام شخص مجهول بتجديدها، كانت في السابق عبارة عن قطع زجاج متكسر ملتحمة ببعضها، إنها نثار زجاجي قام هذا الألماني بجمعها من عويناته، كان مقاتلاً ضعيف النظر على ما يبدو، فكان يحتفظ بزجاج نظاراته بعد أن تتحطم، ثم إنه لا يضع هذا بنفسه، إنه ميت كما تعلم، الموتى لا يفعلون شيئاً بيننا ولا علاقة لهم بأشكال قبورهم، لكنه أوصى أن تلصق هذه الزجاجة المصنوعة من بواقي عويناته على قبره».

لم أكن لأفهم ما معنى كلمة ألماني، ولما عرفت ماذا تعني؛ لم أكن لأفهم معنى وجود جندي ألماني من بقايا معركة ستالينجراد في البصرة!، لكن حياتي امتدت لأصبح في فترة من فترات مراهقتي دودة كتب حربية، دودة خاكية مولعة بنبش تواريخ المعارك وتعيش في متون المصادر وفي رؤوس أمهات الكتب.

فعرفت أن هتلر قد بعث بكتيبة جنود إلى العراق دخلت من مطار بغداد، كانت مهمتهم تدريب المتطوعين العرب والمشاركة في اسقاط الاحتلال البريطاني ومساندة رشيد عالي الكيلاني، رئيس الوزراء الأسبق في ذلك العهد؛ الذي انقلب ودعا إلى تحرير العرب من

الاحتلالات. اخترقت رصاصة عربية بالخطأ رأس القائد الألماني الذي اشتبه المقاتلون العرب بكونه بريطانياً، ودخلت الفرقاطات البريطانية والقوارب من البصرة تحمل مدداً من الجنود الهنود لتعزيز القوة البريطانية. هيمن الألمان في بادئ الأمر على ساحة المعركة واستعملوا خدعة البشرة البيضاء، فلقد استفادوا من تنوع ألوان العرب والتباين في ملامح المحاربين، فالبسوا العرب البيض أزياء تشبه قيافة العساكر الإنجليز، فانخدع اسطول الملكية البحري وسيطر العرب والألمان على المعركة وألقى مفتي القدس أمين الحسيني خطبة عصماء يستنهض فيها حماس المقاتلين في الميدان، ثم سرعان ما انقلبت الحسابات ودخلت كتيبة بريطانية أخرى من الخليج واندحر الألمان وبدأ اللواء العربي بالتفكك وغادر الكيلاني إلى إيران ثم إلى دمشق وبعدها برلين، وكان يحلم من هناك باستعادة بغداد لكن معركة ستالينجراد الكابوسية قد غيرت كل شيء، وترك جثمان هذا الجندي مسجى في صحراء الشعيبة، ونبتت آبار النفط من شرايين الجنود الصغار الذين غفوا على تراب الأرض دون أن يذكرهم ذاكر، لأن الحديث عن الألمان في البصرة كان يجرح استقلالية حركة الكيلاني ووطنيتها التي ذكروها لنا في مناهج التاريخ أيام الدراسة المتوسطة. خبأ التاريخ هذا الجندي وغيره لكننا عثرنا عليه ونحن نأكل خضر الياس وندفن فراشاتنا على الطريقة الكاثوليكية.

ركبنا السيارة وكان على فيرونيكا أن توصل الشماس إلى بيته في العشار، قلب البصرة.

ركب الشماس إلى جانبها؛ وانطرحت مع أخي في الخلف ألعق لثتي وأتودد إلى فاضل كي يرضى عني ويتناسى موضوع التشابه غير المقصود بيني وبينه.

لمحنا في الطريق حشد من الكهول والشيوخ يرتدون ملابس عسكرية، سماهم الشماس بالجيش الشعبي، مجموعة إضافية من المقاتلين تم تجنيدهم مؤخراً من خارج مؤسسة الجيش، خفت صوت فيرونيكا وهي تقول له بأنهم يساقون لحماية أنبوب نفط الرميلة، كبار السن الذي لا يقوون على حمل السلاح يستفاد منهم كدروع وعوازل بشرية توضع على الأنابيب. كانت تخفف نبرتها كي لا نسمعها، وكي لا نعرف بأن عجوزاً مثل أبي قد يكون من بين هؤلاء. لكننا لم نعلق على الموضوع وصوبنا أنظارنا نحو جمهرة الكهول ندقق في وجوههم بحثاً عن أبي، ولعلها أحست بمرادنا فتباطأت سرعتها وهي تقود، ومنحتنا وقتاً لنجيل النظر في وجوه سرية الجيش الشعبي بحثاً عن أبينا؛ ربيع مستر كثافة.

عبثاً كنا نتصفح وجوه الرجال من نافذة السيارة، طالعت وجه فاضل الذي شارك في الوشاية ضد أبيه يتصاغر ويتعرق، ممسكاً قطعة الحلوى ويطالع العالم من مستطيل النافذة، يتفرج على سينما الدنيا من داخل صالة فيرونيكا المتنقلة.

في اليوم نفسه، عندما بلغنا حافة شط العرب، نزل الشماس وهو يلوح لي بسبع أصابع هامساً من بعيد: عمرك ثمانية أو سبع سنوات.

جبنا السيارة تحت هدوء القصف ونزلنا نتمشى ونطالع الصيادين على الجرف، شاهدنا مجموعة عمال في زاوية الشارع، يظهر بأنهم عمال بناء ينتظرون فرصة عمل، فالكثير من البيوت وقعت على أصحابها أو مالت جدرانها على أهلها في أقل تقدير، راقبنا العمال وهم يتفحصون الأفق بلهفة بحثاً عن أرزاق تأتي، وكلما وقفت سيارة ركب منهم اثنين أو ثلاثة وانفرجت أساريرهم، حتى جاءت شاحنة من نوع هينو والتقطتهم عن بكرة أبيهم، فصعدوا فرحين تحفهم الغبطة فقد ختموا يومهم بصفقة ما أخيراً.

حدقت فيرونيكا في وجوهنا التي انبسطت لانبساط العمال، ثم تأوهت وهي تقول:

«يلا عباس، يلا فاضل، اصعدوا، لا تفرحوا كثيراً لهؤلاء، إنهم يظنون بأنهم يساقون إلى ورش العمل والبناء لاعمار البيوت المهدَمة، لكن سيارة الهينو هذه تأخذهم إلى الجبهة دون علمهم، لا تفرحوا بسرعة، وتعلموا أن لا تركبوا مع كل من يفتح الباب».

يتأخر فاضل في الانصياع إلى ندائها، بدا مأخوذاً بما يرى في آنية الصيادين، أسماك بأحجام هائلة لم نعتد على رؤيتها.

«يغتنم الفرص هؤلاء الصيادون..القتال يشتعل على

ضفتي النهر ولا أحد يصطاد، والحرب جعلت الأسماك تكبر وتكبر وتكبر دون أن تمسها الشباك»، قالت فيرونيكا ونحن نشاهد سمكة أطول مني تنام في طشت ضخم إلى جوار الصيّاد.

«هل تعرفان اسم هذه السمكة؟»

«خشنية؟»

«لا هذه سمتية»، شرحت لنا بعد ذلك كيف أن الناس سموا هذه السمكة على اسم الطيارة الحربية السمتية المزودة بالطوافات، وكيف أن المعارك تغيّر اسماء البشر والهوام وحتى الأسماك، كلامها جعل مزاجنا يتحسن ونطيعها في العودة إلى السيارة.

كل شيء كان يقول بأن أبي قد سيق إلى الجبهة، لقد عوقب الكثيرين بقذفهم في الصفوف الأمامية في معارك نهر جاسم والطاهري والمحمرة، ولا مفر من تلك الفكرة التي تكلست داخل رأسينا، مثلما لا مفر من تلك البحة المختنقة في الصدر، التي يسهل ملاحظتها في صوتنا، بحة المذنبين.

وجدت نفسي مراراً في تلك الأيام مع فاضل تحت لحاف مزخرف بالطواويس وتوريقات أشجار الكروم على سرير فيرونيكا، كنا نقرأ بصوت عال، ونخطط لمدافن جديدة، نتسلل ليلاً بعد نشرة أنباء العاشرة إلى بيتنا، نتسلق الحائط ونكمن في غرفة الحاج ربيع، نلتقط كل مرة شيئاً من حاجياته ونجلبه معنا إلى بيت فيرونيكا؛ ثم نعيده في اليوم التالي بعد أن نشبع ونمل

منه.

البصرة، خلف شارع الكويت، 23 كانون الثاني من السنة 2013 الميلادية

الدرب المؤدي إلى دكان حسين المجلّد زاخر بالحروف، فعلى جانبيه تقع محلات الخطاطين وورش الإعلانات الضوئية الحديثة، وهؤلاء يرمون نفاياتهم من الحروف والهمزات واللاءات في الطريق، وقد تدفع الرياح هذه الكلمات المبتورة إلى البيوتات المجاورة والمطاعم والمساجد والحسينيات، تضيق الأزقة التي تقود إلى دكان تجليد الكتب القديم ذاك وتبتليها الرطوبة وعفونة الهواء، وقد توقفت أكثر من ثلاث مرات وأنا أجلك حذائي من الطين والحروف العالقة به، وحينما أوشكت على الوصول شعرت بحذوة حذائي تتثاقل وتتحشرج وهي تدوس على الأرض، جلست على دكة محاذية لمنزل مهجور من منازل الشناشيل التي تغنى بها السيّاب، ورفعت حذائي وشاهدت لا كبيرة محشورة، لم تكن تلك اللا من الورق بل من الخشب، أبت أن تغادر حذائي واستعنت بلا أخرى كانت ملقاة على الأرض أمامي، اللا التي ساعدتني في التخلص من لا الخشب كانت من القصدير، قلت لنفسي إنّ اللاءات صارت تقتل بعضها في الطرقات، عشنا وشفنا، حرب شوارع بين اللاءات. شعرت أني أخذت وقتاً أكثر من اللازم، ثم تذكرت بأن موعدي مع حسين ليس صارماً، ترك حسين موعدنا مفتوحاً وهو يقول: تعال لي بعد الصلاة، وكان يقصد صلاة الظهر.

قبل أسبوع كنت أنتظر على مبعدة أمتار من سيارة البيك آب الحمراء التي يفترض أن أرى صبرية داخلها أو تدلني عليها في أسوأ الأحوال، أنتظرت طويلاً حتى غابت الشمس، اتصلت عشرات المرات بالرقم، لكني لم أحصل على أدنى نتيجة، فوضعت يدي في جيبي ومشيت.

لم يحدث أي أكشن بعد ذلك، أنا نفسي لم أجرب البحث أو السؤال؛ وتأنيت حتى تصلني مكالمة أخرى أو أي نوع من أنواع التواصل مع صبرية. فالموضوع كان مريباً ويستحق كل هذه المخاوف التي انفجرت في عقلي، فقررت أن أمشي جنب الحيطان كعادتي حينما تشتبك الأمور وتختلط الخيوط بالخيوط، لكن المشي جنب الحايط يحفز الحائط على الميلان نحوي عادة، وطالما كانت الحيطان التي أمشي بجنبها رطبة وآيلة للسقوط.

لم يسبق أن التقيت بحسين المجلد، لكني وفي ساعة رعونة قررت التحقق من الرقم الذي اتصل بي، لم يشأ شخص أعرفه يعمل في شركة الاتصالات أن يساعدني في شيء، خصوصاً بعد أن عرف أن الأمر يتصل بقضية جنائية، أو قضية (صك) كما يقول، وهو المصطلح العمومي الذي ابتكره الناس للإشارة إلى اي حادثة قتل أو تصفية في زحمة الحوادث الإرهابية والمقاتل الطائفية، فقررت أن لا أشغل بالي كثيراً في الموضوع أو أن أخفف من حدة توتري وبحثي الدؤوب، ثم أصبت

في حالة سبات، وانكببت على أوراقي وأبحاثي ومسوداتي، عازماً على نشر واحد منها في مجلة محكمة حتى يساعدني هذا في الحصول على زمالة ما في هذا العالم المصنوع من لاءات، فقد كانت تصلني لا الرفض كل يوم تقريباً، وها أنا صرت أتعثر باللاءات في أزقة البصرة.

ثم حدث أن اتصل بي الرقم نفسه، هكذا وأنا في غمرة محاولاتي لنسيان موضوع صبرية، بل لدفن كل الذكريات معها عميقاً في بيتونة الكراكيب، تحديداً في الجزء الخلفي من دماغي المخصص كمقبرة للحظات المرعبة، أي اللحظات التي تفشل في أن تتحول إلى كوابيس ومنامات، وهو جزء يتولد في ذوات تلك الرؤوس التي لا تحلم، التي يتعطل مبكراً عندها مصنع الأحلام قبل أن يبدأ، فتحول إلى مخزن للذكريات، مثلي.

اتصل بي الرقم نفسه لكن صوت رجل كان على الجانب الآخر يسألني:

«مرحباً أخي، شلون الأمور؟»

«بخير وسلامة، كيف حالك أنت؟»

«طيبة الأمور، أخي أحببت ان أعتذر، لقد أبلغتني شركة الاتصالات بأن رقمي تم حجبه في الشهر الماضي، فقد وصلتهم الكثير من الشكاوى، أكثر من عشر عوائل فقدوا ذويهم قد تسلموا اتصالاً من هذا الرقم، وددت أن أعتذر لأنك كنت تتصل كثيراً في الأسبوع الفائت»

«لا داعي للاعتذار، اقصد نعم اعتذارك مقبول، لكن هل تعني بأن الموتى كانوا يتصلون من خلال رقمك؟»

«بالضبط هاهاها، دخليك يا عالي الشان، يكفينا شر الجنس والآن»، وأغلب الظن بأنه يقصد يكفينا شر الأنس والجان لكنه تلعثم لأني كنت أجيبه ببرود لم يتوقعه.

«هل تعرف صبرية؟، لماذا سمعت صوتها من تلفونك، أنا لم أفهم بعد، ألا ترى الموضوع محيراً، هل لي أن أعرف من أنت؟»

«اخي ومولاي الكريم، أنا لا علاقة لي بكل هذه الأمور، لا أعرف الشخص الذي ذكرته، أنا مجلد كتب على قد حالي، تم السطو على رقم تلفوني، لكني والله العالم لا أعتقد بأنك كنت تسمع صوت صبرية التي ذكرتها، قلت بأن اسمها صبرية، صح؟»

«نعم صبرية جياد، قتلت ووجدوا جثتها في النهر لكني تسلمت منها اتصالاً عن طريق هذا الرقم بعد أيام من مقتلها»

«تمام تمام، أنا أفهمك صدقني، لا داعي لسرد القصة، كل العوائل الذين اتصلوا بي أخبروني بأن موتاهم اتصلوا بهم عن طريق هذا الرقم، أنا اتصلت بك من أجل حل هذا الإشكال»

«إشكال!، عزيزي هذا ليس مجرد إشكال، إنه دوخة راس وسخافة وقلة ذوق»

«لك كل الحق في ذلك، أنا اتصل لأقول لك بأن لا

علاقة لي في الأمر، انا منصوب علي مثلك تماماً، اسأل عني، اسأل أهل سوق العشار عني، أنا حسين المجلد ابن عائلة ومعروف ولم أتورط بحياتي في مثل هذه الدواليب، يكفينا شر الهوام والعوام، القصة وما فيها، أن هناك من أحب أن يلهو معك ومعي ومع تلك العوائل المفجوعة فاخترق رقمي واخذ يتصل بالناس مدعياً بأنه الميت»

«لقد سمعت صوت المرحومة وأنا لا أخطئ صوتها ابداً»

«أحلف لك أن كل من اتصل بي من تلك العوائل أكد لي الشيء نفسه، ثم عادوا وقالوا لي لا، الصوت كان شبيهاً ومقلداً، هل حاولت التأكد من الأمر أكثر»

«طيب، ماذا عساي أن أقول، كلامك وجيه»

«اقسم لك بروح العلوية أمي»

«خلاص خلاص، شكراً لك على أي حال»

توادعنا وتبادلنا التحية وقفلت الخط وعدت إلى غرفتي في بيتنا في محلة عويسجيان، ثم خطر أمر نسيت ذكره في المكالمة، ماذا يعرف حسين عن موضوع البيك آب الحمراء، وكيف سيلفق لي حلاً كي أغلق ملف التفكير في موضوع الاتصال. انتظرت ساعتين واتصلت به بدم بارد وبمزاج غير مكترث:

«هلو حسين، معك عباس، عباس الذي اتصلت به قبل ساعتين»

«أها عباس، شلونك أخي، تؤمرني»

«لا يأمر عليك ظالم، أحببت فقط أن استكمل الحديث معك حول شيء نسيته، فهل لديك وقت»

«لا بصراحة، ما رأيك ان تحضر إلى دكاني غداً نهاراً بعد الصلاة»

وهذا ما حدث، فقد تهيأت للقاء حسين وتسلحت بشحنة جديدة من البرود وتكلس العقل، هذا ما احتاجه من متاع مع هذه الحكاية البائتة من أيام قصص القصخونية اليهود في مقاهي البصرة القديمة، هكذا فكرت، فهذه حكاية سيئة المونتاج تريد أن تحكم اغلاق راسي داخل زجاجة من السأم والملل.

قبل مغادرة البيت صار أمامي على المنضدة كتاب التوابع والزوابع، وهو ما أهدته لي صبرية بعد أن عجزت عن مجاراة نفوري من مذاقها في ما تقرأ، فكل ما تقرأه صبرية كان متصلاً بالأدب وأوهام الشعراء وسعابيلهم الحامضة على رؤوس العالمين، فكانت هديتها عبارة عن كتاب تحبه، وتعتقد بأنه قد يصلح حالة التباعد الذوقي بيننا، فهذا كتاب عن الأحقاد والتباغضات في عوالم الشعراء القدامى، ولأنها وجدتني أكثر من سباب الشعراء والحكواتية، رأت أن الكتاب يخدم نزعتي هذه كما أن فيه قدراً من الشد والتشويق والخيال.

هنالك سبب آخر عرفته بعد حين حول سبب اختيارها لهذا الكتاب، فالكتاب يفترض بأن لكل شاعر

جني تابع له، يلقنه فرائد الأشعار ونوادر التراكيب اللغوية المموسقة، فالتابع هو الجني المخصص لذلك الشاعر أما الزوبع فهو رئيس الجن، صاحب الكتاب قد أمضى رحلة خيالية في عالم الجن والتقى بتوابع الشعراء الكبار والمجايلين له، حاورهم وساجلهم واستطاع أن يوحي للقرّاء بأن هؤلاء قالوا رأياً ممتازاً فيما يكتب من شعر، ثم حقق صاحب الكتاب غرضاً آخر هو الرد على خصومه من الزملاء في مهنة الشعر، ابن الشهيد وهذا اسم الكاتب، كان عبارة عن نسّاج متاعب عاش في الأندلس قبل ألف سنة، ويظهر بأن له قصب السبق في الكتابة عن عوالم فنطازية قبل دانتي وأبي العلاء المعري وغيرهما.

والد صبرية وهو مهاجر أرمني الأصل اعتنق الاسلام في التسعينات بعد ما يسمى بالحملة الإيمانية وبعد خروج الجيش مهزوماً في حرب الخليج الثانية، وسمى نفسه جياد وهو اسم ذو ملمح عراقي جنوبي استطاع اشتقاقه من اسمه الأصلي جادو، كان يحب أصحابه المثقفين وشعاره هو شعر الشافعي القائل:

أحب الصالحين ولست منهم

لعلّ الله يرزقني صلاحا

لديه صديق يكتب ما يسمى بقصيدة النثر في مَطلع ظهورها قبل أن تولد صبرية، وكان هذا الصديق يزعم بأن لديه جنية تابعة تلهمه الشعر، واسمها صبرية.

فاتخذ جياد المحب لأوهام أصحابه الشعراء اسم

صبرية لوليدته الجديدة.

خطفت كتاب التوابع والزوابع الذي تَهرأ من كثرة شخابيطي عليه واستعماله كمقصلة للذباب، وفكرت أن أقضي وقتاً أكثر مع حسين المجلد مدعياً بأني أرغب بتجليد هذا الكتاب الأصفر الممزق. لا أنكر أيضاً أني خلعت منه بضعة صفحات ورزمتها وجعلته بحال لا تسر حتى خصوم مؤلفه ابن شهيد.

يبلغ عرض واجهة محل حسين مجلد الكتب متر ونصف تقريباً؛ يحتلُ بطنه الواسع ثلثها في أكثر التقديرات تَسامحاً، الواجهة عبارة عن حاجز خشبي طوله نصف قامته؛ مزود بباب صغير فتحه لي وسحب كرسياً دواراً ودعاني للجلوس عليه. يعبق الدكان الصغير برائحة زهور البابونج أو عطر التيروز الذي يجلبه الناس من مزارت الأولياء، تمتزج برائحة صمغ التجليد وروائح الورق، فتتشكل في الأنف الصيغة النهائية لرائحة حسين.

بدأ الرجل حيياً وودوداً جداً، بل إنه ظهر أكثر ذكاوة وألمعية مقارنة بصوته الحَبوب الساذج في التلفون، الأصوات تكذب كالعادة. جذب منديلاً متسخاً وأخذ يخلص أصابعه من مستحضرات التجليد، لكنه ما فتأ يتكلم:

«حي الله من جانا، حلت البركة وزارنا السعد»

شيء ما كان يتلفت في داخلي وكأنه غير مقتنع بأني استأهل كل هذا الترحاب والحفاوة.

«حبيبي حبيبي»

«أها هذا الولد بحاجة إلى قماط ولفة وشوية حضائن»

«الكتاب؟، نعم جلبته كي تضع له جلاداً فخماً يليق به، كم يتطلب الموضوع من وقت؟»

«تأخذه الثلاثاء القادم»

«ماكو مشكلة»

«تقميط الكتب مهنة تستغرق وقتاً لكن الناس لا يصدقون ذلك، تصور إن أحد زبائني الغاضبين يسميني مقمط الكتب»

هنا؛ شعرت بأن الوقت حان للدخول في موضوع سيارة البيك آب وصوت صبرية. فهم هو ذلك وتسلم إشارات وجهي وشرع في الحديث وهو يستل الكتاب مني ويقلب صفحاته مثل أوراق القمار في أصابع لاعب حريف:

«يا خوية والله انا محتار مثلي مثلك، لكن غير محتار بشأن علاقة الاتصالات بالموتى، هذا تهريج، أنا محتار فقط في أمر هذا السفيه وفعلته هذه بالناس الذين فقدوا أحبابهم، مالذي يجنيه من التلاعب بمشاعرهم، هل تعرف بأنه لا يمهلهم شهر حتى، إنه يتصل بأهل المتوفى بعد أيام قلائل فقط»

«لم يحدث هذا معي فحسب، بل أجبرت على الدخول في سيارة بيك آب وأخذني السائق قريباً من

الشط وإلى جانب القصور الرئاسية، ثم اختفى وقفلت أنا راجعاً»

«إي، حدثت أمور مثل هذه للناس كذلك، إنها تكملة للعبة، السفيه أو السفهاء، لا أدري إن كان فرداً أم جماعة، المهم، هذا فعل سافل، بدلاً من فعل شيء نافع بالتقنيات والأجهزة نستعملها نحن لتخريب النفوس والتحايل على الثواكل والفاقدين»

«أوكي، ما زلت لا أدرك ما يجري، لكني أتفق معك، نحن لا نقوى على تغيير مجرى الواقع لكننا نستطيع التبول فيه فقط»

«طبعة بولاق!، معك حق هذا الكتاب يستأهل جلاداً ممتازاً وتعريشة مفتخرة»، انصرف بنظره نحو الكتاب وهتف كما لو كان المعلِّم كرشة في فلم زقاق المدق.

حدثني عن ولعه بمطبوعات تلك الدار الآثارية التي بناها الخديوي محمد علي في مصر كدار لطباعة الكتب التعليمية للجنود، ثم تحولت من مطبعة لنشر كتب العسكر إلى مطبعة كل شيء؛ وغطت منتوجاتها عالم العرب كله.

«الكتاب هدية من شخص عزيز»، قلت له.

في تلك الأثناء فرك حسين خاتمه وسألني إن كنت أرغب بشرب استكانة شاي، ثم يبدو أنه أحس بغرابة سؤاله بالنسبة لمعايير الضيافة العربية التي يبدو مشدوداً بها، قال لي:

«هذه عزومة أغم، سأخرج وأعود بالشاي من المطعم

المجاور، سامحني»

اختفى عن نظري وسمحت لنفسي بتمرير أصابعي على الكتب المبعثرة فوق علب الصمغ ولفات الجلود وشدات الورق.

لم أعثر على شيء يشبع توقعاتي فاستقمت وسمحت لنفسي بتحريك موجودات المكان، بل التقاط الكتب وفتحها وتقليبها واستنشاق عطورها. شاهدت طبعة أخرى من التوابع والزوابع، مرصوفة في آخر الرف وتضطجع فوقها كتب مثل: رسالة الغفران وحي بن يقظان وكليلة ودمنة وسيرة ابن اسحاق، أما كتاب الزيج الصابئ الذي ضحكت لطرافة اسمه فقد كان يعتلي الجميع، ولولا مخافتي من عودة حسين فيجدني أعبث برفوفه لفتحته ودسست فيه أنفي.

لم يكن لائقاً أن يتأخر لأكثر من ربع ساعة، سيما أن المطعم حسب زعمه قريب جداً، لم أكن أشعر بالارتياح لأني أعاني من عقدة السارق، والسرّاق إذا تركوا مع بضاعة سائبة يشعرون بالتضايق خصوصاً إذا كانوا محل ثقة من قبل مالكها، لذلك لم أكن قادراً على السيطرة على حركات أطرافي وأصابعي تحديداً، لكن أحوالي تحسنت حينما دسست كتاب الزيج الصابئ تحت الحزام.

بعدها؛ قررت أن أقعد عاقلاً ومتزناً وانتظر في سكون ومهابة، جال خاطري في أيامي مع صبرية وتخيلت أحوالها فيما لو كانت حاضرة، ستشاهد احباطي والسأم

في وجهي، فها أنا أفشل لمئات المرات وأحصل على رفض لأبحاثي من الجامعات، ستضع وجهي بين كفيها، تضغط بأبهامها على صدغي وتقول لي..تقول لي ما تعلمته مني، وما كنت سأقوله لنفسي:«ستكون الأمور دائماً أصعب، علينا أن نتعود على استقبال المستقبل الحالك ونتهيأ للظروف السقيمة، الفشل قوة خارقة، والرفض ليس بتمرين إنما صلاة ينبغي الاعتياد عليها حتى الممات، أنت أكبر مما يحدث لك ومما يقال عنك، بل أكبر حتى من صورتك عند نفسك»، وليتها التزمت بمفاهيم التحفيز الذاتي التي تموء بها كل حين؛ فقد أحبت رجلاً مثل مظلة مقلوبة، تقي صاحبها من المطر بتخزينه فوق رأسه.

جنية صبرية إذن هي التي اتصلت بي، جنيتها وتابعتها كما في التوابع والزوابع، قلت ذلك لنفسي وأنا أصفع ذرات الهواء بجناحي الكتاب، الكتاب الذي صارت ترهقني حتى خفته وتكسر أوراقه، حتى تذكر مؤلفه الذي مات شاباً لكثرة انصياعه لجسده واستسلامه الكبير لامتاع نفسه في الشرب والأكل والمضاجعة، مات ابن الشهيد وسيموت ابن ربيع كثافة، في العمر نفسه، هكذا شعرت، لا من كثرة الملذات بل من انتظار حسين.

هجم عليَّ شعور عقدة السارق مرة أخرى، فتحسست كتاب الزيج فوق بطني، أنا سارقُ كتب محترف ويستطيع أن يجعل لغة جسده تكذب وتحتال على الناس. خرجتُ من الدكان وتفحصت الزقاق الفارغ أملاً

بظل حسين وبعودته ظافراً من المطعم القريب، لكني لم أجد مطعماً في الزقاق، فبدأت الشكوك تراودني، انتظرت وانتظرت، وخطوت حتى آخر الزقاق ثم عدت إلى المحل، قضيت بجانب المحل ساعة تقريباً، وصعب علي أن أترك الدكان مفتوحاً وبداخله حاجيات الرجل وبضاعته وكتب زبائنه، منحته ساعة أخرى منتظراً داخل الدكان وخارجه، حاولت أن أسال المارّة لكني لم أحصل على إجابة شافية.

اختفى حسين المجلد.

فص ملح وذاب في محلول السَأم الذي نتخالط فيه.

بلغ مجموع ساعات انتظاري لحسين مجلد الكتب ثلاث ساعات، ثم قررت أن أختفي مثله؛ وأعود لبيتي وفي فمي قهقهة حبيسة لا أقوى على اطلاقها احتراماً لتفاهة ما يحدث لي.

بيت فيرونيكا، أواخر شهر آب وأوائل أيلول من السنة 1988 الميلادية

خافض حرارة وفاتحُ شهية، ثلاجة فيرونيكا مُكتظة بقناني الدواء. في ذلك الأسبوع أخذتنا إلى المُستوصف القريب من مدرسة الشنقيري للبنات، إنها المرة الأولى التي نرى فيها هذا الزخم من الإناث، هربنا لخمس دقائق من فيرونيكا وتسلقنا السور، اجتمعت علينا الفتيات وبدأن بتدليلنا ونكش شعورنا وعصر خدودنا السَمراء الملوثة بطبقة من المخاط، لم ننتبه للوقت وهو ينسل بين أيديهن الناعمة المرطوبة؛ حتى صاحت فينا فيرونيكا وهي تحاجِج مديرةَ المدرسة وتطلب منها اصلاح الشقوق في سور المدرسة، فالحرب انتهت وهذا وقت ردم ثقوب القذائف ولبخ حزوز الشظايا على الحيطان والوجوه. ما زال الجنود رابضين على الهضاب ويحرسون المؤسسات الصحية والمنشآت الخدمية، لكن الحياة بدأت تدب في عروق الناس وتدفع ظفائر طالبات المدارس فتتماوج وتشعرنا بالبهجة.

في الكيس دزينة أدوية وعلاجات لي ولفاضل، ودون أن يعرف أحد ما هي علتنا الحقيقية كانوا يزرقوننا بالأبر ويسقوننا أشربة مرّة، في الطريق إلى البيت استوقفتنا نقطة تفتيش، كانوا في غاية التوادد والبشاشة وسمحوا لنا أن نمر دون عراقيل، لكننا فتحنا باب السيارة وهي تشرع بالانطلاق، نزلنا وتوجهنا نحو النقطة وبدأنا بالنحيب.

«اشعلوا القصف هيا، نريد القصف حالاً»، صرخنا في وجه الرجل الحنطي المربوع ذو الأشرطة الملونة على كتفيه، الذي وعلى ما يبدو كان ضابط الدورية.

بصوت واحد وبالتونة نفسها؛ كنا نطلب من الجنود أن يشعلوا الحرب من جديد.

تلقف فاضل شقفة حجارة وقذفها باتجاههم، أما أنا فقد امسكت بقضيب معدني صغير يظهر بأنه من بقايا سرفة دبابة.

ربما تنبهت فيرونيكا أن سببَ إعتلالنا هو شعورنا بالكآبة بسبب هدوء الأثير من ضجيج القذائف وصفارات الإنذار، أو إحساسنا بالملل والرتابة، وحاولت أن تفسر للجنود ما يحدث لنا لكنها فشلت وجلبت لنفسها أنظار الريبة والشك.

«اشعلوا القصف يلا، بسرعة، سنرجمكم..سنفتح رؤوسكم بهذه الحديدة»، كنا نصر وغضبتنا تتصاعد.

اقتربَ الضابط منّا بعد ان اتسخت قيافته بالتراب وجرحت أذنه وسال منها خيط دماء رفيع، أمسكنا من فانيلاتنا وضمّنا إلى صدره، شرعنا ببكاء من نوع آخر، في تلك اللحظة أثرنا تعاطفه وخفّف من قبضته لأعناقنا، تنشقنا العطر الذي تعفرت به رقبته وأسندنا رأسينا على كتفه.

أظنه بكى معنا وشاركنا بعضَ الأنين، لكني متأكدٌ بأنه قال لنا: «صار صار باباتي، روحوا للبيت وسنشعل الحرب لكم».

شعر فاضل بقدر من الرضا؛ لكني لم أكن قانعاً بما حدث، فلقد كان الرجل يخدعنا ويحاول لملمة الموقف وارجاعنا إلى سيارة فيرونيكا.

«احلف بروح أبوك راح تشعلونا حرب»، قلت له، وهذه طريقة سمعتها من زملائي التلاميذ في المدرسة، احلف بروح أبوك، كان فاضل يأنف منها، لذلك كنت أكثر من استخدامها.

«بروح أختي سنفعل لكم ذلك، يلا اصعدوا بالسيارة»، أقسم الجندي وهو يضعنا في أحضان فيرونيكا التي بدت مرتبكة ومشدوهة الفكر.

في البيت تحسنت أحوالنا أكثر، دللتنا أكثر وأظهرت حناناً بالغاً كما لو إنها تلتقينا لأول مرة، صارت تضعنا على فراشها من جديد وتقرأ لنا من كتبها.

جلبت لنا بلبلاً صغيراً، مكور الجسد وعنقه مثل صفار البيض، اسميناه الشنقيطي. ضحكت حينما سمعت بالاسم، وقالت لنا إنها تحب الشنقيطي أيضاً، لأنه أول من افتتح مدرسة للبنات هنا، انه عالم جليل مات قبل سبعين سنة، جاء إلى البصرة من نواكشوط في أفريقيا، واستقر في الزبير وأصيب بالملاريا ومات هنا؛ وسميت مدرسة البنات على اسمه.

كان على الشنقيطي أن يموت لكي ندفنه، وكاد صبرنا ينفد في انتظار أن يقضي البلبل الجميل أجله، ولمّا شعرت فيرونيكا بنوايانا بدأت بمحاولاتها في فك ارتباطنا بالبلبل، حفاظاً على حياته البريئة.

في تلكَ الأيام وبينما كنّا نكتب ونخطط تحت لحاف فيرونيكا المزيّن بالطواويس، تتَبع فاضل رائحة تحت اللحاف وأمسك كفي وقادها نحو ينبوع الرائحة، فصرخت فيرونيكا ولطمته على أنفه، أنا لطمته أيضاً ولم يتظلم أو يبكي، كل ما عرفناه بأن ما حدث لفاضل هو نتيجة لقلة أدبه، أما هو فقد بدأ باستعمال خطة دفاعية جديدة تشتمل على تكراره لعبارة «لو كان أبي موجوداً لفعل كذا أو كذا»، فكان يكسر خاطرها وتتوقف عن تأنيبه؛ بل تعمد إلى تحسين خدماتها التي تقدمها لنا.

«لو كان أبي موجوداً لأخذنا إلى دولاب الهوى»، بدأت أنا باستعمال الحيلة لكنها لم تنجح.

«تعالوا أحكي لكم حكاية رجل اسمه ابن سيرين»، تحاول فيرونيكا ضمنا إلى السرير كي نسبت في نومة عميقة تجعلها تتفرغ لشؤونها.

«ماشي، بس غيري اسمه»، يجيب فاضل.

«سميه ربيع، نحن نعرف ابن سيرين، نعرف بقية الحكاية، الناس يحلمون وهو يفسر أحلامهم، واحد شاف بقرة البقرة تعني خير ونعمة، واحد شاف وحدة تأكل صدرها ووحدة شافت نفسها بدون رموش»، يقول فاضل مظهراً استغناءه عن سماع حكايات أحلام ابن سيرين.

«إيه سميه ربيع»، ها أنا أحاول السطو على حكاية فيرونيكا وتجريف مسارها.

«أكو واحد اسمه ربيع، شاب عملاق عثر على حبة عدس»، تبدأ فيرونيكا حكايتها.

«لا، أكو واحد اسمه ربيع يحفر آبار»، فاضل يهاجم الحكاية.

«إي، تمام، اسمه ربيع وطلع الصبح حتى يحفر بير ويطلع نفط»، تستسلم فيرونيكا للانعطافة.

«إي وعنده سبعين عامل تحت يده، جلبوا ماكنة الحفر، ماكنة الحفر طويلة أطول من مدرسة الشنقيطي»، يسرق فاضل نصف الحكاية.

«ربيع زلمة جثل، فكان يتعلق بالأنابيب ولا يخاف الأسلاك الحديدية المربوطة بها، كان عليهم أن يربطوا الأنبوب بالأنبوب وينزلونه داخل الحفرة، الحفرة تتعمق وتتعمق حتى تصل إلى النفط، عمال ربيع الهنود كانت مهمتهم ضخ الطين الكيمياوي داخل الأنابيب كي تتنظف الحفرة وتتزيت الأنابيب ويستمر الحفر وتتعمق الحفرة»، كنت أتحدث بطلاقة ولهفة حسب المعلومات التي اندرست في رأسي وسمعتها عشرات المرات.

«حلوة القصة، وماذا حدث بعد ذلك»، تقاطعني فيرونيكا.

يحاول فاضل أن يسيطر على انفعاله وجوعه لسرد الحكاية لكنه يفشل؛ فانطلق أنا مستعملاً جسدي كله في تمثيل الآلات والأصوات وملامح العمال.

«ربيع في الطابق الأول لبرج الحفر، وهناك عاملان في الطابق العلوي يحكمان قبضتهما على الأنابيب من

الأعلى، وهنالك شدة أسلاك ينبغي دائماً عدم فتلها والحفاظ عليها مستقيمة»، أكمل السرد ويتجعد وجه فاضل لأني أكاد أصل إلى لب الحكاية، ولم أترك له إلا ردود أفعال من يسمع قصة لا من يرويها.

أتابع بنهم: «أفلت أحد العمال يده لأنه كان متعباً بعد نهار صيام طويل، كانت الدنيا رمضان وربيع لم يأكل بعد أن ضرب المدفع وكبّر المؤذن، ربيع لا يأكل قبل أن يأكل عماله»

«ربيع رجل طيب أنا أعرفه منذ اليوم الأول الذي حللت فيه أرض البصرة مع دانيال»، تقول زوجة الحفار البريطاني وهي تنظف أنف فاضل.

«التفت الأسلاك ببعضها وانطبقت على جسد العامل، ثم أخذت بطريقها جسد العامل الآخر، فسقطت رؤوسهم ومخاخهم على أكتاف ربيع»، يقول فاضل متدخلاً وهو يحاول الإمساك بما تبقى من الحكاية.

أنطحه برأسه وأنهي الحكاية على عجل: «إيه ثم سقط مفك الأنابيب على يده وبترها، وفي لحظة غير مفهومة رفس ربيع ذراعه المبتورة ودفعها في فتحة البئر، سقطت ذراعه عميقاً في الأرض دون أن يسمع لها حس ولا خبر، ثم عاش ربيع فوق ذراعه، عاش مع زوجته وربّى ولدين، كان قريباً من ذراعه دائماً، عاش فوقها تماماً، لكن المسافة بينه وبينها خمسة آلاف متر».

«حلوة؟»، يسألنا فاضل وكأنه هو الذي ألفها من عنداياته، يكرر السؤال وكأنه هو الذي رواها وعجنها

وتعب في تلفظ كلماتها الصعبة.

«إيه خوش قصة، تصبحون على خير»، تجيبنا فيرونيكا.

لم يمت الشنقيطي البلبل في ذلك الأسبوع، بل اختفى.

وبينما كانت فيرونيكا تجري لنا بعض اللقاحات وتجعلنا نبصم ونجلس أمام الكاميرة كثيراً ليتلقطوا لنا صوراً، كانت سيرة البلبل الشنقيطي لا تفارقنا، خصوصاً بعد أن شاهدناها تبكي وهي تمزق ضمة أوراق في حجرها، رفعت سماعة الهاتف واتصلت بشخص يبدو بأنه محام، كانت تصرخ ويتطاير الشرر من عينيها والرذاذ من فمها، لا أعرف كيف تهيأ لنا وفهمنا بأن فيرونيكا كانت تفشل في تبنينا، وصارت تعنف الناس وتتصل بهم وتلعنهم. وبدأت تقدم نفسها للكادر التعليمي في المدرسة على أنها أمنا، وتقدم لهم رزمة ثبوتيات بذلك ولكن لا يبدو بأن أحداً يعبأ بما تبرز من ثبوتيات.

أغلب الظن بأنها كانت تواجه مشكلات قانونية في تبني طفلين مثلنا.

وفي واحدة من الزيارات المُتكررة التي تصطحبنا فيها فيرونيكا معها إلى ضريح ابن سيرين، طاب لنا أن نتسلل بعيداً عنها كالعادة، وفي زحام يافطات القبور صاح بي فاضل: «هذا هو البلبل».

جعلني أطارد معه بلبلاً جريحاً كان يظن بأنه الشنقيطي، وحينما بلغنا البلبل بعد محاصرته كان

الحيوان قد فارق الحياة، أخذناه وغسلناه وأتفقنا على ديانته والمراسيم الأخرى، ثم بدأنا بالتنقيب عن حفرة مناسبة، حتى صاح فاضل فجأة:«هذا قبر الشنقيطي».

وصدقاً كان ما قال، فلقد وجدنا قبرنا جاهزاً للبلبل واسمه مكتوب عليه، الشنقيطي تماماً كما نلفظه، كان اسمه الكامل أطول من اللازم ومزوداً بالنقوش والألفاظ الغريبة، لم نسأل أنفسنا من شيّد قبر البلبل، ولم نحاول التحقق كثيراً من الأمر، مع أن فاضل حاول أن يفكر في أطروحة مفادها أن هناك عصابة أخرى لدفن الفراشات والبلابل والسلاحف تعيش هنا، وهؤلاء يملكون المال وحالهم أفضل من حالنا. لم أتوقف عند كلامه وشجعته على المباشرة في مراسيم مواراة البلبل الثرى، لم تكن ظروف رياح أيلول ملائمة لمهمة مثل هذه، لكننا استحسنا شكل المدفن ونبشنا زاوية من القبر وأرخينا جسد البلبل فيها، ثم عدنا إلى فيرونيكا.

لملمت هي أغراضها وطلبت منّا أن نساعدها في حمل بعض أكياس الكتب، كانت عاكفة في ذلك الوقت على كتابة شيء يتعلق بتفسير الأحلام وكانت تجد في ذلك المناخ إلى جوار التابعي محمد بن سيرين ما يلهمها، المكان بأسره كان يمطر علينا قدراً فائضاً من التركيز والخلوة.

تَركتنا في السيارة وعادت هي لتجلب ما تبقى من أغراضها، طلبت منا أن نخنع لأوامرها ولا نجري بين التلال كالمخابيل، عنفتنا قبل أن نقوم بأي سلوك

مضطرب، أقفل فاضل السيارة من الداخل وسمح لنفسه أن ينام على فخذي.

كنت أنظر إلى السماء وأحاول تثبيت بصري نحو الشمس، إنها لعبة من ألعابي المرهقة التي أعذب فيها حواسي، لكني تلذذت بنور الشمس وأشعتها وهي تنغرز عمودياً في بؤبؤ عيني، وحينما أدير وجهي عن أشعة الظهيرة القائظة كنت أتلذذ أكثر بما يحدث.

كنت ألعب هذه اللعبة حينما أطل من نافذة السيارة وجه رجل واختفى بسرعة، ندهت فاضل الذي كان بين النعاس والنوم، وأخبرته بما حدث.

«هل شاهدت ذلك؟»

«نعم، هل تريد أن تنزل وتتبعه؟»

«وماذا ستفعل بي ماما فيرونيكا؟»

«انزل وشوف ماذا ستفعل بك»

«انت ابن زفرة»

«طالع عليك»

«هل تعتقد بأنه ربيع»

«قل بابا ربيع»

«هل كان يشبهه؟»

«كان يشبهنا»

بعد ذلك بيومين أو ثلاث قمنا بسياحة في الأرض المنبسطة التي تقع خلف قرية البرجسية، لم نكن نحمل معنا فراشة لكننا كنا نبحث بدأب، علل فاضل اختفاء

الفراشات بتوقف الحرب، وتذكرنا معاً كيف خلف الضابط وعده وكيف ضحك علينا.

وصلنا إلى ضريح صغير سأعرف لاحقاً بأنه قبر خادم النبي أنس بن مالك، استعملنا ذلك المبنى الصغير كشاخص ودليل يحمينا من التيه والابتعاد عن بعضنا.

إلى جانب الضريح شاهدنا أيضاً مقبرة طائرات حربية، طلب مني فاضل أن أذهب معه إليها لكنني رفضت، أصر فاضل على التوجه نحو مقبرة الطائرات مما دفعني للبحث عن أي شيء يغريه في متابعتي.

وأخيراً عثرت على شيء يثنيه عن الذهاب إلى هناك، فقد مر القطار الصاعد إلى بغداد وشعرنا ببهجة حينما أطلق صافرته.

ركضنا خلف القطار يغمرنا أمل اللحاق به، كدنا نقترب منه واتيحت لنا فرصة رؤية جزء من عرباته ونوافذ غرفه المتكسرة.

قمنا بتكرار هذه اللعبة في اليوم التالي واليوم الذي تلاه.

وفي إحدى المرّات بلغنا محطة القطار وشاهدنا السائق ينزل من قمرة القيادة، أعجبتنا ملابسه البيضاء القشيبة ومشيته الموزونة، حاولنا الاقتراب منه ولمسه لكننا لم نظفر بذلك، فقد شعر فاضل بالخوف والتردد.

ولكن، وبينما كنا نحاول، أمسكنا جابي القطار ودفعنا باتجاه القاطرة الأخيرة، وجدنا أنفسنا في العربة هكذا بسرعة. بعد محاورة طويلة وصياح وعراك مع الرجل،

فهمنا بأنه يتهمنا بقذف القطار بالحجارة.

استجمعنا كل طاقة الملامح الصادقة المخزونة في رؤوسنا وحاولنا اقناعه بعدم صحة ما يقول، ولأن الرجل كان مُصرّاً فقد ضاعفنا من شدة صياحنا واستنكارنا للتهمة.

قلنا له بأن ما نفعله هو الجري وراء القطار فقط، ولم يخالجنا أي اهتمام برجم القطار نهائياً، وقد كانت هذه هي الحقيقة.

حينما توقف القطار في المحطة التالية ساقنا الجابي إلى وحدة الإدارة، وهناك ساقنا رجل آخر وركبنا معه القطار النازل إلى البصرة. وقبل أن يودعنا الرجل الذي لا أكاد أن أتذكر من ملامحه شيئاً؛ نقدنا بمبلغ من المال، فطرنا من الفرح وتقافزنا في الهواء وأنشدنا أغنية بذيئة من تأليفنا، ذكرنا فيها سيرة مفتعلة لجابي القطار ولفقنا داخل الأغنية أفعالاً غير لائقة بين الرجلين.

وجدنا فيرونيكا بانتظارنا، تجلس عند دكة الباب كما قد يفعل أبانا لو كان بيننا.

أخبرناها بما جرى تفصيلاً، ولم تظهر في وجهها أمارات التعجب والاندهاش، وهذه من الأمور التي ورثناها من فيرونيكا، نحن لا نتعجب.

صارحناها بقضية كنا نحسبها خطيرة، فظهر خلاف ما توقعنا:

«سنذهب في بداية العطلة إلى الشغل»

«هل حصلتم على شغل، من هذا الذي سيوظفكم وكم سيعطيكم؟»

«القطار»

«القطار رب عمل ممتاز، وماذا ستعملان في القطار، أغنية؟»، لعلها كانت تلمح إلى كثرة استعمال القطار في الأغاني وتهزأ من وظيفة تحول القطار من آلة لنقل المسافرين إلى جملة وصل بين جملتين في الأغاني.

«لا، سنرجم الناس الذين يرجمون القطار».

«لكن القطارات ترجم دائماً من قبل الناس في القرى والقصبات التي يمر فيها وليس بمستطاع أحد ايقاف ذلك»

«أنا وفاضل نَقدِر»

في الصباحات القادمة، كانت مهماتنا كالتالي: تسلق جدار البيت كل نصف ساعة تقريباً بحثاً عن ذلك الوجه الذي طل علينا من نافذة السيارة، وجمع ما يلزم من الحصى لرجم من يرجمون القطار، قد نجمع الشظايا المتعفنة، سمحنا لنفسنا بذلك، فلم نكن نتجاهل الشظايا النحاسية الذائبة، سيما وأن أشكالها تلهمنا، لأن لأغلبها تشكلات غريبة تشبه أجسام البشر.

العشّار، 15 شباط من السنة 2013 الميلادية

لم يَكن اختفاء حسين المجلد هو سَبب تَسارع خفقان قلبي، إنما ما شاهدتُه في سوق الجمعة.

كنتُ كعادتي أتكسب رزقي كل أسبوع من عرض اختراعاتي على الناس ودفعهم لتجريبها، ويوم كانت صبرية على قيد الحياة كانت تساعدني في بعض الحيَل، خصوصاً حيلة آلة الزمن ونزولي من طيارة غير موجودة قادماً من حرب إيران، ويفتر حماسها مع حيلي العلمية الأخرى، مثل تجربة قيامي بجعل انسان عشوائي يمشي في السوق يتحدث الفرنسية، فكنت أطلب من الناس أن يختاروا شخصاً من المارّة ويجلبوه لي، وكان دوري هو أن أدخله إلى خيمتي الصغيرة وأخرجه وهو يتحدث الفرنسية، وفعلاً كان هذا ما يحدث، أما صبرية فقد كانت تعرف الفَرق بين الكلام الذي لا معنى له وبين اللغة الفرنسية، فالضحايا كانوا يتعرضون في داخل الخيمة إلى نافورة صغيرة من سائل اصطنَعته بنفسي مهمته هي إرباك مخارج الحروف، تليينها وجعلها زلقة حتّى تخرج الكلمات من أفواههم غريبة وغير مفهومة، والأهم أنها في النتيجة لا تبدو ككلمات عربية، وحينما يحاولون نطق أي شيء باللغة العربية التي لا يجيدون غيرها فالمحصلة هي لغة لم يسمع بها أحد، ليست فرنسية ابداً بل هي عربية ينطقها أناس يعانون من تشوه مؤقت في الفم.

لكني كنت أقنع الناس بأنها فرنسية منادياً في

الزحام: تحدث الفرنسية لخمس دقائق.

أما الجنود الهولنديون الذي مرّوا من أمام البسطية والخيمة؛ فقد أعجبتهم الفكرة، ألحوا على المترجم أن يترجم كل ما أقول ولم يتأخروا في التقاط صور تذكارية معي، ثم طلبوا مني إجراء التجربة وتطوع أحدهم للدخول معي إلى الخيمة، فدخل وخرج المجنَّد الذي يضع ريشةً ملونة على طاقيته العسكرية؛ وهو يتحدث اللغة العربية حسب زعمهم، فلقد ظن الهولنديون بأن ما ينطق به زميلهم هو لسان عربي مبين لشدة تشابهه مع لساننا.

تذكرت تلك الأيام وأنا استعيد ظلال صبرية على حياتي الماضية، ونما إلى حسي صوتها ونظراتها ورائحتها كما لو كنت أتعرف عليها من جديد، في قلبي شيء من الحرقة لأني أهملت التواصل معها في أيامها الأخيرة، يخالط ذلك شعور يتورم من الذنب لأني لم أحافظ عليها، وكنت أترك لها حرية التماهي مع المرايا المتكسرة في روحها، لم تكن صبرية امرأة فاتنة وقد لا تغري أحداً إذا مشت عارية في الشارع وتغنجت وعصرت آخر قطرة من أنوثتها، محاولاتها في ارتداء الملابس المنمقة والتي تجاري الموضة المستورة لا يكاد يلحظها النساء فضلاً عن الرجال، ما خلا العطور التي ترشها بسخاء على ثيابها فلا شيء يوقظ الرجال وأشياءهم غير ذلك، لذلك أقول أنها مع الثياب أكثر جاذبية. هذا عن صبرية المظهر والشكل والواجهة، أما

صبرية الداخلية فهي أعقد من ذلك بكثير، أزيد وأعيد دائماً بأنها اختارت الشخص السم الذي لا ينبغي أن تقترب منه. ليتني أتحمس يوماً لاختراع آلة مزودة بمصباح أحمر؛ يشتعل حينما نقترب من شخص زائف نراه أنسب المناسبين وأجمل الموجودين وأفضل المفضلين، فنحذر منه ونخسر معه خمس ثوان فقط نقول له فيها: تشرفت بمعرفتك مع السلامة، بدلاً من أن نخسر معه سنوات طوال بلا سلامة. لكن، من يدري، لعل ذلك المصباح يزيد صبرية حماساً، فهي امرأة لا تكترث بالتحذيرات وتلهمها الخطوط والمصابيح الحمر.

وجدت نفسي مرة أخرى في مقهى البريكان، سمعت في الإذاعة بأن اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين في البصرة يقيم حفلاً تأبينياً بمناسبة مرور اربعين يوماً على غيابها من عالم الدنيا، إثر حادث إرهابي جبان كما يعبر الخبر. فتجهزت للحضور ودونت التأريخ في مفكرتي.

تحب صبرية شعر البريكان مثلما أحب نظريات الكوانتم، وانشرحت مرة أساريرها بعد أن قرأت لي من كتابه الذي اسمه متاهة الفراشة، لأنني قلت لها بأن البريكان أقرب إلى فهم نظرية أثر الفراشة من صاحب كتاب أثر الفراشة.

يضيف لها البريكان من معارفه الموسيقية فتقضي وقتاً باحثة عن هداياه من اسطوانات الموسيقية الغربية إلى أصحابه وخلانه على قلتهم، مع أنني لم أكن

أبدي ارتياحاً لميلها كل الميل مع شخصيته ومصيره، فقد كانت ترى نفسها مقتولة بطعنة سكين مثل ما حدث لمحمود البريكان.

تنجذب الأفيال

إلى مكان صامت في آخر الغابة

حيث تموت موتها

تُردد صبرية شارحة كم في كلمات البريكان من موسيقى داخلية، وأنهَرها لأني لا أجد في سلوكها ومزاجها وذوقها غير خواطر سايكلوجية لا تمت للعلم والحقيقة بصلة.

وضَع الأدباء مقاعد إضافية بين قنفات المقهى، لافتة بيضاء عليها نعي الشاعرة مع كلمات غنائية فجة وتثير آلهة المغص والغثيان في معدتي، يتضاحكون ويتقاذفون بقناني الماء، يتمخطون ويفركون ما بين أفخاذهم، يعيطون على بعضهم ويتصايحون، هكذا يبدو مشهد تأبين صبرية جياد أمامي.

قرأ الحضور كلمات يفترض بأنها مقتضبة حسبما أعلن مدير الجلسة، لكنها تمددت وساحت وطالت وعرضت وأخذت شكل هذيان السكارى، كنت أخرج لاستنشق هواءً نقياً بلا أوهام كل ربع ساعة تقريباً، أتعذر للخروج لممارسة التدخين مع أني لا أدخن، أرمق المارة وأبحث عن لا شيء في الوجوه وأغرف من الهواء بأنفي وأعود.

دخلت في منتصف حديث أحدهم:«...وهذه كانت

من أعز ذكرياتي مع الراحلة طيبة الذكر والمسعى»، يلكزه مدير الجلسه ويطالبه بالاختصار لكنه يشرع في بداية جديدة:

«نعم وقد كانت طيوبة وشفيفة الروح»، من مثله ينتقي هذه الكلمات.

«لقد أعلنت ذات يوم ومن على هذا المنبر بأني شاعر فاشل، وهذه كما تعلمون حركة اعترافية شديدة الندرة بل منعدمة في أوساطنا، وكانت جرأة تحسب لي، ومع أنني جريء فاشل غير أنّ الست صبرية تبعتني بعد نهاية الجلسة والتمستني في اجراء حوار صحافي عن تصريحي الاستثنائي كما تصفه؛ وأعتقد بأني أبليت بلاءً حسناً في الحوار وقد خرج بفضل حرفيتها البالغة بأبهى ما تكون الحوارات والريبورتاجات»، كان يتحدث ورذاذ فمه يصل إلى جبيني وأنا في الصف الثاني.

لقد دفعني الرجل إلى استحضار أسلوب صبرية في التخاطب مع هذا النوع من الطرائد، فلقد عثرت عليّ بذات السيناريو وتجرأت ووصفتني بالمريض أو المصاب، وطلبت مني المشاركة في التقرير الذي تعده عن المصابين بعقدة النطاسي الموهوم من المهووسين بالعلم، وكنت أنا طريدة سهلة مشبعة بالإحباط والنطاعة في الآن نفسه.

لم يتركَ الرجل منصة الجلسة إلا بعدَ أن علت همهمات الحضور، فترجل عنها مرغماً ولم ينس أن يختم قائلاً: «أعذروني على الإطالة في حديثي فأنا

متحدث فاشل».

نزل الرجل المعترف وتلا مدير الجلسة بضعة أبيات من كتاب صبرية لكنه أخطأ في تهجئة عنوان الكتاب، فقال صمد بدلاً من صهد، فتضاحك الحضور وسمحت لنفسي بأن أضحك، ثم صرت أضحك بنبرة أعلى، وحينما انتهت قهقهات الحضور، أطلت ضحكتي ومططتها كي يسمعونها في لحظة هدوء تام، وتملأ ضحكتي المجلجلة أسماعهم وتصك أرواحهم. ضحكت وأرخيت ظهري إلى الخلف، وطرقت الأرضية برجلي وأصدرت ضجيج المنتشي بنكتة مدير الجلسة غير المقصودة، شعرت بأني أضحك لا على هؤلاء فحسب، بل على نفسي وعلى كل جزيئة في العالم، ثم لما تذكرت بأن جزيئات العالم في حال تغير تام، شتمت هيراقليطس صاحب الفكرة، وأطلت ضحكتي حتى تصل الجزيئات الجديدة التي تتولد كل ثانية، كل نانو ثانية، لأننا ينبغي أن نضحك على الأشياء، وإذا كان ثبات الأشياء وعناصرها مستحيلاً من الناحية الفيزياوية، فلمَ لا أمدد ضحكتي؛ أيها السفلة.

لم يكتم ضحكتي سوى منظر امرأة متسولة تسدل وشاحاً على وجهها وتتربع جالسة بجلال تام؛ تهز رأسها مع ما تسمع وتمد يدها للكدية.

انتهت الجلسة وأنا محنط في مكاني غير آبه لنظرات الحضور، أنا أحمق إضافي بالنسبة لهم، ومن عجينة هؤلاء الناس الذي يضلون طريقهم في السوق ويجدون

أنفسهم في مقهى للأدباء، فالمقهى في قلب السوق وكثر ما يدخله أناس غرباء عنه، لعل سبب بقائي حتى بعد أن انقضت الجلسة التأبينية هو أني لم أشبع بعد من سيرة صبرية، ومن خصالها التي يبالغ بها الناس كعادتهم حينما يرثون شخصاً، في الواقع، كنت متعطشاً لأي شيء يقال عنها حتى لو كان منقصة أو رجماً بعفافها.

طويت اللافتات وعلقت لافتة أخرى، لا يحضرني مضمونها لكنها عن مناقشة في فن السرد، والعنوان هو الرواية البوليسية..آفاق وتحديات، أو شيء من هذا القبيل.

فخمنت أن حلقة الشباب التي ناقشت قبل أيام الواقعيات السحرية والاشتراكية ستقوم بإدارة الجلسة، وهذا ما حدث حقاً.

«.. أليس طريفاً أن نعقد مجلساً حول القصص البوليسية التي بدأت تختفي من أدبنا هذه الأيام، وفي الشارع عشرات الجرائم ترتكب ولا يبدو أن أحداً ينشغل بالتحقيق والتتبع وتلمس خيوط الجريمة، لماذا نهمل واقعنا إلى هذا الحد ونكتب عن الحب والمنفى والهويات ونتجاهل أدب التقصي البوليسي، لماذا يموت الأبطال في الشارع كل يوم ولا نرج دواتنا بحثاً عن الجناة في سبيل الإمتاع القرائي على الأقل، وهل تظنون أن أدب الجريمة سينجح ونحن نعرف جميعاً من هو المجرم»، استهلَّ الشاب الذي كان يقرض زر سترتي

في المرة الماضية؛ حديثه بهذه العبارات، مما حفزني على النهوض وتلقف خطواتي نحو الباب والفرار بالرأس من صداع محتمل.

على النهر الصغير الذي يقطع قلب المدينة وقفت.

رأيتُ عرَكة هائلة تتطاير فيها الرؤوس والأحذية، كانت كتلة من الأطراف تتصارع وتتداخل، وتتطاير الدماء الزرقاء من الثغرات التي تصعنها الأجساد وهي تنفك وتلتحم، لكن باقي الناس لا يعيرون للعركة بالاً، يهملونها ويسعون في معاشهم، أدرك بعد ذلك أن مطحنة الأجساد هذه هي شجار بين توابع الشعراء من الجن، ثم أدركت بأني أتخيل وأمارس لعبة عقلية ليس إلا.

قبل أن أدخل رأسي في لعبة أخرى، رفعت يدي وأومأت لسيارات التكسي، ثم خشيت أن أركب إحداها، فتراجعت لأني لا أريد أن أدخل في حوار مع أي شخص، كما أني لا أريد أن أتحول إلى ميزاب بشري لحكايا السائقين، لا أريد أن أسمع مغامراتهم وأكاذيبهم.

لذلك، دلفت نحو الكراج العمومي واخترت باصاً نظيفاً، جلست فيه وأسندت رأسي على كفي وتظاهرت بالنوم.

التمعت في رأسي فكرة، تركت الباص مسرعاً وتوجهت نحو مقهى البريكان مرة أخرى، قبل أن أصل إلى المقهى؛ سلكت زقاقاً فرعياً لأدخل محل ملابس رخيصة، تناولت سترة نيلية بأكمام سماوية، دفعا ثمنها

ووضعتها على أكتافي وتخلصت من سترتي التي كنت أرتديها، دفنتها في أقرب مزبلة قبل أن أدخل المقهى بثوان.

حسب نظرية الكم فإن هناك عدد لا حصر له من مقاهي البريكان وأنا متوجه نحو واحد، وإن من يحدد وجود الادباء فيه هي لحظة دخولي المقهى، الأدباء أيضاً عبارة عن حيز من الألكترونات تسبح على القنفات، وقد يعلمون أو لا يعلمون من قتل صبرية، وقد يعرفونني جيداً أو لا يعرفون، لحظة دخولي هي التي ستحسم الأمر.

تنفست الصعداء حينما وجدت المقهى ما زال مكتظاً بمرتاديه من الشعراء والكتّاب، أول شيء فعلته هو البحث عن قلم، وثاني ما فعلت هو خلع إحدى الملصقات الورقية على الحائط، قلبتها وكتبت عليها هذه الكلمات:

«إعلان، للبيع؛ ماكنة لكتابة الشعر، مستعملة، تشتغل بخاصية الشحن الكهربائي، خمسون كلمة في الساعة، لا تحتاج سوى علفها بالقاموس، قاموس واحد يكفي للتغذية الاسبوعية»، ثم كتبت اسمي ورقم هاتفي وجلست لاستريح وأراقب وجوه الحاضرين.

أستطيع أن أتذكر كل ما حَدث في ذلك اليوم، كل شاردة وواردة، لكن أكثر ما ترسخ في ذهني هو منظر تلك المُتسولة المتلفعة بعباءة قديمة ما تزال تحتفِظ بلمعانها، وجه المتسولة مستور بفوطة بيضاء تجعلها

تشبه إيقونات الصالحات في الرسومات الدينية القديمة، كانت تجلس عند الباب داخل المقهى، تنبهت إلى أنها لم تغادر المكان منذ الجلسة الأولى عن شعر صبرية، لكنها هذه المرّة أصدرت أنيناً لتجذب الأنظار نحوها، وجعلت الكثير من الأدباء ينخفضون ويسألونها إن كانت بخير، يمسحون رأسها وينقدونها بعملات ورقية، يضعون الفلوس في حجرها فتحرك نصف قوامها شاكرة، ثم تعمد إلى مد يديها المحجوبتين تماماً بالكفوف وتؤدي ما تؤديه المتسولة، وظهر لي من ردود أفعال الحاضرين بأنهم لم يروها من قبل في مقهى البريكان.

أما أنا، فاقتربت منها وأخرجت بعض المال ووضعته في حجرها مثلهم، فما كان منها إلا أن تحرك رأسها راضية ومتشكرة، كررت فعلتي ووضعت قدراً آخراً من المال ففعلت المتسولة الفعل نفسه، ربما شعرت بأني أرغب بتكرار الحركة نفسها فجوّدتها. ثم بدت مرتبكة ولا تعرف ماذا تفعل وأنا أخيم فوق رأسها وأهيمن على حضورها وأربكها.

هتفت روحي: هذه صبرية.

اتخذت ركناً بعيداً وتصنعت عدم الاكتراث بها، وبدأت أرميها بنظراتي بين لحظة وأخرى. لعلها جنت ذلك اليوم في المقهى ما لا تستطيع أن تجنيه في أيام من الطواف في سوق العشّار.

حانت مني التفاتة لأجدها مختفية، هرعت نحو الخارج وتلفت في الجانبين فلم أجدها، اخترت إحدى

نهايتي الشارع وركضت مسرعاً أبحث عنها، كدت أختنق من انحباس الهواء في صدري وأنا أجري بأقصى ما يمكنني، تَعثرت بالناس ووقعتُ على وجهي مرتين وأنا استدير في الزقاق الخلفي.

أبصرت ظلها يخطف أمامي ويجتاز نحو الجهة الأخرى من الزقاق، كانت تمشي مسرعة أو تركض ببطء، دخلت في زقاق آخر ودخلت وراءها، صادف أن جمعاً من النسوة يلطمن في خيمة عزاء كبيرة، تقابلها خيمة أخرى للرجال، شاهدت المتسولة تدخل في جمهرة النساء وتذوب في مسحوق من العباءات السود. لا بد أنها امتزجت بهن ولطمت معهن ووصلت إلى قلب الجمهرة.

كانت هناك سيدة تمسك المايكرفون وتردد نعياً للميت تردده النسوة خلفها بحماس وبتنغيم محكم، كان اللحن شجياً ويبلغ الطبقات العليا من الروح، والمكان بأسره مجذوب بموسيقى الحزن المهيب، فجأة؛ توقف صوت الناعية، وتقطع الصوت، ثم سمعت صوتاً جديداً يقول: أثر الفراشة لا يرى، أثر الفراشة لا يزول.

فردد النسوة النادبات الجملة نفسها: أثر الفراشة لا يرى، أثر الفراشة لا يزول. يكررن الجملة ويلطمن باللحن السابق ذاته وبمخارج حروف مهشمة، وتبدو أصواتهن غريبة على الكلمات، فالنساء لم يعتدن النعي بكلمات مثل هذه.

فضحكت وقلت لنفسي: صبرية.

وتجيب هي: أثر الفراشة لا يُرى، أثر الفراشة لا يَزول.

وتجيبها النسوة: أثر الفراشة لا يُرى، أثر الفراشة لا يَزول.

يبدو أنَ الناعية الأولى تمالكت نفسها وأعادت السيطرة على الميكرفون، حدثت سكتة قصيرة واستأنفَ الجميع اللحن الأول وتلاشت قصيدة الفراشة.

أيلول أو تشرين الأول، السنة 1990 الميلادية

«لم أكن أعرف أني عجوزة»، قالت فيرونيكا وهي تنزل الدرج وتسحبُ خلفها حقيبة جلدية جوزية.

مُرهقة وتجر معها جَسدها المشدود بأثقال الزمن، وفاضل يأكلُ عَشاءه على المنضدة المعدنية في قلب البيت، يمضغ الخبز بعد أن يدهنه بالدبس والراشي ثم يضخ كوباً من الماء إلى زردومه. كنت أشعر في تلك الأيام بأنه حصل على امتيازات إضافية، شرشف عليه صورة بربا الشاطر، ومنضدة مخصوصة للطعام، علبة ألوان مائية وحفنة أعداد من مجلة المزمار، فرشاةُ أسنان زرقاء للصبيان، صندوق أدوات هندسية، خارطة العالم مرسومة على درقة سلحفاة من البلاستك، ناظور بلون ذهبي، رزنامة مكتوبٌ عليها الهيأة العامة للصناعات الكيمياوية، مسدس ماء يملأه أحياناً بالخل، والأفدح من ذلك؛ فقد حصلت سمكتُه الفضيّة البليدة على حوض كروي خاص بها.

«تعال عباس، اَنزل البقجة الماويّة من الأعلى»، تناديني ماما فيرونيكا فاسرع نحوها متذمراً.

«اِلبس جوراباً آخر، ستجد زوجاً من الجواريب منشوراً على الشباك، لا تقل أن الجو حار»، تصرخ بوجهي وانا أذرف دموعي غيظاً وحسداً لفاضل الذي يتنعم بالراحة وأنا أنقل الأغراض وألبس جورباً اضافياً في عز الصيف.

«أخذ فاضل كل كتبه معه»، اشتكي عندها.

«حقيبته صغيرة، وستحملها أنت نيابة عنه»

لم نكن تعرف إلى أين تسلك بنا فيرونيكا في ذلك الليل، خضعت لأوامرها في مداراة فاضل لأنه حسبما تقول مصاب بالإسهال، أنا لا أصدق ذلك وأتجنب التواصل معه، يستمر هو بالأكل غير شاعر بالأحمال التي تكبدتها وأنا أنقل نصف الحقائب واحكم اغلاق الابواب، ثم أمسك بيد فيرونيكا وهي تنزل من السلم، فقد اكتشفت العجوز الإنجليزية بأنها تقدمت في العمر على حين غرة.

صار كل شيء جاهزاً، وضعت كل شيء في السيارة بما في ذلك فاضل.

«متى سنصل»، أسألها.

«متى سنصل»، يسألها فاضل.

«اسمع، انتبه جيداً لما سأقوله»، تجيبه ثم تلتفت بأني سألت السؤال نفسه قبل ثوان.

«انتبهوا واسمعوا كلماتي، لن نعود مرة أخرى إلى البرجسية، صدام دخل الكويت وسيخرجوه منها، سنقود السيارة إلى السفارة، سنجد من يساعدنا في الطريق، لدي تراخيص في العبور، أنا في أمان، لست خائفة من الطريق ولا من الرصاص ولا من النهابين وقطاع الطرق، أنا خائفة منكما»، لأول مرة تخاطبنا فيرونيكا كبالغين، مع إننا لم نكن كذلك.

كانت كف فاضل متعرقة وتنز ماءً بارداً، وضع كفي داخلها وعصرها، في الأفق سيارات نقل بيضاء تطرق

أبواب بيوت العمال وتدفع ساكنيها من الرجال إلى الصعود.

شرحت فيرونيكا بأنهم يبحثون عن الخبراء، العمل كان متوقفاً في الحقول وكان أغلب العاملين يتمتعون بإجازة طارئة. تحركت السيارة وبدأت بالتهام خطوط الاسفلت البيضاء، كنا نحدق من الزجاجة الخلفية ونتابع كيف تخرج خطوط الشارع البيضاء من تحت السيارة كما لو كانت تبصقها، وفي الزجاجة الأمامية كانت الخطوط تدخل فم السيارة والسيارة تهضمها وتفرزها من الخلف، اختفى ذلك المشهد لأن فيرونيكا انعطفت يميناً في طريق ترابية، عبرنا سلسلة تلال متماوجة ومستنقعاً أسود كبير، لاحظتنا نمعن النظر في المستنقع الكبير؛ فقالت لنا هذا هو بحر الزيت، إنهم يقصفون الأنابيب فيتدفق النفط على السطح.

«افتحوا الحقيبة الورقية الشفافة وأخرجوا الكمامات وثَبتوها على أنوفكم، هذا المستنقع مشبع بالغاز السام»، نبهتنا وهي تخفف سرعتها.

صادفنا مستنقعاً آخر، وأعمدة من الدخان تتراقص في الآفاق، لم يكن ذلك المستنقع أسوداً؛ كان أقرب إلى اللون الأخضر.

«هذا بحر زيت آخر، الزيت فيه ينبع من طبقة أرضية أخرى، لكنها طبقة شديدة العمق وألوان السوائل فيها خضراء زيتونية، يسمونها طبقة أورخان، نسبة إلى المهندس العثماني الذي اكتشفها، إنها طبقة واسعة تمتد

من إيران والعراق إلى الكويت والبحرين والسعودية، عميقة..عمقها أكثر من خمسة آلاف متر، قبل ملايين السنين كانت الحشائش والطحالب تغطي هذه القطعة الأرضية، النفط ليس مجرد جثث ديناصورات متفسخة»، قالت فيرونيكا.

التفت إليَّ فاضل حينما سمع عبارة «أكثر من خمسة آلاف متر»؛ وشعر بأن في رأسي كلام يشبه الكلام الذي في رأسه، فهذا العمق يذكرنا بذراع مستر كثافة، وبعد كلامها تراءت لنا ذراعه تلهو بها الديناصورات أسفلنا.

كنا نشعر بألم أسفل الظهر من كثرة المطبات الرملية التي واجهتنا خلال سير المركبة. بغلة حديدية تقودها سيدة مسنة لا تريد أن تصدق بأنها تستطيع أن تكبر في العمر.

كانت تقود كأنها تقود لآخر مرة في حياتها، عادم السيارة ينفث غيمة برتقالية لأنه يختلط بالعناصر التي تنبعث من مستنقعات النفط الصغيرة، منظرنا ونحن نقود يشبه دابة سحرية تطير وتبث الألوان في الصحراء، تركبها عجوز ثرثارة لا تكف عن وصف تفاصيل شبه الصحراء حولها.

في حلقها دخلت ذبابة هاربة من تلوث الهواء في المكان، شرقت فيرونيكا وهي تحكي وتؤشر يمنة ويسرة وتشرح لصبيين توأم في حوالي العاشرة من عمرهما، سمعنا بعد ذلك صوتها يصلنا مع بحة، استمر ذلك بضعة دقائق شعرنا فيها بالاغتراب، وابتهجنا حينما

عاد صوتها الطبيعي، الحارس والملاك الموكل برعايتنا.

استمرت في التجوال على وجه الصحراء ثلاث ساعات أو أكثر، لم تكن تود اخبارنا ما هي نيتها بالضبط ولماذا تجوب الأرض وتعود أحياناً إلى النقطة ذاتها، تتوقف مرة وتتحمس وتواصل الطريق مرة أخرى، تضع رأسها على المقود ونسمع نشيجها يصلنا متقطعاً خافتاً؛ ثم ترفع رأسها وتغذ السير وتعلف مركبتها الفكتورية بالوقود وتنطلق.

سمعتها لأول المرة تتحدث الانجليزية مع نفسها، وليتها كانت تفعل ذلك في البيت فتكون إنجليزيتي المضعضعة أفضل حالاً اليوم، فاضل كان أفضل مني وأكثر استعداداً للتعلم، لم اختبر ذلك الشعور معه، لكني أشعر دائماً بأن ملكته مع اللغات ستكون أفضل مني بمراحل، لا أدري لماذا.

كنا نائمين حينما توقفت السيارة فجأة وسمعناها تصرخ نحو هدف بعيد: «إلى الشمال إلى الشمال، يميناً خمس خطوات، يميناً خطوتين، وقوف هنا وقوف، نعم عفارم، أوكي، يسار يسار قليلاً، شوية، شوية شوية».

خرج فاضل من السيارة وتبعته، وقفت خلفه احتمي به من هول المشهد.

عشرة جنود تقريباً، منغمسون تماماً في مستنقع النفط ويحاولون الخروج، عرفت بأنهم جنود من الخوذ التي تعتمرها رؤوسهم، عدا ذلك فهم سود تماماً بسبب اصطباغهم كلياً بالنفط والقير.

أما الشمس فقد كانت تعذبهم بحرارتها فيصرخون، ما زالوا في منتصف البقعة لكنهم يعانون من مشكلة في الرؤية فنزلت فيرونيكا لتقودهم بصوتها.

لقد كانوا عمياناً بالأحرى، هذا ما تجلى واضحاً حينما نحجوا في الخروج من المستنقع، يضعون أيايدهم على أكتاف بعضهم البعض ويتحركون مثل القاطرة والمقطورة.

تقدمنا نحوهم ونحن نركض باتجاههم ونتعثر، فنزع أحدهم حزامه السميك ورفعه نحونا ومنعنا من الاقتراب.

«ابتعد..ابتعدوا، سأضربك»، قال الجندي صاحب الحزام الذي يقود سلسلة الجنود.

«لا تخنقني من ياقتي، ضع يدك فقط على كتفي ولا تشدني من ثيابي، أكاد أموت»، قال آخر لآخر.

حذرتنا فيرونيكا من الاقتراب ولمس الجنود، كان يصعب علينا عدم فعل ذلك، وأول من عصاها هو فاضل، تقدم ومسح على رأس الجندي وعادت كفه ملوثة بالنفط، لكن رأس الجندي ازداد سواداً لأن طبقة الزيت كانت كثيفة جداً.

ابتسمت في سري وأنا أرى فاضل يعصي أوامرها وهي تنفعل من الغضب، فها هي أخيراً تعنف فاضل وترى بنفسها كم هو أرعن ويستحق التوبيخ، مثلي.

صرخ أحد الجنود بجندي آخر، لكنني لم أفهم مقصوده، وحينما نادته فيرونيكا بالانجليزية عرفت بأن

الجنديين أمريكيين أو بريطانيين.

لم نعرف تحديداً ما سرَ ان يضل الطريق هذا الجمع غير المتجانس من الجنود، لكننا نعرف بأن هؤلاء العشرة العميان ليسوا على ما يرام فيما بينهم، كانوا مرتعبين من بعضهم البعض، ولما شرع أحدهم بالبكاء شرع الذي بجانبه بالبكاء، فانتقلت شعلة البكاء مثل النار في البارود وصار قطار الجنود العميان يمشي ويبكي.

يبدو أن شغلهم الشاغل هو الابتعاد عنا، أما عركتهم الخاصة فقد يفرغون لها حالما يصلون إلى التبليط ليلتقطهم هناك من يساعدهم، لا يبدو بأنهم أبصرونا، لم نكن سوى عجوز وصبيين وسيارة، لم نكن قوة عسكرية ولا فرقة مجوقلة هبطت من الجو، غير أنهم أظهروا تجاهنا رعباً غير متوقع.

يبدو أن لبعضهم مشكلات في السمع أيضاً من تأثير الغازات الطائرة والمركبات اللزجة في خليط النفط الخام التي قفلت طبلات آذانهم ولصقت صيواناتها مثلما يفعل الصمغ.

شاهدناهم يسيرون بعيداً عنا، يتعثرون مراراً وينسجمون مع بعضهم مراراً، ثم يتعاركون ويتصايحون، انحرفوا عن الممشى الترابي رغم تحذيرات فيرونيكا؛ وسلكوا جهة الجنوب، حيث قلب الصحراء والتيه الأعظم.

«هل ستمطر الدنيا»، بدا فاضل متذاكياً لأنه يفكر بأن المطر سينظف الجنود فتعود لهم حواسهم المفقودة

ويتمكنون من الرؤية ويعودون إلى أهاليهم.

«الغيوم الرمادية هذه ستزخ ماءً كيمياوياً يجعل طبقة النفط على أجسادهم وملابسهم تتكلس وتتصلب أكثر»، تجيبه فيرونيكا.

في تلك الأثناء أمرتنا فيرونيكا باللحاق بها، كانت تبدو عازمة على ملاحقة قطار العميان واقناعهم بالطريق الصحيحة، أو بما تظن بأنها الطريق الصحيحة، لأن إمارات الضياع تسربت إلى وجهها وقلبها.

قادت السيارة واقتربت من قطار العميان، تبعتهم ببطء واحتفظت بمسافة ثابتة بيننا وبينهم.

انفلت أحد الجنود العميان من منتصف القطار البشري وهرع يركض بحرارة في طريق معاكسة، فتح ذراعيه للهواء اللاهب وانطلق بأقصى قوته نحو اللاشيء، لم يعبأ به القطار الذي صار أكثر تماسكاً ودربة. أما نحن فقد مشينا خلفهم لساعة تقريباً ولم نخطئ شواخصهم الواضحة، لأنهم حرفياً كانوا أكثر قطعة سواد حالكة شاهدتها في حياتي، لذلك لم يكن صعباً على البصر تتبعهم.

حينما استيقظت من نومتي الثانية تفحصت الأفق من كل الجهات ولم أجدهم، ما وجدته هو أن فاضل انتقل إلى جانبها في المقعد الأمامي، فقفزت إلى جانبه.

حتى لا تشعر بالملل ولا يأخذنا النعاس مرة أخرى، كانت تقص علينا حكايات عشوائية لا رابط بينها، ولعلها أيضاً أصيبت بالذعر لأنها تظن أن غاز الأعصاب مبثوث

في الهواء، فكانت تريد المحافظة على يقظتنا وانتباهتنا الكاملة.

«وجدت أخيراً صحيفة في لندن مستعدة لنشر كتابي على شكل حلقات، البارحة تسلمت بريداً من بروفيسور دراسات النوم في مانشستر أعلن في رسالته سروره الباذخ لسماحي له بتقديم الكتاب، الكتاب عن الأحلام، متأسفة طبعاً لأنكم لا تحلمون، لكن هل تعرفون بأن ذلك شيء ممتاز، فلقد التقيت بأناس يشاهدون الحلم نفسه يومياً، وبأناس يشعرون بأن الأحلام هي رسائل خصوصية من الرب، هناك الكثير من الناس يجنون مبالغاً طائلة سببها مجرد حلم، هل تشعران بالقلق من خلو مناماتكم من الأحلام، لا تقلقا، ستحلمان يوماً ما، أنا واثقة بأنك يا عباس ستستيقظ يوماً وتجري نحوي طالباً مني تفسير حلمك، وكذلك أنت يا فاضل، قد يحدث الأمر فجأة، اصبرا، أنا لن أتقاضى منكم أجراً على تفسير رسالة الرب، أن تحبا بعض فقط، ولا تتعاركان، هذا ما أريد»، تنهي خطابها وهي مبتسمة، تنظر إلى نقطة ما في الجو.

بدأت الشمس بالزوال، وتسارعت دقات قلبها، كنت أشعر بذلك وأنا أغرس رأسي في حجرها تحت المقود، كان بطنها يهتز باضطراد، فأنا؛ لكثرة ما سمعت بأن لفيرونيكا قلب كبير كنت أظن أن قلبها طويل وعريض ويمتد حتى بطنها مجتازاً أثداءها التي تتدلى إذا تمايلث بدلال معتق.

لمحنا من بعيد قميص الصوف، أو قطيع الخراف فشعرنا بالمسرة، أشرت فيرونيكا نحوه وصاحت للفت أنظارنا؛ ولا تدري بأن أعيننا ألتقطت قطيع الخراف الهائل قبلها.

لقد بلغنا بر الأمان إذن، هذا ما فكرنا به. استدارت بسيارتها قليلاً لكي تجعل القطيع نصب عينيها لتتجه نحوه مباشرة، ما زال بعيداً ويظهر كغيمة على الأرض تكبر مرة وتتضاءل مرات.

اهتزت السيارة من رعدة صوت غلّقت أسماعنا بشدة، فلاحظنا كتلة كبيرة من الصوف تتصاعد في الجو.

«خلصنا يا يسوع، إنه لغم لغم»، صرخت فيرونيكا.

بدأت موجة الصوف تتصاعد في عنان السماء وتتحول إلى كتلة تسد الأفق أمامنا، لم نسمع أصوات الخراف وهي تتقطع بشظايا اللغم، فحسبما يبدو؛ الألغام لا تمهل أحداً. كلما شعرنا به هو الصوت المدوي وثقل رائحة البراز الحيواني القادمة من جهة الانفجار.

«داس الخرفان على لغم نائم»، أردفت فيرونيكا.

«هل تحلم الألغام وهي تنام؟»، سألتها.

انعطفت السيارة يساراً تفادياً لانعدام الرؤية بسبب تلبد الجو ببياض الصوف.

سرنا عميقاً بين التلال، نتابع ظل قرص الشمس وهو يهم بالسقوط خلف أعمدة الدخان.

«هل ماتت حدبة؟»، يسأل فاضل.

«حدبة!»، وهنا ظنت فيرونيكا أن مكروهاً ما أصاب فاضل وظل يهذي، فهي لا تعرف حدبة ولا أبيها صاحب الرشمة، وأغلب الظن أن القطيع عائد لهما، كان ظناً غير قاطع بالنسبة لي، لكنه كان استنتاجاً شبه مؤكد بالنسبة لفاضل.

اصطدمت السيارة بجسم ثقيل، قالت فيرونيكا بأنه حيوان مسكين، توترت وأوقفت السيارة ثم أطرقت برأسها على المقود، ونزلث تتفحص المكان وتبحث عن ذلك الحيوان الذي دهسته أو اصطدم بها.

سمعناها تصرخ بمرارة وتستغيث بنا، أول مرة في حياتنا شعرنا فعلاً بأننا رجلان نذود عن امرأة ونحميها، انطلقنا من السيارة نبحث عنها ونركض بمسار دائري، إنها مجموعة من الخراف كما يبدو، هذا ما خطر لفاضل، فالأجسام التي تجمعت على فيرونيكا كانت بيضاء وعليها نقط سود، خمنث أنا بأنها ضباع، وفي غمرة ذلك التفكير الخاطف لم يخالجنا أي شعور بالتردد في انقاذها.

حينما اقتربنا أكثر تيبست أقدامنا في الأرض وأصبنا بالهلع.

إنهم الجنود العميان، وقع عليهم الصوف المتطاير في الهواء والتصق بأجسادهم وصاروا يشبهون الخراف، أو الخراف المشوهة، أو الذئاب التي نصفها بشر ونصفها خراف مستذئبة، أو هم عبارة عن مخلوقات مهجنة بين الضباع والخراف والبشر.

شاهدنا أحدهم يضع فيرونيكا في حجرها ويثبتها أمام الآخر الذي يود الانقضاض عليها، كانوا ستة أو سبعة، أقل مما كانوا عليه حينما كانوا مجرد جنود عميان ملوثين بالنفط الخام.

فيرونيكا تصرخ وتهتف بنا: «اهربوا، اركض عباس، اركض فاضل، لا تبقون هنا، قلت لكم اهربوا، اهربوا»، ثم بدأت تنادي بالإنجليزية، لم تقل كلمة هيلب التي أعرفها؛ كانت تقول كلمات أخر، يبدو بأنها بدأت تغيب عن الوعي وتتلفظ بعبارات أثيرة بالنسبة لها، عبارات ليست مهماً أن تكون مفهومة لأحد، مناجاتها الخاصة للمسيح أو لدانيال، زوجها الراحل.

بدأت الخراف البشرية العمياء بالزحف صوبها وتلمس طريقها نحو جسدها، طالعناهم يمشون على أربع ويتجهون نحوها ونحو الجندي الخروفي الأعمى الذي يمسكها لهم، شاهدنا انكبابهم فوقها مثل كرة بشرية، تعجن نفسها بفيرونيكا وتلتحم بها.

لكنها كانت تموء تحتهم وكانوا يصدرون أصواتاً غريبة، يتأوهون من أظافرها وهي تنغرز في أعناقهم ومن كعبها وهو يدق خواصرهم، نجحت في قذف بعضهم إلى الخلف بركلاتها لكنهم كانوا يتلمسون طريقهم ويعودون ملتحمين بها وببعضهم البعض.

أمسكني فاضل من يدي وسحبني بعيداً، ركضنا باتجاه مستقيم وبلغنا التل الذي كان يحجب الشمس عنا، شاهدنا الخراف العمياء وهي تهضمها وتتمكن منها،

ولاحظناها تستسلم تماماً من الألم وجسدها ملطخ بالدماء.

انمحى جسدها كلياً تحتهم، وبدأت عزيمة الجنود بالفتور، تركوها، بدأوا بالتسلل خارج جسدها، إلا واحد منهم، يبدو بأنه تأخر في انزال ذكورته الوافرة في احشائها الكهلة، أما الباقون فتوجهوا نحو جهات متفرقة وهم يزحفون أو يتحركون على هيئة المقاتل المنبطح، يستعملون أصابعهم لتقصي آثارنا، كأن عيونهم قد اتخذت مواضعها في أظافرهم.

هذه آخر مرة شاهدنا فيها فيرونيكا.

نصف عارية، نصف مأكولة؛ وملقاة على الأرض قرب سيارتها، وتحوم حولها خراف من البشر.

سحبني فاضل مرة أخرى وأومأ لي بأن أتبعه، لا أتذكر بأننا بكينا أو حزنا، ما أعرفه بأننا كنا نلهث راكضين نحو الشمس بحثاً عن مخرج من ذلك اليوم، أي ثغرة في الزمن تنقلنا إلى اليوم التالي، أو اليوم الماضي، لم نكن بذلك الدلال الكافي لنبحث عن فجوة زمنية تنقلنا بضعة شهور إلى الوراء وتقذفنا أمام مستر كثافة.

كانت عقيدتنا في تلك الساعة هي الجري، الجري بلا هوادة وتأجيل الشهيق إلى حين ميسرة.

20 شباط من السنة 2013 الميلادية

جمعت من الأنترنت أغلب التقارير الصحافية والمنشورات الثقافية والأدبية التي كتبتها صبرية، باستثناء حواراتها مع الشعراء والقصاصين والفنانين؛ لأنني لا أتوقع حصولي على رأس خيط منها، ربما لأن صبرية نفسها كانت كسولة وتسألهم الأسئلة نفسها على طريقة الكوبي بيست، وبعضهم حسبما لاحظت بنفسي ينسخ أجوبته من البعض الآخر، وهناك من يقتطع الجواب كلياً ويؤخر جملة أو يقدمها، وكثير منها لا أطيق التمعن فيه، فأنا من هذه الناحية كنت أؤمن بنظرية موت المؤلف، وموت الشاعر وموت الرسام، ولا أرى داعياً لاستجواب صانع العمل الثقافي عن صناعته، لأن هؤلاء في الغالب ليس عندهم دراية كاملة فيما يصنعون، فالمحيط والجينات والمورثات البايلوجية هي التي تصنع وتركب وتمنتج الأعمال، وما يعمد إليه المؤلفون والشعراء في الحوارات هو تحسين صورتهم والظهور بمظهر العارف المتعمد والمسؤول كلياً عن انجاز قطعته الفنية، متجاهلين بأنهم عبارة عن مصنع للعاديّات وتجميع قطع الغيار المصنعة في الخارج، وظيفته دائماً هي اخفاء آثار المصنع الأم، وطلاء المنتج بسمات شخصية، تشبه ما حدث في الثمانينات يوم اشترت الحكومة طائرات فرنسية وصبغتها بألوان العلم العراقية وسمتها عباس بن فرناس وكسبت جولات الحرب الأولى.

أكره صبرية حينما تعارضني في ذلك وتقول لي علمويّ متطرف!، أعترف بامتعاضي من نقدها. تقول لي ما تنسبه إلى هايدغر: العلم لا يفكر. إذا اكتشف العلم مثلاً بأني كامرأة أقل رتبة جينية من الرجل فهذا إن صحّ فهو نتيجة وليس حقيقة، نتيجة رياضية تشبه واحد زائد واحد يساوي إثنان، وتشبه قولنا إن الماء يتركب من ذرتي هيدروجين وذرة أوكسجين، فليس مطلوباً من العلم أن يفسر الصداقة بين الذرتين ولا الأمور الاخلاقية التي تحدث بين البشر، لأنها أمور خارج تخصصات العلماء في المختبر، أمور اصطنعها البشر بعد قرون طويلة من الخبرة في التعايش وتنظيم الأحوال والزيجات، في لحظات استراحاتهم من الحروب واللعب في أنوفهم، ليس بمقدورنا رؤية السعادة في المجهر ولا مطاردة الحب في التلسكوب، ولا ممارسة الجنس لوغارتيمياً، لأن من المضحك استعمال المقص لتناول الشوربة، والعلم في الفراش والعلاقات الاجتماعية.

العلم يستخدم أحياناً مثلما المسدس، سلاح للتصفيات السياسية ولأغتيال الآراء، ومن يعارض العلم المتطفل على موائد غيره ستخترق رأسه رصاصة كلامية مكتوب عليها: أنت جاهل ومتخلف وناكر للحقائق المختبرية.

خلال حوارها معي وهي تعد تقريرها حول ظاهرة انتشار متلازمة العبقري الموهوم في البصرة، كانت

تتصورني كأبله وتوجه لي أسئلة عاديّة ومستفزة، ثم راحت اسئلتها تتعاظم رويداً رويداً بعد أن هزمتها كلامياً، طال الحديث وعرض وخرج عن سياقه، فالمفترض أنّ الحديث عن تجاربي واختراعاتي وايماني بقوة العلم، لكنها أخذتني بعيداً لأجد نفسي أحدثها عن شعوري بأن المحتل الأمريكي الأبيض هو أرفع رتبة جينية منا؛ وينبغي طاعته كي يتحقق الرفاه والأمان في هذا البلد. جعلتها جملتي تفتح فمها وتقبض على فكها الأسفل وتسرح لحية سقراط وهمية ظهرت في وجهها على حين غرة.

ثم سددت لكمتي الأخرى: البيض أذكى منا نحن الملونين من العرب والأفارقة، وهم الأقدر على قيادة العالم ومكافحة التلوث والإرهاب وأبحاث الفضاء ويمكنهم تحمل مسؤولية الحفاظ على النوع البشري، وهذا يعني بأنهم الأصلح، وعلينا اتباع الأصلح لننجو، فالبقاء للأصلح.

عندها بدأت مهتمة أكثر بكلامي، مع أن ملامح وجهها تشي بقدر من السخرية، أحبتني رغم ظنها بأني مختل رسمياً وأعاني من متلازمة العبقري التي تجعل صاحبها كئيباً غريباً ضيق الخلق والمزاج، بل غير مفهوم ويشعر بانخفاض تقدير الناس له، ومعاملتهم له دون ما يستحق، فيعيش باقي عمره في حزن وندامة، حسبما تدعي، وهو كلام اتفق معه نسبياً.

البقاء للأصلح يا صبرية، لم تؤمني أنت بهذا المبدأ

فلم تتمكني من البقاء، قتلوك واحتفلوا بقتلك؛ ثم استنكفوا حتى أن يحققوا في مقتلك وسط زحام القتلى، وبقيت أنا، فالبقاء للأصلح ابن الكلب، وابن ستين ألف كلب.

لكنني رأيتها، صوت ما يهمس لي ويقول: قل لكنك رأيتها وسمعت صوتها، في الهاتف وداخل لباس المتسولة في مقهى البريكان، قل إنك أحببتها أيضاً، لقد قامت بتصنيع خلطة حب متخرش المية كما يقول المصريون، تركيبة من أمتن ما يكون، فقد قدمت لك حباً غير مشروط، مثل الحب الذي تقدمه القطط الشيرازية لأصحابها، حاصرتك بالمحبة ولم تترك لك مسافة في حياتك إلا وفرشتها بمبادراتها العاطفية، كنت تكابر وتعاملها أحياناً كهامشية رخيصة لأنك لم تتصور بأنك ستفقدها يوماً، لم تتخيل بأنها ستختفي ولن تكون موجودة في حياتك، كانت ميسرة فاستسهلتها، وكانت الوحيدة التي اهتمت بك؛ فأوقعت عليها كل ثاراتك من النساء، وأنزلت بها كل ردود فعلك تجاه رفض عشيرة من النساء لأنفك الذي يشبه مقلاة مطعجة؛ تم تحويرها كمنفضة سجائر في مقاهي عمال السكك.

استثنيت من تحقيقاتي أيضاً حواراتها التقنية والقصيرة مع مدير المجاري ومسؤول رابطة مشجعي نادي الميناء مثلاً، وكذلك حوارها مع سادن مرقد عبد الله بن علي الهادي الذي اتهمته فيه بتغييبه حقيقة أن الإمام الهادي لم يخلف ذرية هنا وليس في داخل قفص

القبر إلا ضابط عثماني معروف، وحوارها مع سادن مرقد الإمام أحمد بن نافع الذي كان يدافع فيه عن اصالة المرقد ويخرس اشاعات المتقولين والمصطادين بالماء العكر ممن يصرحون بأن المرقد وهمي مزيف؛ حسب قوله. فهذه الحوارات كانت لا تقول شيئاً تقريباً، ويسود عليها طابع التعبير السياسي والمرافعة، أو الدفاع عن جهة حزبية ما أو التشبث بها وتلميعها وتملقها من قبل من تحاورهم صبرية.

وأوليت اهتماماً خاصاً بحواراتها القديمة مع من تسميهم زملائي في داء النطاسية، أي أولئك الذين يشبهونني في الاهتمامات والأوهام والأعراض النفسية، فمعظم هؤلاء قد نالهم نصيب من الاهتمام في المؤسسات السياسية الثرية، فعوملوا كعباقرة لم يقدرهم الوطن، وفي ظني أن يافطة (عباقرة تهملهم الحكومة) كانت المنفذ الآمن الكبير الذي تسنم بموجبه هؤلاء العديد من المناصب، فلقد قدمتهم صبرية على أنهم مصابين وينبغي العناية بهم، لكنهم استفادوا من حواراتهم معها واعتبروا تقاريرها عنهم عبارة عن اهتمام صحافي وبقعة ضوء اعلامية قد سلطت..أخيراً عليهم، بعد أن قاسوا طويلاً في ظل تهميش الحكومات المتعاقبة لهم. بعض بعض هؤلاء أجله واحترمه فعلاً، لأنهم علماء حقاً وقد ينجزون شيئاً في المستقبل القريب، لكن الغلبة الغالبة منهم أدعياء استثمروا في جملة: عباقرة تهملهم الحكومة؛ وتحصلوا على منافع.

لذلك تحرك شكي أولاً نحو هؤلاء، فليس ببعيد أن يكون أحدهم قد استعمل سلطته المستحدثة في التخلص من صبرية. لكن، ما قيمة هذا الشك، ولماذا أظن بأن هنالك حادث مدبر لاغتيال صبرية، لماذا أتصرف بطريقة درامية وأتخيل الأمر مثل فيلم بوليسي محبوك بالترقب وكسر التوقعات، لماذا أصبحت مؤمناً بجريمة مدبرة في جو من الفوضى واللا تدبير، ولماذا أقصيت من احتمالاتي كل السيناريوهات الأخرى، فلم لا تكون صبرية قد قتلت ضمن موجة التوحش والرعب التي تقتل النساء لإشاعة الخوف، تقتل الواضح ليخاف المستور، أو قتلت ضمن موجة قتل أصحاب المهن التي شاعت في المدينة، كالحلاقين والمهندسين والمترجمين والاسكافية. ففي العادة لا تكون هنالك دوافع شخصية لقتل هؤلاء إنما دوافع عامة، ضحكت في سري وأنا أتذكر تلك الأيام وأتصورهم يقتلون الضحية وفي رأسهم مضمون مفاده: أرجو أن لا تحمل الأمر على نحو شخصي. وقد حدث هذا كثيراً، ينصرف الناس إلى التفكر بحياة الضحية الشخصية حينما يناقشون الأسباب، معتقدين بأن وازع الجريمة يتصل بأفعال شخصية خاصة متعلقة بالضحية، لكن الأمر غير ذلك في كثير من الحوادث. بل يختلط أحياناً حابلها بنابلها، ويضيع الشخصي بالعمومي، الثأري بغير المقصود، والشرفي بالسياسي أو الجنائي، وهكذا.

وجدت شخصية تدعى زينب رحيم، وحسب تقرير

صبرية عنها فهي مخترعة وتعمل في مصلحة الضرائب والعقارات منذ سبعة وثلاثين سنة، ولأني أعرف مناخ تلك الدائرة أيام مراجعتها لتحويل أملاك بيتنا في البرجسية ولشراء بيتي في عويسجيان، مع عدة زيارات أخرى للدائرة لشؤون تتعلق بأملاك العائلة، فقد تيسر لي أن أعرف الوقت المناسب لمقابلة الست زينب المخترعة.

في الطابق الثاني طابور قصير من المعقبين ينتهي عند طاولة الست زينب، أشاهدها وثلاثة أمتار بيننا تدمغ الأوراق وتصفّها في حافظات، ثم تفتح جاروراً بين ساقيها ودون أن تنظر إلى الأسفل تضع الملفات فيه وتصفعه فينغلق. خلفها حائط مزين ببطاقات العيد والمناسبات وصورة مؤطَرة لنواعير على نهر الفرات.

إنها سيدة في الخمسينات من عمرها، تضع حجاباً تحته عصابة على جبينها، موشوماً بالمربعات المتقاطعة والأقفاص الفارغة، لا تتحدث مع مراجعيها وتتحرك مثل الروبوت، وجهها دائري دهني البشرة وهنالك نتوء رمادي بارز في حمصة أنفها اليسرى، لا يمكن الافتراض بأنه خال الحسن في أيام الشباب، قد لا تبدو هذه تفاصيل مهمة لكني أطلت النظر في منظرها وأنا أنتظر دوري، قضيت وقتاً أمارس سياحتي البصَرية في وجهها، لأني كنت متضايقاً من الملل؛ ومن برودها وتراتبية حركاتها.

بعد السلام عليها والابتسام، طلبت منها خمس دقائق

من وقتها في فترة الغداء أو الصلاة، ولم تستغرب أو تسألني ما أريد، لقد توقعت أن تجفل وتختض وترفض؛ لكنها كسرت توقعاتي بالقبول دون استفسار أو اعتراض. وذلك؛ ربما، لأنها تمارس وظيفة أخرى داخل العمل، فلزينب مجموعة أجهزة من تصميمها تسميها اختراعات؛ ويحدث أن يتواصل معها زبائنها في مقر عملها.

حينما جلسنا جلبت معها حقيبتها وأخرجت كيساً عامراً بالنبق البمباوي، وضعت في كفي بضع حبات من النبق وطلبت مني أن أتفضل بالكلام:

«اسمي عباس ربيع، مهندس وأعمل في القطاع الخاص وأبيع اختراعاتي على أصحاب الورش والشركات المحلية، أعطي بعض المحاضرات في جامعة البصرة أحياناً، قرأت وسمعت بأنك شغوفة بالعلميات، وهذا يجعلني أشعر بصلة قرابة معك»

«انشاء الله أنت أخ عزيز»

«تسلمين، هل تعرفين صبرية جياد»

«كيف لا أعرفها، قهرني مقتلها جداً، أنعصر قلبي وما زلت في مزاج سيء منذ أن سمعت الخبر، هل هي قريبتك؟»

«نعم صبرية ابنة خالتي»، لأني أعرف أن صبرية بلا خالات؛ فلن يوقعني الأمر في مشكلة.

«خوش بنت الله يرحمها، مؤدبة وعينها على شغلها وطريقها وبس، لم أسمعها تضحك بصوت عال والناس

في الشارع يحترمونها، زوجي محي يعزها ويقدرها كثيراً، زارتنا مرتين للبيت، ربما قرأت التقرير الذي كتبته عني..»

اخترعت الست زينب جهازاً كاتماً لأصوات المرحاض، يثبّت على المقعد أو على المبولة؛ ويربط بقابس كهربائي؛ ولا يخشى الناس من سماع الآخرين لهم وهم يتغوطون أو يتبولون، اسمه كاتم التخلي، وفي مقدمة التقرير وصف الجهاز بأنه حل نهائي لمعضلة الاحراج في المراحيض العامة، وتصرح المخترعة قائلة بأن الكثير من الدوائر والمؤسسات والصالات ومدن الألعاب ومجمعات التسوق ودور العبادة قد اشترت منها الجهاز. وتضيف بأنها تفكر في جعله أصغر حجماً وأقل سعراً وأخف وزناً بحيث لا يمكن ملاحظته من قبل المستخدمين، ولا يصعب على الفقراء التمتع بميزاته.

لذلك؛ تجنبث الدخول في التفاصيل واكتفت بالتلميح باختراعها، فعلى ما يبدو بأنها محرجة من ذكر جهاز مصمم لرفع الاحراج.

«قرأت التقرير وأعجبني المشروع، مشروعك هو الذي دفعني للتواصل معك، آلية الكتم الغازية التي تطبقينها، هل من المجدي استخدامها في المسدسات؟»، قلت ذلك وأنا أتصنع الاندهاش بجهازها وأبدو متحمساً ومشدوداً إليها ومن معجبيها.

«مسدسات؟ تجاربي أجريها على كتم التواليت فقط، ماذا تقصد حضرتك؟، هل هذه نكتة؟»

«امزح، أحب المزاح مع العقول الفذة»

«تفضل عيني عباس، بماذا يمكنني أن أخدمك؟»، ترفع شدة صوتها وتلوي حاجبها.

«مخدومة، أحببت فقط أن أتأكد إن كان زوجك محي ما زال قاتلاً يحترف استعمال المسدس الكاتم، متنعماً باختراع زوجته لآلة معدنية صغيرة تكتم صوت السلاح؟»، صرخت في وجهها بنبرة مبيّتة لم تتوقعها.

عندها ضجت بالضحك وصفعت فخذيها بأكفها المحلّاة بمحابس ذهبية ونقوش نباتية من الحنّة. كررت ضحكتها كأنها تبحث عن وقت مستقطع للتفكير في الرد.

«محي!، محي زوجي مقعد ومشلول بنسبة خمسة وثمانين في المئة يا أستاذ، نحن أناس مسالمون فلا تتعب نفسك وترمينا بالبلاوي»، تقول ذلك ببرود وهي تنهض لتشعرني أن وقت الغداء انتهى.

أحسست بأنني آذيتها وذهبت بعيداً في استنتاجاتي، لم يدم ذلك الاحساس غير نصف دقيقة، انمحى وعاد إلي شيطان الشك بزينب؛ بعد أن قالت:

«كواتم!، أنا أتحدث عن كاتم لصوت ريح المعدة وأنت تحدثتي عن كواتم المسدسات، نشكرك يا رب على طول بالنا، هذه أهانة عيني عباس، كواتم الأسلحة لا تحبس موجات الصوت كلياً، بينما جهازي يكتم صوتك في المرحاض بنسبة مئة في المئة، هل اعطيك واحداً لتجربه؟، هذا ذنبي، افتح باباً للدردشة مع من

هب ودب، هذا ليس ذنبك، عليّ أن اتحمل التجريح الآن، يا ربي!، هذا الولد يقارن كواتم المراحيض التي اخترعتها بكواتم المسدسات التي يسمونها جزافاً كواتم، لأنها لا تكتم كلياً»

«لم أقصد تعكير مزاجك أم...»

«لست أماً، أنا لست متضايقة نهائياً من أسئلتك، أنا فقط مستغربة من سوء معرفتك بي وجرأتك على الحديث معي بهذه الطريقة، وفوق كل هذا تتهم زوجي الكسيح بتهم مضحكة»

«هل اعتذاري مقبول؟»

«أرجو ألا تتواصل معي على الاطلاق، تكفينا شرك وتغادر الدائرة، ونصيحة مني؛ لا، أي نصيحة، أنا لا علاقة لي بهذه الأمور، اذهب، كل ما عليك فعله الآن أن تخرج من هنا»

غادرتني تتصدع من الغضب وتفور من التوتر، ولقد كانت هذه نهاية جيدة للحوار بيننا، لأني توقعت أن تبلَغ عني أو تهددني بالمقاضاة العشائرية في أحسن النتائج.

طويت الظهيرة متنعماً بقميص أبيض جديد اشتريته بعد خروجي من مقابلة زينب، مشيت لنصف ساعة متلفتاً ومتصفحاً وجوه النساء، فلعل فيهن صبرية. توقفت ورميت نفسي داخل عربة لحمل البضائع من سوق الجملة، شاهدني سائق العربة فحار في أمري، طلبته أن يوصلني إلى المرآب، كانت صورتي مثيرة للسخرية والتندر، هذا صحيح، كان منظري وأنا في

العربة الصغيرة يجلب قهقهات المارّة والصبية المتنمرين، لكني كنت لا أبالي؛ وأفسح في مساماتي منفذاً، كعادتي؛ ليتسرب منه الجنون.

أيلول أو تشرين الأول، السنة 1991 الميلادية

«هلو يا الله، نحن نحبك يا الله، عباس أخي دخلت في باطن قدمه اليسرى شققة زجاجة»

«اليمنى اليمنى»، أصيح بفاضل.

«اسكت، لا تخربطني، لقد قلت لله بأنك أعسر لكنك لم تسمعني»

«قل له القدم التي استعملها لرفس مؤخرتك وهو سيعرفها»

أمشي وأحجل برجلي كمن يلعب الطاق، وفاضل يستغل ذلك ويتقدمني، لكنه لم يتوقف عن رفع يديه للدعاء:

«هلو يا الله، نحن نحبك يا الله، أنا تعبان، أين الطريق إلى الشارع المبلط؟، نريد مزرعة خيار، أو بستان طماطم مع بئر مائية»، لا يرضى فاضل بالهدوء ولا يصطبر حتى يرتفع الظلام، لا يستجيب لطلباتي ويبقى ساكتاً حتى نرتب دعواتنا، يلهج بما في رأسه ولا يسمح لي بتنظيم المطالب.

نمشي على حصيات رمل حادة الزوايا وتحت خيمة ظلام دامسة، كنت أشعر بأني أكثر حظاً، لأني أمشي على رجل واحدة، بينما يمشي فاضل على رجلين، الرجل الواحدة تقلل احتمال الضغط على لغم، وفرصة فاضل في أن تدب رجليه على ألغام الأرض الحرام هي أكبر من فرصتي.

شعرت بالأذى في قلبي لأني تأخرت في ابلاغه بذلك، وبعد أن صار الظلام عبارة عن حاجز سميك من انعدام الرؤية، صحت بفاضل الذي بالكاد كنت أراه:

«اِحجل مثلي، اِحجل كي لا توقظ الألغام»

لكنه لا يجيبني.

«فاضل اِحجل، اِحجل اِحجل، ابن الزفرة أين أنت؟»

تعبت من السير بتلك الطريقة، فاستسلمت وعدت للمشي على رجلين غير عابئ بالنصيحة الذاتية، سرت لخطوات وحينما سمعت صوتاً وظننت بأنه فاضل عدت للمشي برجل واحدة، لا أريد أن أخون تعاليمي أمامه، لكن الصوت لم يكن صوته، عرفت هذا حينما تلمست ذلك الشيء الذي وقع من السماء.

إنها ضمة أوراق ملفوفة ومشدودة بخيط مطاطي.

أخذتها ودسستها في بنطلوني على بطني، لم يكن هناك وقت لفضها، كل فكري كان مشغولاً بالسؤال: ماذا حلّ بفاضل؟.

خطر ببالي أن أقول: هلو يالله وأكمل، لكني شعرت أن فاضل قد احتكر الدعاء والمناجاة، قد أخذ مني لوني وملامح وجهي وطولي ورائحتي، وزاد على ذلك؛ طريقتي في التضرع والتذلل وطلب العون من الله.

انخفض بنطالي فجأة وصرت نصف عار، فصرخت بكامل حسي من الهلع، ولم يوقف صرختي سوى ضحكة فاضل المجلجلة في قلب الظلام.

«هههها، كنت أراقبك، ما هذا الذي وقع؟»، قال فاضل.

شعرت بكل سعادات الدنيا حينما نما صوته إلى أذني، وغفرت له ما فعل فوراً، التقطت ضمة الأوراق التي وقعت بسبب افلاته لبنطلوني وكشفه لعورتي.

«أنت زعلت؟، أنا لم أكشف جسمك، لا أحد يرى، حتى أنا لم أبصر شيئاً، أنا لا أرى أصابع كفي من الظلام، ما هذه الأوراق؟»

«طاحت من الجو، من فوق، يبدو بأنها لك، خذها»، سلمتها له بكل ممنونية لأنه هو الذي دعا وناجا.

لمحنا من بعيد شذرات خضراء تسبح في الفضاء، جرينا نحوها بأقصى سرعة، بقدمين وبلا حجل، بدأت الشذرات بالتباعد لكنها عادت للتقارب فيما بينهما حينما اقتربنا.

حشرات فسفورية.

ليس عندنا زجاجات كي نجمعها فيها ولا أي نوع من الأواني.

قررنا أن نمشي خلفها ونستنير بشعاعها.

ايقظتني أشعة الشمس وهي تتخلل أجفاني، أما فاضل فقد أيقظه الذباب الذي يعسكر على أنفه وشفتيه.

تركته يفرد أطرافه ويقلصها بعد نومة ثقيلة؛ وطفت في المكان أبحث عن وجبة فطور لي وله.

عدت له بعد ربع ساعة خالي الوفاض، لكني وجدته مع ضب صغير لا أعرف كيف اصطاده، كل همي كان التأكد من صحة الرواية، فقد قال إنه اصطاد الضب لكني كنت أشكك وأقول لقد وجدته ميتاً. أمسك بالضب وجعله يتدلى خلف كتفه ومشى ومشيت بعده، لم تكن النية البحث عن نار بل البحث عن حصاة حادة الزوايا لتقطيع الضب، لأن احتمال العثور على قبس من نار هو أمر خارج الظنون والأمنيات وقتئذ.

بالنسبة له فقد كان متحمساً لارتكاب تلك الفعلة؛ أما أنا فكنت في غاية التردد والاشمئزاز، وبعد أن سرنا لساعات أفرز حلقي كل ما لديه من انزيمات التحفيز والجوع، ثم التحذير والاستسلام لالتهام أي شيء.

اسعفتنا عينا فاضل حينما أبصرت سيارة عسكرية غافية من بعيد ومركونة تحت التل، كنت خائر القوى لأركض ولم أتشجع حتى حينما فعلها فاضل وشمّر عن عزيمة باهرة؛ وهو يجري باتجاه الإيفا العسكرية.

السيارة فارغة من البشر وأبوابها مشرعة، المقود مفقود والراديو نصف محطم، أما ضالتنا فقد وجدناها في جزء الحمل الخلفي، بضع بطانيات عسكرية وصناديق مسحوق البارود والخوذ اللمّاعة غير المستخدمة، مع صناديق معبأة بقناني الماء العذب. ونحن نعبث في محمولات السيارة مادّث بنا الأرض قليلاً، فانتبهنا إلى أن السيارة تتراجع وتسير نحو قعر الوادي، تشبّثنا بالأحزمة القماشية التي تتدلى من

السقف، ولم تكن سوى لحظة خاطفة حتى اصطدمت أقدامنا بالأرض، بعد أن انقلبت الإيفا وانغلقت علينا واستوت على عقبها مثل علبة كبريت.

قمنا بتقطيع غطاء الجزء الخلفي فلم نفلح في توسيع رقعة كافية للنفاذ بجسدينا، ثم قلدت فاضل وهو يحفر الأرض ليفسح لنا طريقاً من تحت الإيفا الواقفة على مؤخرتها.

كانت طبقة الرمال متماسكة وساخنة، استعملنا أحذيتنا والخوذ لتعميق الحفيرة وسرعان ما دب الضوء وسمحت لنا الحفيرة بتمرير تيار من الهواء، استطاع فاضل أن ينقل نصف جسده خارج الإيفا، كانت ساقاه في الخارج وأنا أدفعه من الداخل، وحينما نجح في الخروج سمعت دربكة أقدامه تبتعد عني.

مزحة بائخة أخرى.

تركني أبكي وأصدر كل ما في جوفي من الضجيج رغم جوعي وعطشي، بدأت بالتعرق وملابسي التصقت على جلدي، لعقت زندي الذي سالت عليه حبة عرق مالحة، جرفت بأصابعي كل ما تيسر لي من حبات العرق ولعقتها، ثم بدأت بشتمه بكل ما يعرفه لساني من بذاءات.

اقترب صوت أقدامه ثم تبعه ظله ينعكس على الحفيرة، مدّ لي خوذة فيها طعام، خطفته على عجل والتهمته غير عابئ بحرارته البالغة، وقبل أن ينفذ مررت الخوذة في الحفيرة وطلبت المزيد.

كانت حيلة فاضل هو ألا أرى الضب وهو يشوى بنار البارود، ولا أبصره وهو يقلبه بكل الوجوه ويطهيه، بعد أن يفصخه وينزع جلده المحزز عصي القضم على الأسنان.

أفرجَ عني فاضل بعد أن ردم طبقة سميكة من الرمال من خارج السيارة؛ ثم رفَعها.

بدأ الظلام بفتح عباءته مرة أخرى وضمنا إلى جناحه، لذلك؛ سألني فاضل عن ضمة الأوراق كي نفتحها قبل أن تغرب الشمس وتنعدم الرؤية من جديد.

«هذه غيمة صيف وستختفي ويعود الضياء»

«هات الأوراق لنقرأها»

«سلمتها لك»

يتذكر بأنه وضعها في بنطاله على سرته.

«بالإنجليزي!»، يقول قبل أن يفتحها.

«لاع، السماء لا تتحدث الانجليزية»

اتضح لنا بأنها مناشير ورقية تقذفها قوات التحالف مع ما تقذفه من قنابل وصواريخ، كل ورقة فيها طية ومقسمة على قسمين، القسم الأول رسمة تخطيطية بالحبر الأسود؛ فيها صورة جندي عراقي محاصر بالدبابات، وبعض الأوراق تحمل رسمة أخرى، يافطات مكتوب عليها *صدام على خطأ، لا حرب بعد الآن انقذوا العراق، العراقيون ضد صدام*، مع حمامة تحمل عشبة وتحلق فوق اليافطات، وهناك سطور بالإنجليزية تفصل

بين القسمين، وفي القسم الثاني بضعة سطور مكتوبة بخط عربي غريب قرأها فاضل مقلداً صوت المذيع نهاد نجيب: «أيها المواطنون العراقيون، السلام عليكم، صدام هو المتسبب في الحرب ونتائجها لكم هي..أرامل وأيتام ومشوهون ولكم الخيار أنتم لا أحد غيركم بوضع حد له وأنتم القادرون انضموا إلى اخوانكم واظهروا رفضكم لسياسته المدمرة لكم ولوطنكم لن يكون هناك سلام بوجود صدام».

منشور آخر يحمل رسمة مختلفة، طفل يركض مذعوراً متجنباً الصواريخ، وعلى الطية الأخرى من المنشور، صورة صاروخ يسقط عمودياً مكتوب في قلبه: «تحذير، سيجري قصف هذا الموقع قريباً»، وبخط أكبر: «اتركوا معداتكم وانقذوا أنفسكم». وتحت الصاروخ مربع داخله صورة جندي أجنبي يخاطب امرأة تحتضن طفلتيها: «غداً سوف تضرب فرقة المشاة السادسة عشر وسيكون القصف شديد، إذا أردت النجاة فاترك مكانك، ولا تسمح لأحد أن يمنعك، انقذ نفسك وتوجه إلى الحدود السعودية وسوف تجد من يستقبلك كأخ».

طوى فاضل الأوراق ودسها في بنطاله من الخلف.

«ستتعرق الأوراق وتفسد»، صرخت به.

«أتعرق من بطني أكثر من ظهري، لست أحرص مني، أريد أن استخدمها لطهي الطعام».

عثرنا على هضبة مكتنزة بالكمأ، ساعدتنا على

الحفاظ على جوفينا ممتلئين حتى اليوم التالي، حامت حولنا خلال ذلك أسراب من الغاق والطيارات، وطاردنا السراب مراراً وهو يتراءى لنا على هيئة قافلة بدو رحل وكسرب من البطاريق وكدبابات أو سلاحف.

لكني مرضت في واحدة من الليالي؛ أصبت باسهال شديد وبانخفاض لحرارة وجهي؛ جبيني تحديداً.

يسعفني فاضل بكل ما يجده من حاجيات في طريقنا الدائري، فقد اكتشفت بينما فاضل يجرني من يدي خلفه بأننا عدنا إلى سيارة فيرونيكا.

ظن في البداية أنني أهذي؛ وتبخرت ظنونه حينما وقفنا على السيارة، أما سائقتها فقد اختفت تماماً، كل الأبواب مفتحة ولا أثر للحقائب ولا لإطارات العجلة، ولا يبدو أيضاً أي ظل للجنود القطار ولا حتى للصوف أو الزيت.

قضينا الليلة كلها داخل السيارة التي حملنا إليها ما نقدر عليه من قناني الماء، وعند الفجر تبعت فاضل شمالاً، فتعثرنا بعظام الخراف وجماجمها، حفرة اللغم ما زالت غائرة؛ على حوافها قطع من المحّار الصغير.

فوق التل شاهدت فاضل يجلس على ربوة، ناداني فوافيته مسرعاً.

«شوف، هذا قبر أبي الرشمة»، قال لي.

«كيف عرفت؟»

عندها، نهض ونفخ سطح الربوة المرتفعة قليلاً

بارتفاع شبر ونصف، فبانت قصبة ملتصقة بالطين على سطح القبر. حاولنا خلعها؛ لكنها كانت متماسكة وملتحمة بمحلها، تفحصتها جيداً وتأكدت بأنها الرشمة، بحثنا عن كتابات أو تفاصيل أخرى تجعل قبر أبي الرشمة كباقي القبور ولم يسعفنا الحظ. ذهبت نوايانا أبعد قليلاً وفكرنا بالبحث عن ملحقات الرجل، حقيبته الجلدية ومذياعه، والأهم من ذلك حيواناته الغريبة ذات الرؤوس الثنائية وفراشاته الخاكيّة.

دبَ الملل في روح فاضل وتسرب إلى قلبي، فصرت مريضاً في معدتي وحسي، ضعفت ممانعتي كثيراً وبدأت طاقتي بالخفوت تدريجياً، وحدث أن وجدت نفسي نصف محمول من قبل فاضل وهو يقودني إلى السيّارة، أمضيت اليوم الذي بعده أتلظى بالهواء الحار وحديد السيارة اللاهب، وقد كانت أفضل ما يقيني من أشعة الشمس، بدأ مخزوننا من ماء الإيفا بالنفاد، وتلبّست فاضل حالة عصابية، كان ينظفني بعد أن أتخلص من سموم أمعائي ويمسح جبيني ويربت على صدري حتى أنام، مع إني تعبت من النوم واشتقت للجري في الظلام، وإذا عارضته وهممت بالحركة والنهوض؛ أقع، فينهرني ويدخلني تحت ظل السيارة، كنت أراه كرجل بالغ يحنو على طفله المريض، حتى صوته؛ كنت أجد فيه اختلافاً ونبرة مستحدثة نبتت في لسانه من قساوة الصحراء. كبر فاضل في الساعات الأخيرة وصار رجلاً بالغاً، نمث لحيته في صوته وتبرعم

شاربه في عنايته البالغة بي. أما أنا فصغرت وانحسرت وتقلصت أيامي.

يتركني ويغيب لساعات طوال، وكلما يعود يدخل السيارة محملاً بحاجة جديدة، لحم مشوي، جراد مملح، جواريب عسكرية، سكاكين، مناشير، بساطيل، شجيرات صبير، عقارب، قداحات، أغلفة سجائر فارغة، كتيبات تعليمية عن الأسلحة، أحجار ملونة، أقداح بلاستيكية، مسامير وثياب جنود من فرق المشاة.

أما عندما ابتسمت للبومة التي حطت على نافذة السيارة، فقد فرح وقرر اسعادي بسر صغير خبأه عني لساعات.

خرج من السيارة وزحف تحتها ثم ظهر أمامي بسرعة، يحمل الرشمة في يده ويراقصها في الهواء كما كان يفعل صاحبها.

قبل أن أفقد الوعي وأغرق في العماء، أحسست به يسحبني ببطء خارج السيارة، يشدني إلى ظهره رابطاً إياي ببناطيل الجنود، آخر ما شاهدته قبل أن أنام هو عنقه السابحة في العرق وأنا أريح رأسي عليها.

سمعته في لحظات يقظتي المتقطعة يتلو دعائه الذي يصممه ويهندسه بنفسه، وسمعته ينادي على رتل بعيد من العساكر، يحطني على الأرض تارة وعلى الحشائش الباردة تارة أخرى.

أما الوجه الذي أفقت ووجدته يدقق في وجهي؛ فهو من ما اصطاده فاضل لي وأنا غاف مع حمّتي واعتلالي.

فتحت عيني على وجه يتفحصني باهتمام ويطيل التركيز في وجهي، تمالكت أطرافي ورفعت رأسي مخاطباً فاضل:

«أين لقيتها؟»

«هي التي لقتنا، كنت أطببك البارحة وأنظف ظهرك ثم تلقيت حصاة صغيرة على جبهتي، لم أهتم للأمر واعتقدت بأنها حصاة تحملها الريح، فتلقيت حصاة أخرى، تركتك وخرجت وطفت حول السيارة لأجدها في أعلى التل، مولية ظهرها وشابكة أذرعها، تقف باستقامة وثوبها يلاعب سموم الريح، ويرفرف خلفها الخيط».

«هل ما زلت تحتفظين بالخيط»، التفت إلى حدبة وهي تجهز لي لفافة رطبة لتهم بوضعها على جبيني.

«إنها لا تسمع»، قال فاضل، «تريد ان تستعيد الرشمة، هل نعطيها لها؟»

«لا، نحن الزلم هنا، سنمشي ونحمل العصا وتركب على ظهري مثلما كانت تفعل»، قلت وأنا أدير عنقي نحوها.

«عليك المشي أولاً يا فهيم، هذه ستكون حدبتي وستركب ظهري»، عقّب فاضل.

حدبة التي وقفت ورمت الضمادة التي اعددتها لي؛ فتحت فمها وتخلصت من ابتسامة بائتة في وجهها، ثم كبرت الابتسامة وصارت قهقهة عالية.

هجمت علينا واختطفت الرشمة واستعادت موضعها على التل، لم نحرك ساكناً وتركناها تفعل ما تريد، ربما لثقتنا بأنها لا تود مفارقتنا والمشي وحدها في تلك الظروف.

«أهربي، نحن لا نريدك»، صاح فاضل.

«سأدلكم على فيَّة الرقوق»، نطقت حدبة أخيراً، ثم تابعت وهي تعطينا ظهرها وتقف منتصبة باسطة ظلها الطويل على رؤوسنا:

«هل تريدون الذهاب إلى فيَة الرقوق، ستصطادون الفراشات الكبيرة والسلاحف أم رأسين والجراء ذات العيون الثلاثة، ستصعدون على ظهر البومة الضخمة»

«أنا موافق وعباس موافق»

«أرفعوا أصابعكم هكذا إذا كنتم موافقون»، قالت ذلك وهي تصنع علامة النصر بأصابعها، فلقد نسينا بأنها لا تسمع موافقتنا وعلينا أن نجيبها بالإشارات.

نحو فيَّة الرقوق أخذتنا حدبة، نسير خلفها ونتسقط خيطها الرفيع الذي تركته سائباً، أما إذا تجرأنا على لمس نهايته السابحة في الهواء؛ فضربة من الرشمة تترصدنا، الرشمة حارستها لم تكن مجرد عصاة، ولم تكن مجرد جنيَة مكلفة برعايتها، وليست عبارة عن سلاح أو قصبة صلدة، كنا نسير وراءها ونهتدي بها، وكانت هي تناديها باسمها وتعاملها ككائن حي.

ونحن نمشي عبرنا شارعاً عمومياً، وشاهدنا جمهرة من الناس أخيراً، ابتهجت لمنظر الناس وقربنا من بر

الأمان، بعدها بدقائق شاهدنا جمهرة أكبر من الناس يحملون أمتعتهم وأطفالهم على أكتافهم ويتزاحمون حول ثلاث طائرات عليها كتابات انجليزية، واصلنا السير وصرنا نواجه جموعاً من الناس المشاة والكثير من الجنود العزل ومفتوحي الصدور يمشون بينهم، استطعنا تحصيل بعض التجهيزات وملأنا قنانينا بالماء، دعانا بعض الجنود للسير مع الجموع ورحبت بنا وجوه الأهالي، لكننا كنا نتبع الرشمة وهي تتراقص أمامنا وتقودنا إلى فيَة الرقوق، لم نستسلم لمغريات الناس ولا لخوفنا من الجوع والألغام والسموم والعطش، كل ما في رأسينا كان ينبض بحماس استعداداً لما ستطلعنا عليه حدبة.

الطريق إلى فيَة الرقوق، مخبوء في ألياف العصا، معبدٌ بالحصى والوجوه الهاربة، وروائح جنود طبختهم الطائرات ونثرت عليهم الملح والمنشورات، ووحدها حدبة تقرأ وتكتب لغة الرشمة.

مرفأ خاص، 25 شباط من السنة 2013 الميلادية

الحقيقة العارية لا تتمشى في سوق الخياطين، إذا رأيتها هناك فساعدها في لبس ثيابها وخذها معك إلى البيت.

لأنها لم تكن هي.

هذه كانت ديباجة تقرير لصبرية كتبته قبل مقتلها بعشر سنوات تقريباً عن جرائم الاغتيال الجماعية، يومها كنا قد تعرفنا للتو، سلمتني الصحيفة بعد أن سألتها عن نماذج من موادها الصحافية، لأني لم أكن مطواعاً في البداية وأظهرت لها كل تمنعي وأنا الراغب.

إلى جانب التقرير خبر ببنط أخضر عريض: عجوز يبتلع شجرة أم قتيبة ويموت.

ساء صبرية عنايتي بالخبر وسؤالي عنه أكثر من تقريرها، وهذه كانت طريقتي المتعمدة في تعذيبها وكسر استقوائها بما تكتب، وما أفعله ضمنياً هو التحمس لشيء جانبي قد لا يمت للموضوع بصلة، وأسبغ عليه الأهمية والتركيز وأغض الطرف عما تفعل وما تتعب في تحقيقه. وقتها أصبحت شجرة أم قتيبة التي ابتلعها الرجل محل اهتمامي خلال الحوار معها وبعد انقضائه. أما لقاءاتي مع صبرية فقد تكررت في المكتبة المركزية ثلاث مرات لتتحول إلى صلتي بها على صداقة؛ ثم إلى شيء آخر يصعب على أغزر معاجم اللغة تسميته وتحديد سنخه.

عدت إلى أرشيف صبرية وأنا منبطح على بطني،

داخل زورق مهجور على اليابسة قريباً من مرفأ صغير يستعمله حديثي النعمة من التجار لتهريب النفط، واستعمله أنا للتغاضي والسبات والانفصال عن الواقع، أنا شخصياً احتفل بالانفصال عن الواقع ولا أستحي من هؤلاء الذي يعيرونني بذلك، لأنها مهنة شاقة وليست كما يظنون، فحينما تنفصل عن الواقع تجده تحت إبطك عادةً وتجاهد في تنظيف جسدك منه، فالواقع ليس ذيلاً وأنا لست أبي بريص.

في جوف الزورق أعاشر يدي رفقة مقاطع جنسية في هاتفي، أهرّب قلق اليوم إلى اليوم التالي وأرمق مهربي النفط من بعيد وهم يشدّون فوهات الأنابيب؛ مرددين يا الله يا مسهّل، لأن السفن تتثاقل وتحرن مثل الدواب على السكة، وترفض الاتصال بالضفاف، لا تقبل بأقل من مرفأ أنيق ونظيف، ويرعبها أن تسحل في الخفاء نحو مرفأ فرعي صغير مستور بأعواد النخيل وملوث بالزيت.

أتأمل قشور الصدأ والطلاء داخل قمرة القيادة في الزورق وهي تنحت وجوه كل من أفكر فيهم، وقد كانوا كلهم صبرية.

استعيد حوارنا كاملاً في المكتبة المركزية، كاملاً بلا مفقودات، بما في ذلك مرفقاته من رائحة معجون الأسنان ونغمة هاتفها وطريقتها الفاشلة في اصطناع خبث ولؤم غير موجودين في شخصها:

«موافقة، سألغي فكرة الحوار معك وأجري تقريراً عن

أم قتيبة ومعادلتها»

«أنا لم أقل ذلك، أردت فقط التعرف على شخصك الكريم ودراسة جدوى ما سنقوم به»

«أدرس على راحتك، لديك الوقت كله، حينما تجهز كلمني، أنا أترخص»

«أترخص!»، لم تسمعني حينما استنكرت عليها استعمالها لمفردة رجولية للتوديع وطلب الرخصة؛ كانت قد بلغت الباب وتلقفت الإسفلت بكعبها الخفيض.

كلمتها مراراً في ذلك اليوم، لكنها تمسكت بمخطط ما في عقلها وخاطته بمهارة، لم تنجح تماماً في مغالبتي عاطفياً؛ لكنها نجحت في جعلي قريباً منها، متوفراً، موجوداً، متاحاً للتواصل حتى في ساعة متأخرة من الليل، كنت ظلاً مثقوباً يكافئ من يستظل به بعاهة دائمية في الروح، زورق غير مضمون، يعيدك إلى الجانب نفسه الذي ركبت منه.

بعثت إليها برسالة في اليوم التالي لحوارنا في المكتبة: «عرفت أن العجوز الذي ابتلع شجرة أم قتيبة كان مطلوباً للقتل، وهناك من يبحث عنه، شجرة أم قتيبة غير صحيحة وتنتمي إلى الدجل الإحصائي، أرجو أن تنصحي محرري الصحف والخبريات بإهمالها، أنا احترمك وأقدرك وأعزك مثل أختي، أنا بلا أخوات بالمناسبة، لذلك لا أحب ان تكوني من مروجي العلم الزائف».

المخطط الذي رسمته سيقول لها طبعاً لا تجيبيه

واجعليه ينتظر، وهذا ما حدث.

لم تجب على رسالتي حتى مر نصف أسبوع تقريباً، اتصلت بي تسأل عن تحديد موعد آخر، وأكدت بأنها متحمسة جداً للحوار وستسعى لنشره في صحيفة أكبر غير التي تعمل بها.

أم قتيبة هي ممرضة في مستشفى الأدواء المعدية التي كان اسمها مستشفى القادة قبل دخول الأمريكان والبريطانيين والهولنديون والإيطاليين واليابانيين إلخ في السنة 2003 ميلادية، لا أعرف من الذي سوّلت له نفسه واقترح عليها أن تسمي ما فعلته شجرة، حسب صورتها ومقطع الفديو المنتشر عنها فهي سيدة في الستينات من عمرها وتنتمي إلى بيئة القطاعات الصحية ويبدو أن المستشفيات شكّلت عماد عمرها ووقتها، لديها وشم في صدغها مع شق واضح في طرف أنفها يوحي بأنها كانت تعلّق عليه قرطاً أيام صباها. ولا يظهر أيضاً بأنها ترتدي بالطو أبيض أو تلتزم بأي زي ما، لديها شيلتها السوداء الإبريسم تطويها على رأسها؛ وتتوثق بسبابتها من صحة التحامها برأسها كل دقيقة.

ويبدو أيضاً أن أم قتيبة خزانة بيانات ثُعبأ يومياً بأخبار الأزواج والزوجات والكنّات والخالات والعمات والمطلقات والأرامل والهاربات من بيوتهن، وحسب كلام صبرية عنها التي التقت بها شخصياً فهي لا تمتلك الوقت لتمرير كل ما تلتقطه برأسها من نوادر وملح

وظرائف الأخبار وملاحم العوائل والمديرين والعمّال، لذلك يؤرقها ما تختزنه من أخبار لا يتسع اليوم بطوله لتمريرها للآخرين، ومن قوة ملكتها فهي أفضل راوية حكايات ومقاتل يمكنها أن تعجن الحكاية وتخبزها وتمهرها بنهاية إذا كانت الحكاية غير مكتملة، موهبتها تكمن في ذلك الجزء بالذات، أم قتيبة وحسب ما تعبر صبرية لا تؤمن ببعض تقنيات ما بعد الحداثة المشتملة على قصص النهايات المفتوحة، لأن قوام اشتغالها السردي الشفاهي قائم على توليد النهايات لقصص الواقع، فالواقع أحياناً ينسى قصصه الحقيقية مشرعة ويذهب لتحضير الشاي أو لقضاء حاجته.

سبّبت عادات أم قتيبة السيئة في اشتهارها، وجلبت لها ويلات الأقارب والجيران وزميلاتها وزملائها من الموظفين والخلان، يعرف الناس مثلاً أن حكاية فلان الكذابية التي ابتدعتها هي غير صحيحة، ويعرفون أن فلانة لم تعشق فلاناً ولم تره أصلاً لكن هذا غير كاف لتبرئة فلانة؛ ما دامت سيرتها قد وردت في مجلة أم قتيبة الدورية الشفاهية.

وكانت المرحلة التالية في مسارها المهني هي أن تتحول من مولّدة أكاذيب لا يصدقها أحد؛ إلى مولدة أخبار ليس مهماً أن تكون صادقة أم كاذبة، وهنا تناقش صبرية، صدقية الخبر في المجال الإعلامي وتعقد مقارناتها بين الاعلام هذه الأيام وبين مؤسسة أم قتيبة التي ترأس فيها أم قتيبة نفسها بنفسها. فالأخبار أخبار،

تترك الأثر نفسه على سمع العوائل المصونة صحّت أم كذبت، لم يعد الأمر مهماً. بل أن أي محاولة من عصابات نسائية متضررة في مهاجمة أم قتيبة بسبب افترائها وتدخلها فيما لا يعنيها؛ ستساهم في إذكاء الخبر وجعله ناصعاً ومنيعاً، وتحافظ على قوته الوجودية، فهو موجود، وهذا هو المهم، فتزييفه لا يجدي، كما أن صحته ليست مربط الفرس ولا بردعة الحمار.

لتوسع أم قتيبة من أنشطتها وتؤصل تجربتها وتحمي موهبتها؛ عمدت إلى رسم شجرة بأوراق واسعة، سمتها شجرة أم قتيبة، تستطيع من خلالها معرفة من التالي، ففي تلك السنوات انتشرت ظاهرة تصفية كبار الحزبيين في الأحياء الشعبية من الذين كانوا يضيقون على الناس قبل الاحتلال، وزعمت أم قتيبة بأن استعمال هذه الشجرة يمكنها من معرفة من هو المقتول التالي.

كل ما ينبغي فعله بالنسبة للزبون؛ هو أن يجيب على أسئلتها وما عليها سوى تمرير الأجوبة على الشجرة.

فمثلاً: هل فعلت كذا؟

إذا كان الجواب نعم تنحرف بإصبعها نحو غصن الشجرة الذي مكتوب عليه نعم.

هل فعلت كذا كذا؟

إذا كان الجواب لا تنحرف بإصبعها نحو غصن الشجرة المتفرع من الغصن السابق والذي مكتوب عليه لا.

وهكذا، فالأغصان تتفرع بنعم ولا، حتى تنتهي

الأسئلة عند غصن أخير صغير بلا تفرعات، والنتيجة هي الورقة الأخيرة، فإذا كانت نعم فالرجل تكتب له النجاة، أما إذا كانت الورقة مكتوب عليها لا؛ فعلى الرجل أن يستعد لجلباب الموت بالمسدس الكاتم.

فالفكرة هي تخطي حواجز اللا والنعم حتى التوقف عند نعم أخيرة أو لا أخيرة.

أغلب مواد الصحيفة التي نشرت خبر ابتلاع الرجل للشجرة قد حررتها صبرية بنفسها، بما فيها ذلك الخبر وعمود الصفحة الرئيسة، بل كانت تجهد نفسها في البحث عن تلك الشخصيات وتطارد قصصهم، تنشرها مباشرة او تخزنها في ثلاجتها الخبرية وتنتظرها حتى تبرد، تضعها في السخان أحياناً، حسب نوعها وطبيعتها.

ولما التقينا لقاءنا الثالث، أبديت الاهتمام نفسه في خبر أم قتيبة مما جعلها تبتأس قليلاً.

«ما يهمني هو الاطلاع على نماذج من شغلك، وها قد فعلت، لكن ليس كما تحبين، ألقيت طبعاً نظرة على التقرير المجاور الذي تريدين ان تجري معي شيئاً على غراره، لكني وجدتني أتوقف أكثر عند خبر أم قتيبة»

«أم قتيبة ثانيةً!»

«وثالثة ورابعة، ما تقوم به هذه السيدة هو تطفل على علم الاحتمالات»

«أم قتيبة لا تعرف كوعها من بوعها، لا شهادة ولا تحصيل ولا رياضيات ولا احتمالات إنها بالكاد تفك الخط، أرى أنك تبالغ وتحاول النأي بالموضوع الذي

اجتمعنا من أجله»

«الموضوع هو هو، الاحتمالات تجعلنا نفهم المستقبل، لو استطعنا معرفة احتمالات الأشياء لتنبأنا ما سيحدث في الأيام القادمة بالضبط»

«طيب أخي، قل ما تراه مناسباً في الحوار، تطرق إلى أم قتيبة وأم شعلان وأم نزار»

«من؟»

«لا شيء، إنها أسماء تسبح في عقلي، ربما قفزت إلى لساني من ملفاتي الصحفية»

«اجمعيها في رواية»

«أفكر في ذلك فعلاً، ألا تخاف أن تجد اسمك بين هذه الأسماء في الرواية»، هنا ابتسمت وحجبت عينها بكفها.

«بالتأكيد، أرجو أن لا تفعلي ذلك، الروايات تخرب حيوات أبطالها، أنتم تقتلون القصص بحكايتها، تفسدون الحوادث بتحويلها إلى كلمات وفوارز وضمات وشدات، عليكم أن لا تعبثوا بالماضي حتى لا تخربوا الحاضر، لاحظي مثلاً أفلام العودة بالزمن، هل تعرفين مصطلح شرطة الزمن؟، إنهم أناس وظيفتهم ردع الناس القادمين بآلة الزمن من تغيير أي شيء؛ حتى لو جرى ذلك بنمط طفيف، المسافرون عبر الزمان عليهم أن يحترموا مجريات التأريخ ولا يعبثوا بأي تفصيلة فيه خلال وجودهم في زمن غير زمنهم؛ كي لا يفسد المستقبل، أنتم تنبشون الأمور وتعملون دولمة بالتأريخ،

أنتم بالأحرى تطبخون مقلوبة»، حاولت أن أتظارف على قدر طاقتي.

«أنتم؟، من تقصد بأنتم، أنت رحت زايد»

ثم تذكر كلانا بأن لدينا خطة مضمرة للتواصل والتقارب؛ فخرجنا بسرعة من كهف الحوار الماسخ ذاك وشرعت بمجاراتها في كل شيء تقوله.

«خلاص سأجعلك البطل»

«أنا بخدمتك، بطل بطل، المهم أن لا تكوني ساردة عليمة، لأني بطل غامض ولا افتح نوافذ عقلي وأنشر نواياي بسهولة»

«حقك»

«كيف يموت رجل من ابتلاع شجرة أم قتيبة؟»

«أم قتيبة سحرتك على ما يبدو. الرجل كان مدير مدرسة ثانوية ولا يخلع زيه الزيتوني ويحمل قضيباً بلاستيكاً في يده ويهش به على الطلاب، وبعد الأحداث اختفى عن الأنظار ولم يفلح في الهروب. ظل في بيته ينتظر من يخلصه من الوحدة والنبذ وقلق الترقب. الكثير من هؤلاء كما تعرف حمتهم عشائرهم أو انخرطوا في الأحزاب الجديدة ككفاءات وخبرات أو انقطعوا للعبادة واطلقوا سراح لحاياهم وتلبسوا روح التوّاب المؤمن؛ ونجح كثير منهم في العودة إلى محيطهم بعد اقناع الناس بأنهم كانوا يتقون السلطة ولم يكونوا سوى عملاء أذكياء للمذهب والعشيرة والفقراء، وأن خدمتهم للأمن العامة وكتابتهم الدائبة

للتقارير ضد الناس كانت لغرض تدويخ السلطة والتمويه على دورهم السري، وحسب زعمهم فقد حموا الناس من الوشاية والقمع، أنا لم أذكر كل هذه التفاصيل في الخبر القصير طبعاً، لأن موضوعي كان مقتطفاً عن تقرير كامل نشرته لاحقاً عن شجرة أم قتيبة»

«إيه»

«لكن الرجل لم يكن محظوظاً ولم يقبله أحد، فالكثير من المشهورين بالبطش وقهر الناس وتعذيبهم والوشاية بهم قد نجحوا في تغيير جلودهم تماشياً مع متطلبات المرحلة»

«المرحلة!، لا أظن أننا نعيش مرحلة، إنها حالة هلامية تسبق نشوء العفن بين المخاط والبراز، أعرف كل ما تقولين، لكن تابعي..»

«الكثير من كتّاب القصص الحربية والمحرضين وشعراء الأمن الشعبيين وغير الشعبيين قد وجدوا أقنعة جديدة، ولم يكتفوا بمداراة أوضاعهم السابقة بل تسنموا أعلى المناصب، المهم...المهم بأن الرجل فقد ثلثي وزنه تقريباً وبدأ يأكل بنفسه، وقرر خفية وبصحبة زوجته المعلمة أن يتسلل ليلاً إلى بيت أم قتيبة، فما كان منها إلا استقبالهما واعداد جلسة معتبرة لهما، أجاب الرجل فيها على أسئلتها بنهم وظن أن النتيجة تستغرق وقتاً، لكن إجابات النعم واللا قادته إلى غصن قصير جداً، فحصل على لا كنتيجة نهائية جعلته يتجمد في مكانه، ثم طلب أن يرى الشجرة بنفسه، وحرصاً منها

على شفافية مشروعها فقد ناولته أم قتيبة الورقة، خطفها منها وظل يدقق فيها، وتحسر على سوء اجاباته التي انتجت لا سريعة، طوى الورقة وجعلكها؛ وجعلها بين كفيه وصنع منها كرة وأدخلها إلى فمه، أخذته زوجته بعد أن اعتذرت من أم قتيبة، وهذه من ناحيتها تمالكت نفسها وأحبت أن تطمطم الموضوع وتلم الحادثة؛ لأنها غير مستعدة لمشكلات من هذا النوع، ثم أنها رأت الرجل ينازع ويعاني من مشكلات في سلوكه الذهني، ولن يصلح الأمر سوى رسم شجرة جديدة. بعد ثلاثة أيام انتصب مخيم العزاء أمام بيت الرجل، فقد قضى بجلطة قلبية، عندها تعجب الناس من ذلك، لأنهم لا يعرفون بأن الرجل الفلاني يعيش بينهم ولم يفضحه سوى الموت وخيمة العزاء ويافطة عزاء تحمل اسمه».

مرَ كل ذلك سريعاً وأنا أقلب عيني على تشكيلات وجهها الذي يصنعه صدأ سقف الزورق. وصرت متيقناً أن صبرية نفسها قد جربت شجرة أم قتيبة، بلا شك ولا ريبة، ومهما كانت درجة إيمانها بالموضوع من عدمه، فما حدث لها هو سريان نَعمها ولائها في غصن طويل، باضت عليه الفواخت وعشعشت، وتضافرت عليه سويقات التين وأجنحة العنادل، ثم ظهرت أنا وثنيته حتى كسرته قبل أوانه عند ورقة مكتوب عليها لا.

شباط أو آذار من السنة 1991 الميلادية

لا أنكر أن حدبة ساعدتني رغم حرصها على الثبات في المقدمة، حملتني مع فاضل وجعلتني حدبتها واضعةً إياي فوق ظهرها لدقائق، فعلت كل ذلك دون أن تتخلى عن الرشمة أو تنفصل عنها. كانت تحميها منّا أكثر من أي شيء آخر.

المرهق في ذلك، هو أن حالتي الجسمانية وسخونة بطني جعلتهم لا يصدقونني فيما أقول.

«انظر، هناك، هناك هناك وراء النخلة!»، أهتف بوجه فاضل.

يستدير فاضل في كل الجهات بحثاً عن ذلك الشيء الذي وصفته، امرأة طويلة جداً، يناهز طولها جذع النخل ويجتاز رأسها سعفها، تركض مسرعة لتختبئ وتترصدنا، كانت بلا وجه ولا يدين، لكنها ماتزال امرأة وتهتز فيها التفاصيل التي تهتز مع المرأة حينما تتحرك بسرعة، عجبت بأنهم لا يرونها؛ أو لا يريدون رؤيتها، فكيف يتجاهل المرء جسماً ضخماً يفوق حجمه حجم أضخم البشر، ويتعدى طوله طول نخلة فارعة، كنت بالنسبة لفاضل أهذي من الحمّى، وبالنسبة لحدبة فروايتي غير مسموعة وكان على فاضل أن يترجم لها بيديه، دون أن ينسى مخاطبتي أنا أيضاً بلغة الإشارات على عادته في إثارة حسدي حينما يقوم بشيء جديد.

بعد أن فمهث حدبة ما أقول، مشت بسرعة باتجاه النخلة وانفصلت عنّا، تنقر الأرض بالرشمة وترقص

برأسها وتهتز خصلاتها المتيبسة من الطين والغبار. وحينما اقتربت من النخلة هربت المرأة العملاقة ولا يبدو أن حدبة قد شاهدتها أساساً.

«الولد مشتاق لأمه»، هتفت بنا حدبة من بعيد.

كررت العبارة نفسها وهي تلتحق بنا وتأخذ موضعها في المقدمة.

الحركات التي رسمها فاضل في الهواء لإفهام حدبة ما يروم لم تكن واضحة لأحد، لكني أعرف بأنه يقصد الطنطل، الطنطل كائن من الجن المسالمين، لا يؤذي أحداً في الغالب ويلتقيه الانسان بالصدفة، في الخلوات والحمامات والبيوت المخروبة والبساتين الفارغة ساعة المغربية والصحارى والطرق الخارجية، لأن الطنطل لايتقصد التواصل مع الانسان والاختلاط به إلا ما ندر، لذلك كانت أغلب المقابلات التي حدثت بين الانسان والطنطل تحدث دون ميعاد، ويكون فيها الانسان متطفلاً على خلوة الطنطل وزائراً بغير موعد، نحن إذن أقلقنا عزلة الطنطل ذو العباءة السوداء وجعلناه يهرب متخفياً، في الغالب يراه الجنود جالساً باسترخاء لكن جنسه أنثى، تطلب منهم سيجارة، دائماً تطلب منهم سيجارة، تفتح معهم حديثاً عبثياً وتسألهم أسئلة كبرى، مثل العلة والمعلول أو ما هو الشيء الذي لاينام ماشياً، ما هو الحيوان الذي جلدته فوق صوفه.

يتنفس من فمه ويتحدث من منخربه، فمن هو؟؛ ثم تقع في غرامهم وتنتهي القصة بالنوم معها أو الزواج

منها. أما السائقون في الطريق السريع فيصعد معهم كراكب انقطعت به السبل وداهمه الظلام وهو ينتظر من يقله إلى المدينة. يتوقف السائق له ويصعد ثم يكشف عن رجل التيس ذات الشعر الكثيف وهو يرفع بنطلونه، عندها يرتعب السائق وتنقلب السيارة أو ترتج وتميل عن الاسفلت، ثم يختفي الطنطل وتعود السيارة إلى الطريق، هناك شخص آخر يؤشر بيديه ويثير الشفقة، يتوقف السائق مرة أخرى ويحكي له بأنه أقلَّ شخصاً له رجل تيس وجسم بني آدم، فيبادر الراكب الجديد بالقول: «مثل هذه؟»، يسأل وهو يكشف عن رجل مشابهة لرجل الراكب السابق.

أما الأطفال فطنطلهم غير مرئي، لا تلتقطه عيونهم ثم أنه يحرص على عدم ارعابهم، لذلك يكتفي بإصدار أصوات أواني المطبخ ظناً منه بأن ذلك لا يخيف أحد.

«أنا لا أخاف الطنطل والطنطل لايظهر لي»، صححت لفاضل.

يمسح على رأسي وينظف وجهي من الحصى الصغيرة الملتصقة برطوبة رأسي.

صرت أشاهد المرأة العملاقة تظهر تباعاً؛ وفي كل الأوقات.

يئست من فاضل وحدبة ولم أطلب منهم الإمساك بالمرأة أو المناداة عليها، وفي كل مرة كانت المرأة تبدو أكبر وأكبر وأكبر. وتطور الأمر لأستيقظ وأجد نفسي مطوَقاً بذراعيها الضخمتين مثل أنابيب النفط ذات

العشرين بوصة التي عشت بينها.

ارتجعت إلى الخلف دافعاً جسمي المكوّر إلى داخلها، ارتميت ضاغطاً نفسي في أحضانها، استجمعت كل قواي المنخورة كي أصل إلى أعمق نقطة فيها وأبكي، أنشج وأتمخط داخل قلب المرأة وألوذ بقلبها. هكذا غفوت ثم صحوت على ضحكات فاضل وحدبة.

نعجة صغيرة يلتف حولها شريط كاسيت مسجل، بصلية الشعر وبطنها شديدة البياض، يبدو وحسب حنو حدبة عليها أنها من قطيع أبي الرشمة الذي مات جله وتفرق بعضه في الصحراء، يظهر أن النعجة حظيت بمتروكات في الصحراء مع جهاز مسجل عاطل وكاسيتات، وبدأت بالتهام الشرائط المتطايرة في الهواء، فكانت مهمة فاضل وحدبة هو سحب الشريط الذي بلغ جوفها. وبعد اليأس من ذلك عضّت حدبة الشريط وقطعته، فصارت النعجة تمشي والشريط يتدلى من فمها ويتماوج مع الرايح مثل خيط حدبة تماماً.

حملنا المسجل العاطل ومشينا لثلث ساعة تقريباً فعثرنا على مكمن شرائط الكاسيت، كان هيكل سيارة حمل يستقر على سطح الأرض؛ أما باقي السيارة فغاطس في التربة، لم نتوصل على نوع السيّارة وكنهها لكنها بلا شك كانت سيارة مكتظة بالمطمورات، مدفونة في الأرض ولايظهر منها سوى درابزين الجزء الخلفي. أتعب فاضل نفسه قليلاً في البحث عن شيء نافع فيها

فلم يجد، ثم ركز جهده في تعميق الحفرة التي تبرز منها أشرطة المسجل، واتضح أن الحفرة مهدت لها الكلاب أولاً أو خنازير البر، فليس بمقدور نعجة أن تنبش الأرض بهذه الطريقة.

حصل فاضل على كيس معبأ بالأشرطة ووضعه في حضني، حملته وانطلقنا، عرفت سر ارتباكه وهو يتعجل المسير ويتوسل حدبة بمتابعة المشي ومغادرة المكان، عرفت ذلك وأنا أدقق بالحفرة ونحن نبتعد عنها، هنالك أجزاء بشرية لم يعتن بها فاضل وهو يحفر مُستكشفاً السيارة، ولعله شَعر بالخوف حينما تعمق قليلاً ليتأكد بأن السيارة عبارة عن مقبرة جماعية حديثة تحمل في جزئها الخلفي أكداس من الجثث.

حلَّ يوم آخر ونحن نعيد السؤال نفسه كل ساعة بعد أن يُترجمه فاضل لحدبة، هل وصلنا؟، كم بقي من المسافة حتى نصل إلى فيَة الرقوق؟.

ولايكون ردها سوى الإيماء بالرشمة نحو الأمام، فليس هناك متجه آخر غير الأمام الذي تتقدم باتجاهه، اليسار واليمين يعنيان أنها على خطأ، وأن الرشمة تخونها وتضلل بنا، وهذا خارج دائرة الاحتمال.

«زفة زفة!»، يهتف فاضل.

استطاع بحماسته ان يجعلني أعتدل في مشيتي واتتبع أصابعه المؤشرة نحو بقعة تزحف في الأفق، تبين بأنها جمع من الناس يهللون ويرقصون ويغنون، ابتهجنا جميعاً وحملت حدبة نعجتها وركضت نحو

الزفة، تبعناها وجريت ناسياً بأني لا أقوى على ذلك.

اندمجنا بالجمع مباشرة وصرنا في وسط الناس نتقافز مثلهم ونهتف ونقلد حركاتهم، لا ندري لماذا يحتفل هؤلاء هنا ولم نتمالك أنفسنا حتى انغمسنا بينهم وتقدمنا أمامهم بحثاً عن العروس والعريس.

قال فاضل بأن هذا هو العريس، عرفه من بدلته السوداء ونظاراته الشمسية ورباطه الفضي، أما العروسة فقد دلتنا عليها حدبة، ولأنها لم تكن ترتدي ثوبها الأبيض وليست مدهونة بالأصباغ والمساحيق وغير مطرقة برأسها من الخجل؛ فلم نثق بحدبة. كانت المرأة التي تشير نحوها منشغلة بطفلها الذي يحبو بين أرجل الناس، وتضع قمصلة عسكرية مع كبوس يغطي رأسها.

أدرك فاضل عندها أن هذه ليست زفة، واحتجنا لساعات لنفهم بأن هؤلاء مع ما يحملون من أعلام وصور لشخصيات ترتدي العمائم والسواد؛ خرجوا للانتفاض والهتاف ضد الأوضاع وترديد الأناشيد الثورية، يرافقهم بعض الجنود وتسير أمامهم ببطء شاحنات تحمل أفواجاً أخرى من الهاتفين والمنشدين المسلحين.

حينما توقف الجميع للأكل عوملنا مثل باقي الأطفال في الحشود، منحونا عصيراً وتمن ومرق، وتهيأ لي أن أنسل وأذوب بينهم باحثاً عن المرأة العروس، كنت مشغولاً حقاً بتخيل شكلها وهي تأكل، وحدث أن عثرت عليها خلف التل تنفرد مع طفلها ويأكلان معاً، تدوف له

الخبز مع التمَّن وتزقه في فمه، وجدت فاضل خلفي يراقب خلوتهما مثلما أفعل، لكي لا يظن فاضل بأني زعطوط وأحن إلى أمي وفيرونيكا وربيع كثافة، حولت نظري عن المرأة وطفلها وأبقيت جسمي متوجهاً نحوهما، وبينما أنا كذلك لاحظت في حاجيات المرأة مسجل ستريو يظهر نصفه من حقيبتها المفتوحة والملقاة على مبعدة خمسة أمتار منها.

التفت إلى فاضل فرأيته يحرك حاجبيه وهو ينظر إلى المسجل، انبطحنا وزحفنا ببطء دون أن تنتبه لنا العروس، التقطه فاضل بيد وجرني بيده الأخرى؛ وهربنا.

استقبلتنا حدبة وهي تقول: «اذهبا مع الزفة، سيصلون البصرة، لا بد أن لديهم سيارات أو انهم يعرفون الطريق، قد تموتان هنا أنت وأخاك المريض».

«وعدتنا بالذهاب إلى فيّة الرقوق، ما نريده هو فيّة الرقوق»

اشارت نحو المسجل الذي يحمله فاضل وإلى كيس أشرطة الكاسيت الذي معي، فأجابها فاضل: «سنعطيك كل شيء إذا قدتنا إلى هناك».

تقدمت وخطفت الجهاز وكيس الكاسيتات وتخلت عن نعجتها وتركتها تتراجع إلى الخلف.

أما أنا فشعرت بالتحسن وصرت قادراً على المشي دون الاتكاء على فاضل، وبدأت المرأة الطويلة ذات العباءة تمشي خلفي، تختفي حينما التفت وحينما

أتجاهلها أرى ظلها الواسع يسقط أمامي ويغطيني خلال المسير.

بدأت حدبة تتضايق من رائحتي فعمدت إلى الحفاظ على مسافة أطول بيننا، حتى حينما تربعت وفتحت كيس الكاسيتات وشرعت بإدخالها واحداً تلو الآخر في المسجل كانت تأمرنا وتؤشر بالعصا أن نبقى على مسافة ولا نقترب.

أصواتُ المطربين الريفيين خيمت على الفضاء، لم يكن يعجبها العجب، ولم تكن تصبر على مطرب واحد لأقل من نصف دقيقة، جربت كل الكاسيتات تقريباً وقذفتها في الوادي ونحن نرمقها بحسد من بعيد. ويخطر لها أحياناً أن تخرب الكاسيت وتستخرج الشريط وتطعمه لنعجتها.

أعجبتها أغنية وكانت لربَيعة، المطربة السوداء، فأخذت تتمايل مع اللحن وتردد مع ربيعة: «هيَه وهاي وهوَه، هاها، هي وهاي وهو، وهو!».

رقصنا مثلها، لكنها منعتنا وضربت الرشمة في الأرض، وعندها سألني فاضل: «هل تعرف لماذا لاتريدنا حدبة نقترب منها».

«لأنها كلبة؟»

«لك لا، لأنها لاتريدنا أن ندري بأنها تسمع حالها حالنا»

إذا كانت قد نجحت في خداعنا كل هذه المدة فستنجح في خداعنا بشأن فيَة الرقوق، من أجل ذلك بدأ سلطانها بالتراجع بعد افتضاحها وأصبحت تقودنا

ببرود وتكاسل وكأنها تفسح الطريق لقيادتنا وتسلمينا زمام المجموعة. وبعد أن مشينا وعبرنا منطقة الوديان انسحبت حدبة إلى الخلف واكتفت بتحريك الرشمة، لا بل منحتنا المسجل وما تبقى عندها من الكاسيتات.

«اسمي فائق ياسين، عمري 55 سنة، لدي من الأولاد خمسة ومن البنات ثلاثة، اسجل هذا الشريط للسلام على عائلتي وتوديعهم وسؤالهم الدعاء لي والترحم على روحي»، هذا هو الصوت الذي انطلق بعد أن غذا فاضل المسجل بكاسيت آخر.

أحببنا الصوت وشعرنا بدفئه والحلاوة التي ينطق بها الحروف، كان يسعل أحياناً وكثيراً ما توقف صوته ليصدح صوت علي محمود العيساوي: «مخطوبة وغصب يا فلان».

تحدث الرجل كثيراً، وأسهب في تفاصيل عدة، وبين هنيهة وأخرى كانت حدبة تحتج علينا بأنها لاتسمع ما يخرج من الراديو، ثم بدأت بضربنا بالرشمة حينما تجاهلناها.

أوقفت المسجل وصرخت في وجوهنا: «أنا لا أسمع إلا الأغنيات، أبي وحده من يعرف بأن أذني تلتقط الكلام المنغم فقط».

«كذابة كذبوكي وبالكذب كذكذوكي»، يسخر منها فاضل للمرة الأولى بعد استلامها دفة القيادة دون وجل منها، ولا يبدو بأنها قادرة على فعل شيء غير الانكسار والخيبة.

وبعد أن أصبح صوت الرجل في المسجل أنيسنا الذي يمدنا بالانشغال ويدفع عنا ملل المشي في طريق خالية من الملهيات، توسلت فاضل وطلبت منه أن يساعد حدبة على فهم الكلام، وعاضدني أخي وصار حَبوباً وآمن مثلي تماماً بأن حدبة لا تسمع إلا الأغنيات.

«خوش كلام، لكني سأتعب من التأشير وترجمة الكلام بيديَّ»

«ليس عليك أن تستخدم لغة الإشارات، حوّل الكلام إلى أغنية وستسمعها حدبة»، وفرت له حلاً.

تحمس فاضل للفكرة وخفض من صوت المسجل، ثم قرر أن يخرج الكاسيت ويعيده من البداية كي لا يفوت حدبة شيء، وهذا ما حدث، باشر بالغناء واختراع الالحان وتركيبها على صوت الرجل، سمعته يقتبس من مخزونات رأسه من أغاني الريف وأغنيات عبد الكريم عبد القادر ورباب وعبد الله الرويشد ويجد نفسه واقعاً في لجة طور المحمداوي وطور الطشيت؛ وكثيراً ما يميل بألحانه نحو أغاني أفلام الكرتون وبالأخص اغنية مسلسل بشار النحلة الباحثة عن أمها.

«اسمي اسسمي يا ويلي فائق فائق ياسيييين، عمري والله عمري خمسة وخمسينه، وعندي من الأولاد خمسة وخمسة وخمسة، وخمسة واسجل هذا الشريط للسلام على عائلتي وتوديعهم وسؤالهم الدعاء لي والترحم على روحي لا والله ولا والله، اخذونا اخذونا من مكاتبنا في الشركتي التي قضيتووو فيها فيها موظفن خمسون

سنة سنة، يلوم إلي ما درى بعلتي شمرها، صعدونا بسيارات مظللة، إيه مظللة يا ويلي يا عيني يا ليلي»،كان يغني وهو يحاول خفض صوت المسجل الذي يترجم منه، فصرت أسمع ما يقوله الرجل من خلاله، أما حدبة فقد كانت تسمع باهتمام ومرح وتترك لرأسها حرية الميلان والسلطنة على صوت فاضل.

«لقينا نفسنا في الرميلة الجنوبية، فتحوه فتحوه يا قلبي، فتحوه يا أحلى حب، العصابة من على أعيننا، والكلا الكلا الكلا شينكوف على رؤوسنا، جمعونا من مختلف الأماكن، كونا كونا كونا عشرين نفر نفر نفر، وآه آه آه يا مشكورة، مشكورة صدك ما قصريتي، يمه يا يمه يا يمه، قالوا لنا دلونا على آبار النفط الكويتية، الكويتية والله وحبك يا السمرة يطر الراس ويا البيضة هجرك حنظل، مشينا معهم واضطررنا لقيادتهم نحو رؤوس الآبار التي أخفتها الرمال المتنقلة، المتنقلة يا بعد شيبي وهلي»، يتوقف فاضل بعد أن يشاهد باصاً كبيراً مكتظاً بالناس يتوقف لنا.

طلبوا منّا الركوب معهم، حذرونا من النار والألغام في الطريق، لكننا لم نعرهم بالاً، كنا مأخوذين بسحر فيَة الرقوق الذي ينتظرنا.

عدنا إلى المسار الترابي وامتزجنا بالصحراء مرة أخرى؛ وأستأنف فاضل أغنيته وحدبة لاتكف عن الرقص.

«وآه يا عشك الصغيرة، آه آه يا خالي، يمه يا يمه،

حرقنا ما عثرنا عليه من الآبار، ولم يلاحظوا حرقنا حتى للآبار غير المشتركة بين البلدين، وكثير منها ها ها آبار عراقية، عراقية أصيب بعضنا باختناق وأصيب بعضنا بعضنا ونرد لبعضنا، وهو مصاب بالربو أصلاً أصلاً ولم تكن وظيفته تؤهله لمعرفة خرائط الآبار وإحداثيات المواقع، واسمه رئيس ملاحظين سعدي من أهالي بدرة وجصان وجصان يا مصايب الله، وأظنه توفي هناك، ومعنا مجموعة من الشبابي، منهم ابن أختي سردار ولا أدري عن مصيره حالياً، أحب أنقل لكم محبتي فقد لا أتمكن من رؤيتكم مرة أخرى وأخرى وأخرى زماني أوسخ من الوسخين وأخره، قولوا لرسمية بأني أحبها وأخاف عليها، وقولوا لبشرى بأن تجد وتجتهد في دراستها تها تها، آه يا سباح قلبي، سامحيني وحدر العباية تلبديني، وكان معنا السيد رئيس الحفارين ربيع السنجري المشهور بربيع كثافة، هذا الرجل المفضال المفضال عانى معنا وتحمل من ركلات الأمن ما لا يقدر الانسان على تحمله ولا الحيوان، شاركنا كل شيء وكان معي ولا يزال، عذبوه كثيراً هالمسسكين المسيكين أنا المسيكين وبدينار باعوني!، جرح خاطري فهو بلا أهل ولا معين، لكن أخلاقه شهدت له، وله له، قاد فريق حرق الآبار وكان حاذقاً في معرفته للمواقع، قد لا نراكم لانعرف ذلك، وما نعرفه هو أننا نحبكم نحبكم ونحب كل من يحبكم، شبيها الروح ما بطلت نحبكم، وسلامي لجميع الاهل والأقارب، وقارب وقارب، بلم ما شالها

جروحي وقارب، ولمها ولمها، يا روحي شلون من يرحون، حياطين، عصرني بحضنه وضلوعي حياطين»، ثم عاد صوت العيساوي ليتوقف فاضل ويلتقط أنفاسه:

«يا لايم بعد لا تلوم، أوف أوف أوف، دمعتي بعيني حيرانة».

28 شباط من السنة 2013 الميلادية

الأمل عندي هو تجارب غير ممسوسة، إنه شيء يشبه النظريات غير المكتشفة، الأمل هو صخرة رودان وليس صخرة سيزيف، رودان يرى في كل صخرة تمثالاً غير مكتشف، وغير موجود بعد، وفي هذا الكوكب ملايين من تلك الصخور، وأعداد لا حصر لها من الأمور غير المكتشفة سنعرفها عاجلاً أم آجلاً. لم أعد مشغولاً جداً بمقتل صبرية، ليس لأن معرفة قاتلها هو أمر مستحيل، بل لأني مشغول أكثر في التقدم بالعمر، أريد أن أبلغ الستين بأي وسيلة، لأنني أريد تحويل كل هذا إلى ذكريات، وأنا ماهر جداً في تعليب الذكريات، وخزنها أو بيعها مثل الملابس المستعملة، وأريد أيضاً أن أضحك. أرتدي الأحداث الماضية مثل قميص من موضة ملغاة وأضحك أمام المرآة. ثم أن الحياة تصبح مضحكة برمتها ونحن نكبر، لدي الكثير من البراهين على ذلك، صبرية نفسها كانت حياتها مضحكة لكنها لا تدري، انتظرت أباها لسنوات طوال وهو قابع في معكسر قصر فيروزة للأسرى العراقيين في إيران، كانت تكاتبه وتبعث له بأشعارها المكتوبة بخط ناعم جداً، تطويها عشرات المرات وتكورها وتدخلها في طقم أسنان اصطناعية، ترسلها بالبريد العادي إلى ألمانيا ومن هناك تساعدها شاعرة مشهورة على إرسال الطقم إلى أبيها، يستخدم جياد الطقم ويحشوه مرة أخرى بالكلمات ويبعثه إلى ألمانيا، بعد عشرين سنة عاد جياد رفقة

زملائه من الأسرى أخيراً خلال الوجبات المتأخرة لاتفاقيات تبادل الأسرى، وقبل خمس ساعات من لقاء صبرية التي انتظرته عند المعبر، مشى الباص الصغير الذي يقلهم على متن جبل، كان الباص والجبل يؤمنان بالجاذبية أكثر من السائق، لذلك انضغطت جسوم جميع الأسرى العائدين في الباص الذي تشقلب واقعاً في الوادي، وماتوا.

ديوانها الذي سمته صهد؛ لم تعنونه كذلك لأن الصهد في المعجم يعني الحر الشديد بل لأن صهد هو اسم الدلال لصيهود، وصيهود اسم سائق الباص.

الدنيا مضحكة يا صبرية، إذا قرأناها من اليمين إلى الشمال، بصورة اعتيادية، بلا مؤثرات ولا خفة دم ولا نكات، مضحكة كما هي، لا داعي لقراءتها بالمقلوب.

في الطريق إلى محاضرتي في الجامعة عن الكمومية ومبدأ اللايقين، وأنا أمر على مطعم الحاج أبو نذير لأتناول حصتي اليومية من شوربة العدسة التي تسبح فيها فتافيت الصمون؛ لمحت حسين المجلد يشرب الشاي في المطعم، رفع الرجل يده مسلّماً دون أن يحرك شفاهه، لم أقترب منه بل منحته ابتسامة نائية وقررت الانصراف، تخطيت الرؤوس كي أبلغ الشارع العمومي واستقل من هناك سيارة إلى الجامعة، وقبل أن يحدث ذلك أمسكتني يد حسين المجلد من رسغي فالتفت وأسندت ظهري إلى حائط قريب.

يقبضون على سرّاق الكتب بسهولة في هذه البلاد،

قلت في سري.

لكن ظنوني هذه انقضت بعد أن بدأ حسين بالحديث، أخبرني أنه يريد أن يسرني بشيء بخصوص صبرية، قال بأنه سأل عني بدقة وعرف بأني لا أهش ولا أنش، لم يقل ذلك حرفياً؛ إنما أشار إلى هذا المعنى بطريقة مؤدبة. عرف عنواني وشغلي واهتماماتي وشيئاً يسير عن أسرتي، غير منتم، غير منضم، غير متحزب، غير موجود، هذا أنا.

حسين إذن حر في الحديث معي ولا يجد بأساً ولا مخافة في قول كل ما يريده، فالشخص الذي يتحدث معه عبارة عن عازل للسوالف وغير موصل للهراء ولا يتأثر بحرارة المحيط.

«سأتأخر عن المحاضرة، إنهم يتحججون ليجدون عذراً لفصلي أو ترقين قيدي، جدع أنفي وخوزقتي طولياً وعرضياً إذا ما استطاعوا ذلك»، قلت له مستعجلاً إياه في الكلام.

«دعائي لله أن يوفقك ويسهل أمرك، لن آخذ من وقتك غير خمس دقائق»

«لا أحد يستطيع أن يأخذ وقتي، لأنه ليس في جيبي»

«كلامك ذهب دكتور»

«لا تسرقه إذن، وأنا لست دكتوراً»

«القضية وما فيها أنني أمر بحالة غريبة كل يوم،

سألت الكثير من الناس وسافرت شرقاً وغرباً دون أن أعرف حلاً لقضيتي، زرت السحارين وفتاحي الفأل والكشافات ثم وجدتني أصرف نقودي على الخالي بلاش، وها أنا استسلم للموضوع، وحينما رأيتك هذا الصباح في المطعم تذكرتك، وأحببت أن أعتذر عن تركي لك في الدكان، كان تصرفاً غير لائق، امسحها في وجهي، ها أنا أعتذر، لكن دعني أقص عليك ما يحدث لي»

كنت غير مطمئن لكلامه ولا لطريقته في الحديث، وأراه يحاول الالتفاف حول ما يعرفه عن موضوع صبرية بأي شكل من الأشكال، وبما أنني بلا حيلة ولا قرار؛ قررت الاصغاء له والتصرف على نحو اعتيادي جداً، طلبت منه أن يكمل وابتسمت في وجهه ثم حضنته اعلاناً عن قبول اعتذاره لي، أنا كائن سريع الحضن والاحتضان، وهذه خلَة.

«أنا يا دكتور سبب مشكلتي هو أنت».

أومأت له برأسي كي يكمل، لم أجد من الضروري أن أقول له: أوه أنا، كيف!.

«منذ اللحظة التي تركت فيها كتابك عندي لتجليده تحول دكاني إلى علبة جنيّات»

«هل قرأت الكتاب؟»

«أنا لا أقرأ أنا أجلّد فقط»

«وماذا يضيرك!؟، الجنيات طيبات حسبما أعرف، خصوصاً جنيات الشعراء اللائي يكتبن لهم الشعر، فقط

لا تعترض على قصائدهن، لعلك تصاحب واحدة وتنام معها أو تصبح شاعراً لوذعياً بسببها، أنا لا أرى في الأمر مشكلة يا حسين، تعوّد على الموضوع وسترى، تعلم الرومانسية منهن على الأقل، هل أنت متزوج؟».

«زوجتان»، قالها وهو يبرز اصبعيه أمامي، صانعاً علامة النصر دون أن يدري.

«آمل أن دبغ الكتب وتجليدها يغطي نفقاتهما».

«أجلد الكتب في المساء، أما في الصباح فأنا أعاون أخي الاسكافي، أدبغ الأحذية وأخيطها».

«وماذا لديك عن صبرية؟»، أسأله وأنا أدير وجهي نحو شابة مرت من أمامي متظاهراً بعدم اكتراثي بالحوار كله.

«حدث أمر وأنا أخيط الكتاب»

«أي فردة؟»

«الفردتين، الكتاب كله مسكون»

شعر حسين بأني أسخر منه، فوضع كفّه على كتفي وضغطه وصوب نحو وجهي نظرة كسير مبتلى؛ وتركني.

في ذلك اليوم وبعد عودتي من الجامعة، شاهدت سيارة ماليبو مركونة في التقاطع، بالضبط في المكان الذي ينبغي أن تتوقف فيه الباصات الذاهبة إلى وسط المدينة، أعادتني الماليبو إلى زمن الطفولة وأغنيات أبي المفضلة، وأدعيته وصلواته المفضلة كذلك، وحرصه

على نظافة راديو المالبيو ومسجلها الذي يكاد أن يعقمه. ثم ظهرت صبرية وركبت صهوة خيالي.

استمرت صبرية في بالي إلى منتصف تلك الليلة، لم تخرج من رأسي حتى بعد أن افترضت بأن صبرية نفسها عبارة عن جنية هاربة من كتاب الزوابع والتوابع، أو من دفاتر شاعر ما، وها هي تحيا وتموت وتذرع الخط الفاصل بين الحياة والموت بخفة بالغة. كلمتها واصطنعت معها عشرات الحوارات المجزوءة، واعترفت لها بأني مشتاق وأريد أن أراجع كل شيء حدث بيننا، أريد أن أركب آلة الزمن وأعود لشهور قليلة إلى الوراء، لا لتغيير شيء ولا لتصحيح ما فعلته، إنما؛ وفقط، لأراقب شخصي وأتلصص على نفسي من بعيد دون أن ألمس شيء، وأطالعها من بعيد وهي تمشي، وهي تكتب، وهي تناقش وترفع صوتها ثم تخفضه وتبدله، تستخرج حقيبة أصوات من فمها وتتزين بها مثل أقلام الحمرة، تتناوب عليها الكلمات ومخارج الحروف، أريد أن أخدع الآخرين مرة أخرى، برفقتها وأرى نفسي من بعيد أشرح للبريطانيين آلة زمن لا تعمل، لا تؤخر ولا تقدم، وأثبت لهم بأن هذا هو جوهر فكرتي عن الزمن، إذا حركناه لم يعد زمناً، أما إذا تحركنا فسنتحرك داخله، أنا جيد في السفسطات وممتاز في ألعاب المنطق البهلوانية، لو لم أكن رجل علم لكنت شاعراً أو خياطاً لحفاضات النعاج في سوق الصفاة ومفاوضاً ممتازاً أيام ذبح الأضاحي وبيعها وشرائها، سألوصها عليهم

وأدوخهم، لن يصدقني أحد لكنهم سيحترمونني، ثم أقدم لهم لعبتي الأخرى، وصبرية تراقب، ونحن الثلاثة في لجة اللذة، أنا وصبرية وأنا الآخر القادم من المستقبل، أفتح الصندوق وأخرج لهم ماكنة صنعتها عند حداد التنانير خلف سوق الخضورات، وأقول لهم هذه آلة زمن أخرى، لا تعود بالزمن ولا تتقدم به، فيطردوننا ونخرج لنقضي الليلة على الشط، في زورق مهجور يستخدمه شرّابة العَرق لكرع الأرباع الأخيرة من زجاجاتهم.

أريد أن أخبرها بأني عدلت عن في أفكاري في النساء والزمن والبحر وألوان البشرة، وصرت لا أؤمن إلا بقوة التفاهة.

لم أتمكن من النوم دون أن أرسل رسالة لحسين المجلد: «يبدو بأن أحداً قصّ عليك فكرة الكتاب وصرت تتخيلها، الموضوع ليس خطراً وما عليك سوى التركيز في عملك، يسمون علتك هذه الديمونوفوبيا أو رهاب الجن، وأسبابه الخوف، الخوف جيد يجعلنا نستمر ونعمل ونجتهد ونتعاشر ونعبد وننام ونتبرز ونقتل ونتمخط ونسرق ونرقص ونقلي الباذنجان وغير ذلك، لكننا نخاف كثيراً أحياناً».

بعد ذلك حصل ما كنت أنتظره طويلاً.

نمت وحلمت.

يصعب روي الأحلام، ولا أدري كيف يروي البشر أحلامهم، لماذا يظنون بأنهم يتذكرونها جيداً، وكيف

يتسنى لهم حكايتها وكأنها أحداث مضت، ومن ذا الذي يستطيع أن يكبح جماح تخيلاته وهو يروي ويمنعها من الدخول إلى الحلم كبهارات أو اكسسوارات.

الحلم الأول في حياتي، كان يشبه أفلام سينما الدوغما، والكاميرة تهتز من على كتف المصور الذي لا يستعمل حاملاً ولا مثبتاً يمنع الارتجاجات، ولعل هذا قادم من ولعي بتلك الأفلام في فترة من الزمن.

احتفلت مطولاً بعد أن استيقظت من الحلم كمن يعثر على ثغرة في الأفق تنقله إلى عالم آخر، فها أنا ذا أجد أخيراً نافذة مثل باقي الناس تجعلني أستريح قليلاً من عالم الصحو. لكنني لم أفلح في تذكر كل تفاصيله، وتركته ينسل من ذاكرتي ويندرج في خانة المنسيات، قاومت نسيانه وغلبني ولم أعد أحتفظ إلا بتوترات الكاميرة.

في الصباح وجدت سيارة كراون زرقاء، تقف عند عتبة المنزل، نزل منها شاب في العشرينات، أبيض ومتوسط القامة ويرتدي تيشرت نادي فالنسيا، سلَم عليّ وخفض رأسه، كان متردداً جداً وبالكاد تخرج منه الكلمات معافاة:

«أرسلني صاحب المعمل أستاذ، ماكنة الدجاج لا تعمل، قال لي اجلبه إلى المعمل»

إنه يقصد ماكنة ذبح الدجاج التي صنعتها وبعتها لخمسة معامل، آلة نظيفة تقطع أوداج الدجاج وتبسمل عند رأس كل واحدة منها قبل أن تحز عنقها، لم يعد

يستعملها إلا معمل واحد وبطريقة سريّة تقريباً، لأن الباقين واجهوا اعتراضات فقهية وهمز ولمز من الزبائن؛ وانتهوا باستيراد الدجاج من خارج المدينة أو اعتماد الذبح اليدوي.

صاحب المعمل هو شياع أبو أمجد، رجل يظهر احترامه فوق طبقة سميكة من الاستخفاف والشتائم النائمة.

لم استفسر من الشاب أكثر، وجدتها فرصة للخروج من البيت والتخلص من فترة الاكتئاب الصباحية، عدت للبيت وارتديت ملابسي وسحبت حقيبتي التي تشبه حقائب المضمدين والختانين الجوالين في الريف؛ وبعد أقل من ثلاث دقائق ظهرت أمام الشاب وقلت له أنا جاهز.

لم ينطق بكلمة واستدار من خلف السيارة مرتبكاً كي يركبها ويدير المحرك، اتخذت مجلسي إلى جانبه وشبكت أصابعي وضممتها إلى حجري. قاد بي السيارة دون أن نتبادل كلمة واحدة حتى عبرنا الجسر الرابض على شط العرب، الذي كان غافياً ولم توقظه بعد أصوات الزحام وتثاؤب المدينة الصاخب، وهناك بدأت بحك جسدي، اشتعلت عندي حساسية الصباح ولم أقاوم هرش خصيتي، تناسيت الشاب اليافع الذي يقود سيارته صامتاً بقربي وفتحت رجلي وتنعمت بالحك والهرش، ثم كررت ذلك ولكن بحماس أقل، وبعد أن وصلنا منتصف الجسر هاج الجلد مرة أخرى، تماديت

قليلاً وحككت المنطقة مصدراً صوت أحتكاك أظافري بقماشة البنطلون، وما كان من الشاب إلا أن يضغط على المكابح وينعطف نحو اليمين ويتوقف.

«انزل هنا»

«ما هي مشكلتك، هل وصلنا!»

«قلت انزل هنا»

«أوه، أنا أعتذر هل أرعبتك؟»

«اخرج»

«أنا أحك خصيتي ولا أقصد اخراج مسدس من ثيابي»

انتبهت أن حركاتي كانت مريبة فعلاً، ولو كنت مكانه لارتعبت كذلك، تسمرت على الكرسي مكرراً اعتذاري ومحاولاً تهدئته، وبلا جدوى؛ فالشاب أصر على اخراجي من السيارة، ولمَا تلكأت في الخروج، شهر مسدساً بوجهي، لم انتبه كيف ومن أين أتى به، كانت حركته سريعة وامتشقه من مكان ما في ملابسه.

نزلت من السيارة مسرعاً وقبل أن أستقر على الأرض؛ انطلق بسيارته دون أن يغلق الباب وكاد أن يدهس صياداً ظهر فجأة مع سنارته من تحت الجسر.

لم يعلَق الصياد ومضى في سبيله وكأنه تعمد أن يتجاهل المشهد ولا يتدخل.

أدرت ظهري متجهاً نحو البيت، أسأل نفسي هل كانت هذه نكتة أم رؤية في المنام، اتصلت بشياع صاحب

المعمل وسألته عن خطب الشاب الذي أرسله لي:

«..أريد أن أعتذر لأني لم أقصد تخويفه، الظروف تعبانة لكن لا شيء في مظهري يستدعي الخوف، قل له إني آسف، ومستعد لانتظاره لو شاء العودة»

أجابني شياع وهو يقضم فاكهة ما وصوت الآلة يمتزج مع صوته وصوت الدجاج:

«أستاذ انت غلطان، أنا لم أرسل بطلبك»

«غير معقول!، الشاب أكد لي أن الماكنة عاطلة وأنت تريدني»

«ها هي الماكنة تسمع حسك، والبسملة تمام والدجاجات يسلمن الروح وممتلكاتهن المنقولة وغير المنقولة»

«الماكنة تمام؟»

«لوز اللوز»

«أنت لم ترسل بطلبي؟»

«متوهم متوهم»

توقفت للحظات أراقب أبخرة المدينة وهي تتلقف الأفق، استمتعت بالحك في الفضاء العام بينما الروح تدب في الجسر والضجيج يتعالى. كتبت رسالة لحسين المجلد: «لدي علاج لجنيات الشعراء لكنه يكلفك قليلاً».

وصلني الرد وأنا بالكاد أصرف نظري عن الهاتف: «يا ريت دكتور، بلوتي كبيرة وأمي تريد أن تربطني في حضرة الامام، لأني بدأت أؤذي أهلي وأستيقظ سابحاً

باليوريا والعرق كلما غفوت، نحن مستعدون لدفع أي شيء تأمر به»

«سأزورك الليلة في البيت، دعنا نعالجك ونتحدث عن فردة الكتاب».

صحراء الدريهمية، آذار، السنة 1991 الميلادية

ناب فيل يتوسط قبة ترابية، أطول من فاضل وأطول مني ومنه إذا صعدت على كتفه، كان ممتازاً جداً كنقطة دالة تجمعنا إذا تفرقنا ومللنا من الرفقة، جعلنا نؤمن بحدبة أكثر ونتحمل توبيخها وزجرها لنا، فالعلامات الفارقة لفيَة الرقوق بدأت تعلن عن نفسها، وحدبة كانت تشمخ بأنفها كلما التقينا بشيء غريب، وكأنها تقول هذا دلالة على كلامي. وما أسرع أن ذوت وتضاءلت بعد أن عرفنا أن هذه الأشياء هي مسروقات منقولة من بيوت الأثرياء والأمراء في الكويت، عرفنا ذلك بواسطة الكلمات المكتوبة على فناجين القهوة المذهبة وعلى مصغرات السفن الخشبية الموزعة في الخلاء. لكن حدبة لم تعرف بأننا أدركنا ذلك، وحينما اختفت وعادت ترتدي قفطاناً «هاشمي» واسع ومرصع بالشذرات والخيوط النحاسية؛ خاب سعيها وهي تحاول اقناعنا بأنه من فيَة الرقوق.

ورغم كل ذلك، لم تخفت عزيمتنا في الوصول إلى فيَة الرقوق أبداً، حاول جندي اختطافنا ووضعنا في خلفية السيارة لكن فاضل عضه من ساعده واقتلع جلدة منها وكومة من الشعر، وهربنا تتقدمنا حدبة وهي تتعثر بأطراف القفطان الهاشمي، وخلال ذلك تخلت عن نعجتها والمسجل وقنينة ماء من الحجم العائلي.

عدنا إلى ناب الفيل مرة أخرى، وربطناه بالأسلاك وسحبناه خلفنا، ولم يكن يظهر أننا في حال صالحة

للكلام أو الغناء، وخلال الأيام الثلاث التي تلت ذلك، غارت وجوهنا في لجاجة من صمت، ربما كان مجموع ما تبادلناه من كلمات لا يتعدى العشرة حروف، ولاحظت أن فاضل يتعمد ذلك ويهم ببتر الكلمات وفي ذلك قلدته أنا.

لعلنا تذكرنا أن ربيع كثافة قد قتل، لأننا كنا نحاول خلال الأيام الضاجّة السابقة التظاهر بأننا لم نسمع خبر نعيه في المسجل، لقد قررنا اظهار الحزن على طريقتنا، بتجنب الكلام ورمي حدبة بكعوب الأحذية التي نراها مرميّة على الأرض، ولا تجد حدبة غير ضرب رأس الرشمة بالأرض كعلامة على أنها استلمت الكعب ولا تبالي بذلك.

يصر فاضل على ارتداء بسطال عسكري رغم وفرة الأحذية التي صادفناها في الطريق، حتى حينما استيقظنا فجراً على صراخه مفزوعاً وهو يقول:

«عقرب في السبطال»، ويقصد البسطال، فضحكت عليه، ولأن أذن حدبة لم تلتقط كلماته قام بتفسيرها لها بيديه، فمدت يدها في البسطال واخرجته متدلياً من ذيله ووضعته في صدرها تحت القفطان الهاشمي ثم أخرجته من بين رجليها.

«خجلانو، اسمه خجلانو، عقرب خجول ويشعر بالخجل الشديد ويتكور على نفسه لو مسحته البنات على جسومهن»، قالت ذلك وهي تعيده إلى البسطال.

«احمل البسطال معك حتى يكمل العقرب موتته،

سيلدغ نفسه ويموت»، قالتها وهي تأمرنا بواسطة الرشمة بالانطلاق.

ظل فاضل يسير حافياً ويطالع العقرب الساكن في قعر الحذاء الذي بدا أكبر من رأسه، لم يمت خجلانو في ذلك اليوم ولا في اليوم الذي بعده، فقررنا دفنه حياً.

أطلعنا حدبة على تقاليد الدفن الخاصة بطريقتنا فاحترمت ذلك واكتفت بالمراقبة، حفرنا حفرة بحجم البرتقالة وأودعنا فيها خجلانو الذي بدا واجماً ولا ينوي الفرار، وضعنا فوقه حفنة تراب وغرزنا فوقه تلفون لا سلكي أسود ومسكرب حصلنا عليه من إحدى الإيفات المقلوبات بين المنخفضات، وأبت حدبة إلا أن تضيف لمساتها؛ فغرست فوقه ناب الفيل.

عاد فاضل ليستعمل الحذاء وعادت حدبة تمارس لعبة الاختفاء والظهور، وعند المغيب غابت حدبة عن أنظارنا وصرنا نمشي كتفاً إلى كتف، أنا وفاضل.

في المساء عثر فاضل على جحر صغير وقرر أن يجرب الدخول فيه، لم اعترض عليه وتركته يحقق ما يريد، كان الحجر على منحنى وفوق المنحنى شجيرات صبير لم تتسنن أشواكها بعد. لم أكن أرى من فاضل سوى البسطال، دخل في الحجر بصورة طولية ونام متنعماً بالبرودة، ولعل التعب هو الذي أخذه وجعله يشخر مستلقياً على خاصرته.

لمحت من بعيد خيمة صغيرة يتحرك فيها ثلاثة شواخص، خلعت بسطال فاضل وأدخلته في رجلي،

خطوت باتجاههم فأطلقوا علي النار وانبطحت، رفعت بعد ذلك فانيلتي التي خلعتها وجعلتها مثل راية. أومأ لي أحدهم بالاقتراب فاقتربت وأنا أحرّك رايتي مبتسماً لهم.

كانوا ثلاثة جنود، وحينما اقتربت لاحظت بأنهم أكثر من ذلك، كانت كتيبة كاملة من جنود بوجوه وردية وأخرى كالقهوة، استقبلني واحد أسمر وتحدث معي بالعربية، اعطاني كيساً من الطعام، فتحته وشاهدت العجب، فلقد توسعت محتوياته وأنا أفتحه، وأصبح الرز الذي بداخله ساخناً جداً وكذلك المرق.

«أريد واحداً آخر لأخي، إنه هناك غاف في الجحر»، قلت وأنا أخرج الطعام من فمي.

«طيب، هاك هذه ثلاثة أكياس، لكن لماذا تتقيأ الطعام؟»، قال الرجل الأسمر الذي تبين لي بأنه مترجم.

«أريد أن آكل مع فاضل»، قلت له وضحك وهو يضع بين يدي كيساً رابعاً.

أخذت الأكياس وهرعت نحو فاضل، وصلت إلى المنحنى ولم أعثر على الصبيرات، سلكت طريقاً أخرى، أبعد قليلاً، لكني لم أشاهد المنحنى ولا الصبيرات، شاهدني الجنود وأنا أعود إليهم بالأكياس، لكني لم أكن أنوي العودة إليهم، كنت أحاول أن أجد طريقي السابق إلى فاضل، اجتزتهم وهم يتضاحكون ووصلت إلى منحنى آخر، فتشت حوله وفوقه عن الصبيرات وعن الجحر ولم أحظ بشيء، جلست قليلاً لأتمالك أنفاسي

وأركز في ذاكرتي.

عدت للجنود مرة ثانية ولم يظهر بأنهم مكترثين، عبرت خيمتهم لأسلك الممشى الترابي الذي خلفهم فشاهدت الشارع الرئيس، لا أتذكر بأني سلكت شارعاً مثله وأنا اترك فاضل وأقصد خيمة الجنود، لكني مع ذلك، عبرت الشارع ومشيت لخمس دقائق تقريباً بحثاً عن المنحنى.

عدت أدراجي بطريق مائلة، ثم انعطفت يساراً وأنا أمشي لدقيقة، ثم لدقيقة أخرى نحو اليمين، كررت ذلك كثيراً محاولاً تطبيق خطة في رأسي، ولكني لم أعثر على فاضل.

«هلو يا الله وين فاضل، ما تعرف وين خليته؟»، قلتها بأدب جم وبصوت خافت.

«هلو يا الله أنا أحبك يا الله، فاضل يحبك، أكثر مني»، قلتها بنبرة أعلى.

«هلو يا الله، هل تركني فاضل وذهب إلى فيّة الرقوق»، كنت غاضباً.

اتخذت موضعاً قريباً من الجنود، وجلست أبكي، أدخلت بضع لقيمات إلى فمي ثم بصقتها، وأعدت تغليف الكيس حتى لا يبدو مستعملاً، صرخت مرة أخرى على فاضل، ثم بدأت أصوات البر وحيواناته غير المرئية بالتداخل مع صوتي، كنت خائفاً، فهذه أطول مدة أقضيها بلا فاضل، لذلك وتفادياً لسماع تلك الأصوات شرعت بالصراخ دون توقف.

هرعت نحو الجنود وسحبوني إلى داخل الخيمة، كنت أرفسهم وأضرب وجوههم وأنا أطلب منهم أن يعيدوا لي فاضل، في البداية شعرت بأنهم لا يصدقونني:

«فاضل واحد يشبهني جداً، عمره عشرين سنة، لأن عمري عشر سنوات وهو عاش مثل عمري بالضبط، ونحن متشابهان»، أقول لهم ذلك حينما أتعب من البكاء وترهق صدري الشهقة.

كسرت السرير الذي وضعوني فوقه، قفزت عدة قفزات أطاحت بالسرير، جذبت خوذة المترجم وكسرت نظارته، ركلت الجنديان اللذان يحرساني داخل الخيمة ويمنعاني من الخروج.

قاومتهم وعضضتهم وخطفت حربة صغيرة وجرحت بها إذن الجندي، اجتزت باب الخيمة لأجد لَمة جنود يتحلقون حول شيء ما.

لم أتوقف عندهم وعدت أصرخ في الفضاء وأنادي فاضل، سلكت الطريق نحو تل أحدب لم يكن بعيداً، لكنهم ركبوا سيارتهم وطاردوني. لاحظت شيئاً يومض من نوافذ السيارة مثل غالق الكاميرة. شعرت بأنهم يصورونني ولا يطاردونني، فابتسمت وأنا أجري وأحسَن من حركات جسمي وهو يذرع التلال الصفر كالغزال، شعرت بأنني نجم يهرب من ضوضاء الجماهير.

«توقف، وتعال بقربي حتى يرونا معاً»، همس لي فاضل وهو يتبعني.

«ابن الزفرة»

«كنت اقذفهم بالحصى والكعوب وأقول لهم أبناء الزفرة بالانكليزي، وظنوا بأنك أنا»

في ذلك اليوم وصلنا إلى زوبعة دخانية تدور في محلها، جزم فاضل بأنها فيَة الرقوق، لأنها كانت ثابتة كما لو كانت تحرس بقعة أرضية وتسورها، زوبعة تنقلب على نفسها وتلاعب خيوطها ببطء، تبدأ من الأرض وتنتهي بعنان السماء، تدخلها أسراب الطيور وتسطع منها الرعود، كنّا نظنها قريبة غير أنها كانت أبعد من تصوراتنا، ربما وصلنا إليها بعد خمس ساعات أو أكثر بقليل، ونحن نصل إلى حدودها بدأ الدخان يفرق بيننا، لكن الطريق إلى وسطها ما زال بعيداً، ما زلت أرى فاضل جيداً وأتلمسه بين لحظة وأخرى وسط الضباب أو الدخان الذي بدأت كثافته بالتزايد، ثم حانت لحظة انفلتت من يدي يد فاضل، وسمعت جسده ينزلق تحتي، لاحظت بأنني أقف على حافة صخرة كبيرة، ولمحت جسد فاضل مسجى في الأسفل، بلا حراك ولا نفس.

تسلقت الصخرة نزولاً وأنا أكظم ضحكتي، لأن فاضل لن يقع بهذه السهولة، ثم أنني أدخرت له ضربة على أسنانه، حتى يكف عن مزاحه المر.

كل ذلك كان محض أمنيات، فقد وصلت إلى جسد فاضل ولاحظت بقعة دماء كبيرة تنبع من تحت رأسه، رفعت رأسه ووضعته على فخذي، خاطبته بهدوء ونشفت بركة الدماء الصغيرة التي بدأت تتجمع في

حجري، لاحظت أن الرؤية لم تنعدم كلياً وهنالك معبر صغير يسلك بي خارج الوادي، حملت فاضل على ظهري على طريقة حمالي باشي، كما يحمل الناس صغارهم، وبلغت به خارج حدود الزوبعة، ابتعدت به عن الزوبعة هارباً منها، عائداً باتجاه المكان الذي دخلنا سور الزوبعة منه، وخلال كل ذلك كنت أطلب من فاضل أن لا يموت ولا ينزف.

كنت حائراً بين أن يكون مقلباً من مقالبه أو جرحاً في رأسه، واستبعدت أي احتمال ثالث، لأني لا أقوى على تخيله ميتاً. حل الغروب وأنا أحمله وأمشي وانزله على الأرض للاستراحة لدقائق.

وصلت الشارع الفارغ والذي يعتليه جسر كونكريتي يربط بين هضبتين صناعيتين، وقفت ووضعته على منحدر وجلست أحدثه وأقشط طبقة الدماء المتخثرة على رأسه.

فتح عينيه وسال شيء أبيض من فمه، دب في رأسي الحماس لفعل شيء يفرحه، نهضت واخترت تلاً صناعياً من تلك التي يستند عليها الجسر، حفرت حفرة طولية مثل جحور الكلاب، رششتها بالماء وهذبت سقفها وجوانبها من الداخل، سحبت فاضل إليها ثم بدأت بتوسعتها كي تحتوينا، سمعته يتنفس فوضعت رأسي على كتفه وغفوت.

استيقظت على لطمة قوية على خدي، انهارت طبقة الرمل فوقنا وشعرت بجسدي مضغوطاً بالرمل والظلام،

وحلقي ملوث بالحصيّات الصغيرة والأسنان، أسناني وأسنان فاضل، لقد اصطك وجهي بوجهه، لعقت أضراسه وسقط واحد منها في جوفي، عرفت بأني قادر على تحريك رأسي فقط، فنطحت الرمل ودفعته للأعلى، وكلما ضغطت أكثر ازداد ما فوقي صلابة حتى صار يابساً بعد دقائق من الدفع برأسي المرطوب بالدماء، غيرت مسار رأسي ودفعت باتجاه آخر، انزاحت كتلة من الرمل ودخلت حفنة من التراب في فمي وأنفي، لكن النور تسلل إلى الحفرة فجأة، فسارعت بالنطح من جهة أخرى متجاهلاً نفاد طاقتي وتهالك عضلات رقبتي، شعرت بعدها أن يدي قابلة للحركة فبدأت بتحريكها على وتيرة واحدة مع رأسي.

استطعت أن أخرج نصف قامتي من الحفرة، ثم حررت يدي الأخرى واستعدت السيطرة على نصفي العلوي، غفوت قليلاً من التعب ثم انتبهت إلى محارة محشورة في مفرقي، تمكن من تحريك رجلي واستطعت أن أتقدم بنصف خطوة تحت الأرض، وقبل أن أتم خطوتي اصطدمت ركبتي برأس فاضل، شرعت بالبكاء وأنا أخلص جسدي تماماً من الحفرة وأقع منبطحاً بالقرب منها.

أول شيء فعلته بعد أن استعدت جسدي ولهاثي هو الركض مسرعاً نحو الشارع.

مرّت قافلة سيارات عسكرية، وشاحنات تحمل أناس يهتفون ويتصايحون، لكنهم لم ينتبهوا لي، لأني لم أعد

أملك صوتاً لمناداتهم.

العجلة الأمريكية مرت مسرعة يصدر من نافذتها صوت أغنية سعيدة، صحت بهم «ماي سستر يموت، أخوي، فاضل أخوي ماي براذر مدفون بالرملة، فاضلو، فاضلو مات»، لا أعرف كيف قفزت إلى لساني اللهجة الفاويَة التي تضيف حرف الواو على أواخر الأسماء، مثلما فعلت حدبة مع خجلانو، ربما لأني كنت أنادي مثل النوخذة في قاربه على بحر من الرمال، استنجد سفينة لا تسمعني ولا تبالي بنجدتي، ومثلما بدأ حرف الواو يتلاشى من ألسنة الفاويين بعد أن ابتعدت البصرة عن البحر عند مطلع القرن؛ تلاشى صوتي واضمحلت صورة العجلة الأمريكية في الأفق.

«هلو يا الله، أنا مؤدب ولست مثل عمال بابا الذين يسبونك إذا انزلقت أقدامهم وتدحرجوا على سلالم الحفارة، لن أتحرك وسأظل ساكناً حتى تخرج فاضل من الحفرة، لن أتنفس، ولن أفرز ثاني أوكسيد الكربون وستموت النباتات وتتهاوى الأشجار، لن أدفن الفراشات، سأحنطها، أنا لا أعرف بصراحة لماذا ندفن الفراشات، هل هذه شغلتي يا الله، ماذا تفعل الملائكة عندك في الأعلى؟، ها؟. خذ هذه أيضاً، أنا لن أكبر، سأظل بعمر فاضل إذا مات، لن أرتدي غير قندرة قياس عشرة، حتى لو كبرتْ رجلي، وسأظل ارتدي تيشرتات ملونة، لقد ولدنا في نفس الساعة وأعتقد بأننا سنعيش ونموت معاً وعليه أن يكون معي في عذاب القبر، سنجيب على كل

الأسئلة معاً، هو سيتكلّم مع منكر وأنا آخذ نكير على جنب وفي ركن هادئ وأتكلم معه على مهل وسأجعله يتفهم أوضاعنا، اتفقنا أنا وفاضل وخططنا لكل شيء، لماذا لا تتحقق الخطط يا الله، أنا أحبك والله أحبك يا الله، لماذا لا تصدقني؟، يلا يلا عفية، قل لابن الزفرة أن يخرج لكي أشمَ رائحته الزنخة، يلا يا الله، لا أستطيع أن أصنع أخاً من جذوع النخل، لا أعرف كيف تصنع أنت الرأس وتجعله مفلطحاً ثم تثقب الأنوف وتعجن الآذان وتجعلها مسطحة مسطوحة، ثم تدهنها بالشمع، من أين تجلب الشمع؟، هل رأيتَ اليد الخشبية التي صنعناها لمستر ربيع كثافة؟، حلوة؟».

عدت لفاضل الذي انبعَجت الحفرة على جسمه، بصقت أسنانه من فمي وحفرت بحثاً عنه، لم يبتعد عني كثيراً وكان متيبساً على هيئة الحاضن، يطوقني بين ذراعيه لكن جسمه قد التوى بطريقة أليمة، كنت على شفير الحفرة أخلصه من الرمل وجذور الصبير والمحار ولم أكن بين يديه؛ لكنه حافظ على الحضنة والدماء تنبع من مكان لا أعرفه من جسده، سحبته بعيداً عن الحفرة، وأسندت رأسه على ربوة صغيرة.

نمت معه في ذلك المكان، وأحسست به يتحرك في قلب الليل، لكن الريح كانت تكذبني وتدعي ذلك، أما المرأة الطويلة بعباءتها العامرة بالتلافيف فكانت تحضن كلينا وتنام إلى جانبنا.

عند الفجر لم أشعر بالمرأة تطوقني، ووجدتني مبتعداً

قليلاً عن جسد فاضل الذي بدا هامداً تماماً وبلا نفس، ولا رائحة.

حملته مرة أخرى، وشعرت بأنه صار أخف مما كان عليه، وحينما ظهرت أمامي عيني نخلة خاوية قررت أن استظل بظلها وأحمي جسده من الذباب وأراقبه كي لا تقترب منه الطيور أو العقارب، قريباً مني حط غراب وبدأ بنبش الأرض بمنقاره، سألته كعادتي في الحديث مع الحيوانات، ولم يجبني كعادة الحيوانات التي أخاطبها.

«هل تقول لي..عليك أن تدفن فاضل؟»، صحت بالغراب.

طار الغراب وخاف من صوتي، قذفته بالبسطال وأمرته أن لايزعجني مرة أخرى.

تقدمت نحو حفيرة الغراب الصغيرة وهممت بتوسعتها وتعميقها، مر ذلك بسرعة، ووجدتني داخل حفرة بطول فاضل، لكنها ليست عميقة بما يكفي، واجهتني طبقة من الكلس وأخرى من الطين الصلب، قررت ان اكتفي بذلك الحد المعقول وأسحب جثمان فاضل وأدخله بهدوء إلى حفرته.

كنت أتجنب النظر إلى وجهه، لأني أخاف من اعتراضاته على طريقتي في وضع الفراشات في الحفر، فلقد كان يعنفني كثيراً ويطلب مني التأني وحمل الفراشة برفق مع حبس للنفس وسكون لباقي أعضاء الجسد، فعلت كل ذلك مع جسده وغطيته بالتراب وأنا

أقاوم النظر في عينيه.

أغرتني فيئة الرقوق وهي تقترب مني، غازلتني وضللت عيني وجعلتني أظن أنها تستقبلني وتتقدم نحوي، سمعت أصوات مكنوناتها التي تصطخب داخلها، موسيقى مركبة من أصوات الضفادع وخنازير البر والسلاحف والقطط والبلابل والنسور والفاختيات.

وضعت على قبرة سعفة خلعتها من كتف النخلة وركضت نحو فيئة الرقوق.

لم أكن مبتهجاً ولا حزيناً، كنت في شعور بين البينين، أصبح الجو بارداً وأحسست بأصابع قدمي تلتصق بباطن الحذاء وتصدر صوتاً وأنا أعدو وأنفذ إلى داخل الزوبعة.

لمحت خلفي ظلاً يتبعني، ثم صار ظلان، ظل المرأة وظل صبي صغير تجره معها.

خلعت حذائي لكي أسعد بالضغط على تربة الفيئة، شاهدت مستنقعاً كبيراً من النفط الأخضر المائل للسواد في بعض نواحيه، وفي داخله تعوم البجعات الملوثات بالكبريت وسواد النفط اللزج، يمرحن مع بعضهن ويتقاذفن القير الثخين وهن يثرن مويجات الزيت مع رفيف أجنحتهن، يبدون عمياوات وغير قادرات على فتح أجفانهن، ورغم ذلك كان السرب يحط بأمان ويلاعب بعضه بحبور.

خرجت من حافة المستنقع سلحفاة هرمة، تمشي بتثاقل وتجر إلى جانبها رأسها الثاني الذي يبدو ميتاً،

تبعتها خمس سلاحف أخر، كل واحدة منها برأسين. ركضت نحوها فلم تهرب مني ولم تجفل من قوامي.

ركبت الكبيرة فلم تمانع ولم تظهر أي مقاومة، شعرت بها تقودني في نزهة داخل فيَة الرقوق، استسلمت للفكرة ورحت أدندل رجلي من الجانبين، شعرت بالسماء تمطر بقطرات سود فرفعت رأسي وشاهدت سرباً من الفلامنغو ينكش أجنحته وينظفها بالهواء ويقذف الزيت على وجهي.

مرت سحلية بدينة وعلى ظهرها كتلة مطاطية من شحوم النفط، تتحرك فترتج معها الكتلة مثل طبق الجلي الذي تعده فيرونيكا.

تأكدت بأني صرت تماماً في قلب فيَة الرقوق، حيث تحسن معدل الرؤية وبدأت جدران الزوبعة تحيط بالمكان، توقفت السلحفاة ذات الرأس الميت والرأس الحي عند شجرة كالبتوس، كانت أغصان الشجرة تنضخ بسائل بني اللون وله رائحة تشبه رائحة البيض الفاسد، لاحظت أنبوباً معدنياً يدخل تحت الشجرة ويرتبط بجذورها ويعانقها، وعلى الغصن الكبير الذي تستند عليه العشرات من طيور الحذاف المقنزع رأيت صمام بئر مدور ويشبه مقود السيارة؛ كان معلقاً وينز منه ندى الغاز.

سحرتني قذَالة طيور الحذاف فتسلقت الشجرة، سمحت لي السلحفاة بالنزول بل دفعت مؤخرتي وأنا أهم بالتسلق، الحذَاف لم يظهر اعتراضه على اقترابي

منه، استقبلني وتقدم نحوي وعرف بأني أريد ملاعبة قذالته؛ فانحنى وسمح لأناملي باللعب في ريشات رأسه التي تشبه قذالات بنات مدرسة الشنقيطي.

حينما وقعت تلقفتني السحلية ودحرجتني على عنقها حتى استويت واقفاً على الأرض. كنت أبحث عن أي شيء يجعلني أروي ما يحدث لي في فيَة الرقوق لفاضل دون أن يكذبني، أفتش عن أي دليل يجعل حكايتي غير قابلة للدحض من قبله، وتذكرت بغتة بأن فاضل قد مات.

حطت مجموعة من الفراشات على كتفي، فتحت كفي فانسابت على باطنها، ألوانها خاكية لكنها أفتح قليلاً وتميل إلى الصفرة، مع زخارف نقطية غير متناظرة على أجنحتها، أول مرة أرى فراشة لا تتناسق فيها الرسوم على جانبيها.

فتحت جيبي بإبهامي فالَتفت الفراشات وحلقت قليلاً في الجو ثم عادت لي ودخلت في جيبي.

كل شيء في فيَة الرفوف كان يعترف بحضوري ويشاركني نزهتي داخلها، ولما حل الظلام همَت البطات والأوزات بخفق أجنحتها مصدرة ضجيجاً هائلاً، راقبت ذلك وشعرت بالأسى بعد أن أعلنت كل الأسراب عن فشلها في الطيران، وخلال ساعات مكوثي داخل الزوبعة، كنت أشاهد تلك الأسراب المغمورة في مستنقع الزيت تهمَ بالطيران مرة أخرى ولا تفلح، في الواقع، لقد كانت تلك الأسراب تكرر المحاولة كل ساعتين أو ثلاث،

دون فائدة، ودون أن تتخلص من ثقل النفط الخام على عيونها وعلى عظام أجنحتها.

غمست رجلي بالمستنقع ولمست إوزة عمياء، عمياء أكثر من أخواتها، لأن رأسها كان معفراً بكتلة من الطين القاتم الممزوج بالزيت، ولا يبدو منه سوى طرف منقارها، حاولت تخليصها من الكتلة فتعنتت وابتعدت عني، وضعت قدمي الثانية في المستنقع وحاولت لمس الطيور وتفريق أجنحتها وإزالة معجون النفط منها، باغتني رذاذ من المستنقع قذفته أجنحة البطات نحوي وهي ترفرف بأجنحتها محاولة الابتعاد عني، وهنا ظهر رأس السلحفاة ودفعني برفق إلى خارج المستنقع، ولما بلغت اليابسة عادت السلحفاة وغمرت نفسها بالزيت وانخفضت نحو قاع المستنقع بسلام.

«لا تحاول اخراجها من النفط»، سمعت حدبة تقول ذلك وهي تدفع بالرشمة سلحفاة ميتة ذات رأسين وتدسها في سواد المستنقع.

1 آذار من السنة 2013 الميلادية

أول ما جذب انتباهي في بيت حسين المجلد، هو السقف الجلدي الذي لايرتفع كثيراً عن مستوى قامة رجل اعتيادي، ويبدو بأنه دبغ السقف بالجلد للتزيين واخفاء العيوب والأسلاك الكهربائية المتسلقة مثل نبتة لبلاب وحشية. إلى غرفته في آخر البيت قادتني والدته، وهي عجوز تشبهه لا يبين من وجهها غير عوينات وخصلة بيضاء نزحت من تحت عصابتها. دخلت عليه وهو نائم على بطنه وإلى جانبه تتوزع قدور تفوح منها روائح أعشاب طبيعية وتحيط به غيمة من الأبخرة.

«عساك سالم وما تشوف شر»

«....»، لا يبدو بأنه قادر على الكلام ولا حتى التفكير بإجابتي، عيناه مسدودتان ويسيل اللعاب من فمه، شعرت بظل والدته خلفي، فالعجوز كانت تتجنب الدخول لتمنحني شيئاً من الخصوصية، وحتى حينما سألتها عن حالته هذه ومنذ متى هو راقد وشبه مشلول؛ تجاهلت التواصل معي وفضلت أن تتمتم له بالدعاء. لكني خمنت أن حالته تقهقرت سريعاً خلال الأسبوع الماضي، وبعد آخر اتصال بيننا يوم سمعت صوته وشكواه.

شعرت بالغيظ قليلاً من استخفافي به ولعنت نفسي وخطتي الوشيكة للنصب عليه، فأنا لم أتصور أن وضعه جدي إلى هذه الدرجة، كلّ ما فكرت به هو علاجه من رهاب الشياطين مقابل مجموعة خدمات أو كتب

أسرقها منه.

سلمت والدته قائمة قصيرة بأسماء أطباء قد يساعدونه، سحبت يدها ووضعت القائمة في كفها وقصدت الباب.

صاحت بي: «مشكور يمه...يمه هذا الكيس تركه حسين لك وأوصاني بتسليمه لك»، قالت ذلك وهي تمد يدها من خلف الباب، التقطت الكيس من يدها ومشيت.

قبل أن أعبر سياج حديقة البيت، بلغت أذني زقزقة عصافير، توقفت ودلفت نحو الحديقة الصغيرة، لايبدو بأن عائلة حسين مهملة جداً لهذه الفضوة أمام البيت، التي تحتشد فيها شجيرات الآس والزيزفون ونخيلات تشتبك أغصان بعضها ببعضها على هيئة راقصي الأغاني الجبلية، لكن النخيلات لايرقصن، إنما يقفن أمام أعشاش عصافير حسين المجلد مثل ساتر حماية، حينما اقتربت وجلست على ركبتي، استوقفتني اعشاش تلك الطيور والكيفية التي صُنعت بها، لقد جلب حسين كتباً قديمة من الأحجام السميكة، وحفر جوفاً جانبياً بحجم كوب شاي وألصقها بالحائط، حيث عشعشت العصافير البرية وذرقت وباضت.

طاب لي الجلوس في الحديقة متنعماً بألوان العصافير وألحانها ومنظرها وهي تدخل أمعاء الكتب وتخرج منها، أحسست بثقل الكيس وهو يقطع الدم عن أصابعي؛ فتحته لأجد فيه كتاب الزوابع والتوابع وقد اكتسى عباءته الجديدة، وما أربكني هو أن الكتاب بدا

أثقل مما كان عليه، رغم أن الجلد الجديد كان خفيفاً وطرياً.

فتحت الكتاب ومررت يدي على ورقاته التي بدت محببة وأكثر غلظاً من المعتاد، كانت أصابعي تحتك بنتوءات على سطح الورق، دوائر صغيرة شفافة أو شبه بيضاء بمختلف الأحجام، يظهر أن مادة الصمغ الشجري الذي أهرقه حسين قد جعلت هذه الدوائر تبرز وتضاعف سماكة الورق، هذه الدوائر بالأصل هي قطرات دمعية من عيون صبرية، مالحة أكثر من المعتاد، وحينما طلاها حسين بذلك الصمغ برزت وطرزت الكتاب الذي قضت معه صبرية سنوات طوال.

عدت إلى باب بيتهم الداخلي وناديت على أم حسين، ولم تمهلني كثيراً حتى امتثلت المرأة وراء الباب، دلَت عليها رائحة المسك التي تضعها على ثيابها. قلت لها وأنا أهم بالانصراف:

«آسف حجية أنا هنا مرة أخرى، اسمعي، قولي لحسين إذا كتبت له العافية أن يكف عن استعمال هذا الصمغ كمسكر روحي، هل تفهمين ما أقوله يا خالة، ابنك يستنشق هذه المادة السمومية ويسلطن رأسه، فطنت إلى ذلك الآن، ابنك لا يرى جن ولا يحزنون».

«هل قال لك بأنه يرى الجنيات؟!، لا تدير بالك، إنه يا بني يحب سئاوي، سحرته وسقته النجاسة».

أقنعتني الحاجّة أم حسين؛ وقهرت فذلكتي، فكيف فاتني أن العشق يفعل ذلك، لأن العشق يفعل ما يريد،

ويحول حسين ويمذهبه كيفما اتفق، يحكم السيطرة على خلجاته ويجعله يتأثر بما يسمونه السحر وطنطل السحر وفاعليّة سئاوي. استطاعت الحاجّة أن تغلب أنفي المعقوف بالغرور العلمي الذي تسميه صبرية عجرفة الديك المدمّى، لا أعرف من أي شق أخرجت ذلك المصطلح، وقد يكون من حواراتها مع مصارعي الديكة القدامى في تقرير لها عن انقراض ذلك الكار، فالديك المهزوم يحتفظ بقدر كبير من الكبرياء الزائف وهو يتطوح من العمى والدماء بعد أن ثقبته المناقير.

قبل أن أغادر المكان، عدت إلى مصدر الزقزقة ولعلي جلست هناك نصف ساعة أراقب الطيور وهي تدخل في أعشاشها الكتبية التي صممها حسين، كانت تتعارك وتركب بعضها ولا تستقر في باطن الكتاب وتقفز منه محلقة مثلما تقفز الشخصيات التأريخية من بطون الماضي إلى حياتنا اليومية، فناجس حسين الصغيرة أكثر وفاءً للعش، فلم أشاهدها تغادره أو تسقط منه رغم صغر حجمها وهشاشتها أمام الطيور الأكبر حجماً والأعلى صوتاً، وهذا ما جعلها تتلقى وخزات المناقير وضغطات الطيور السمينة داخل الكتاب، ليس لهذه الفناجس علاقة بفناجس تشارلز دارون الشهيرة، لا أظن ذلك، فالفناجس الدارونية أشرس قليلاً وتعيش في غابات الأكوادور، لكنها أعادتني إلى مفهوم البقاء ومبدأ النجاة الطبيعي، فلقد ماتت أفواج من تلك الطيور حينما حل الجفاف في جزر أمريكا الجنوبية؛ ولم تسعفها

مناقيرها القصيرة على تكسير الغذاء الذي أصبح صلباً وقاسياً، وحسب الدارونيّين فهذه الطيور قامت بتطوير مناقير أطول للحفاظ على نسلها، فتغير شكلها عبر الزمن، أما خصومهم فقد نقضوا كل ذلك حينما عثروا على طيور فناجس أخذت بالانتشار في تلك الجزر بعد عودة النماء والمطر، وبأحجام مناقير عادية.

في أيام جلوسي أمام بسطيتي في الجمعات، أبيع اختراعاتي الصغيرة أمام أكشاك بيع الأقراص الليزرية لأفلام الجنس ومقاطع مضاجعة المتحولين والحيوانات، خطر لي أن أبيع فناجس دارون التي ورثتها من بيت فيرونيكا، عرضتها داخل قفص من خوص نخلة الخستاوي، ولم يظهر نحوها اهتماماً سوى عصام المطيرجي؛ محب الحمام الذي كان يستأجر حيزاً صغيراً من السوق ويعرض لزبائنه الأجزاء الكاملة لفلم العائلة القذرة، ادعى أمامي أن الفناجس الميتة تثير فورانه الجنسي حالها حال باقي الأمور التي تثيره مثل الحيطان التي يتبول عليها الناس والقيعان الفارغة والنخلة المنكفئة على رأسها. اشترى الثلاثة وأعادها بعد شهر، متسخات ومنتوفات الريش، معتذراً بأن كلمة سلحفاة المحفورة في اسفلها أخرجته من مزاجه وهو يختلي بنفسه في الحمام، مضيفاً بأنه تخيل نفسه يضاجع سلحفاة، وهذا الموضوع تحديداً أعاده إلى أيام المدرسة الثانوية، فلقد كان مدرس اللغة العربية يستعمل دراجة هوائية للوصول إلى المدرسة وللمغادرة

إلى بيته، وحدث ذات يوم أن التمعت في ذهن عصام صورة خبيثة للمدرس وهو يقود دراجته، فصاح به أمام الطلاب مشاكساً طريقة انحنائه على المقود وجلسته الحذرة، «أستاذ، هل تقود دراجة أم تضاجع سلحفة؟»، منحت النكتة عصام حالة مؤقتة من الرضا عن نفسه وعن قدرته على الحط من الناس والاعتلاء بسخافته فوق كبريائهم وقوتهم، فبعد أن ضحك الطلاب وتضاحكوا وانتهت الدقائق الخمس التي أشبعت عطشه للثقة بنفسه؛ تلقى تعنيفاً مبرحاً من المدير وتحول هو نفسه إلى مهزلة دائمة وانكسرت شوكته.

قلت له أن هناك رجل اسمه ألفونسوا، تخلف عن السفينة التي ركبها دارون الذي يظن الكثيرون بأنه صاحب نظرية التطور، وهو اعتقاد غير صائب، ففي العالم الكثير من الأدعياء والذين ابتسم لهم الحظ وكشر أنيابه للحقيقيين، اقتبس دارون الكثير من أفكار ألفونسوا وهو يسجل أفكاره عن الطيور والسلاحف، عاد إلى موطنه وقد نسي ما كتبه عن السلحفاة ولم يجلبه معه، والرجل الذي كتب كلمة سلحفاة تحت طائر الفنجس كان على خلاف زوجته فيرونيكا مؤمناً بالتطور، وأحب أن يبدي ذلك ويخلده تحت مؤخرة الفنجس.

لم يتفاعل معي عصام المطيرجي فضربت له أمثله من واقع اشتغاله، كان فيها هو ألفونسوا وداروِن كان عماد شقيقه الذي يبيع أفلام استعمال القطط على

السرير، ورغم كل تلك التشبيهات والاسقاطات؛ لا أظن بأني افلحت في إيصال مرادي إليه. حتى بعد أن عقب قائلاً: «حضرتك جاي تفهمني أنك منزعج من الحياة وظلمها؟، لماذا تفترض أصلاً بأنها يجب أن تكون عادلة؟»، فعلاً يا عصام، حتى صاحب الانتخاب الطبيعي نفسه تشكى من سوء عدالتها رغم أنه يؤمن بنظام الطبيعة الذي لا يبالي بإرضاء أحد ولا بإسعاد من لا يستطيع البقاء والتكيف مع التغيير.

خلال تفكيري في كل ذلك، سقط فنجس صغير واقتربت جثته مني وسكنث، عرفت بأنه مات متأثراً بتكالب الآخرين عليه، ضممته إلى صدري ثم وضعته في جيب سترتي.

فناجس دارون وفناجس حسين المجلد، أعادت إلى ذهني حواراً قديماً مع صبرية، عن فكرتي حول التصفية البشرية التي كانت تحدث حولنا، كنّا نتمشى قريباً من جامع المقام المحاذي للشط، وخطيبُ المنبر الصادح صوته من السماعة الخارجية يقرأ حديث لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيما قتل، قبل أن تبرز صبرية عضلاتها في معرفة تواريخ الأمكنة في المدينة وتقول لي بأن الجامع كان سنياً ثم أصبح شيعياً ثم أصبح سنياً ثم أصبح شيعياً وهو الآن فيه منارتان، شيعية وسنية، قبل أن تتم ذلك، عرضت عليها إيماني وقتذاك بتفاؤلي حول تلك المَقاتل التي ستفرز الصالح من الطالح، حتى لو راح ضحيتها بعض

الصالحين، فالطبيعة تحمي نفسها وتدافع عن وجودها وتضحي أحياناً فتأكل أبناءها مثل الثورات، وانعطفت بعدها إلى الحديث عن عصافير دارون وفناجسه، وفي عيد ميلادي الذي تلا تلك المحاورة اشترت لي صبرية منقاراً من الخشب نحته لها صديق في كلية الفنون، أهدته لي وهي تقول: «هاك، أهم شيء عندي أن تبقى، معي أو بدوني، بالانتخاب الطبيعي أو بغيره، المهم أن تحافظ على منقارك هذا».

داخل التكسي وضعتُ كتاب الزوابع والتوابع في حجري وقلّبت أوراقه صفحة صفحة، مررت عليها أصابعي ونقرت عليها، دمعة دمعة، ولعل من يراني سيظن بأني أتيمم بها، لكنه لا يدري أن التمسح بدموع صبرية هو وضوء للضوء والبصر، هكذا كنت أقول تحت تأثير الهزة العاطفية التي اجتاحتني.

حينما لمحت تمثال أسد بابل طلبت من السائق النزول، عبرت سور الحديقة البيضاوية وخطوت نحو التمثال الإسمنتي المقلد عن نسخة تمثال أسد بابل في بابل، هذه النسخة شيدها البريطانيون هنا في بدايات القرن الماضي، على صدر الشط حينما كانوا يسمون هذا الجزء من الخليج بجنة عدن الموصوفة في سفر التكوين.

كتبت صبرية تقريراً ذات مرة كاد أن ينهي حياتها عن تماثيل الأسود والسباع في المدينة، فقد صرّح واحد من خطباء الأحزاب عن استياءه من التمثال الفاجر الذي

يعتلي سيدة ويركبها، وفي الخطبة التالية له صرّح بأنه عرف مؤخراً بأن الأسد البابلي يركب رجلاً لا امرأة وهذا ما يجعل الأمر فادحاً ولا يصح السكوت عليه، مما دفع صبرية التي لا يكاد يقرأ تقريراتها أحد أن تحقق في موضوع الأسد الذي كانت نسخته الأصلية لقية آثارية عثر عليها المنقبون الألمان في القرن الماضي، وامتدت مشاغلها لتشمل أشهر الأسود والسباع في المدينة، وساعدتها أنا بمنحها صورة لي تنشرها في التحقيق تحت عنوان أسد الأغا مع مواطن عراقي، وأسد الأغا هذا هو أحد الأسدين الصخريين اللذين كانا عند عتبة قصر جعفر آغا في محلة السراجي، في الصورة يبدو الاسد متهالكاً ومفككاً تم تثبيته بلوائح خشبية ومسامير فصار شكله مثل السبع المحبوس في صندوق ضيق.

تابعت صبرية سيرة الأسدين منذ أن وضعهما المهندس المعماري الهندي استجابة لطلب الأغا جعفر عبد النبي أحد رجال الشيخ خزعل أمير عربستان، حيث كان جعفر وقتها يملك أسطولاً لنقل النفط مع الشركة التركية، وفي الثمانينات استولت الحكومة على القصر وجعلته منتجعاً شتوياً للرئيس، ثم انضم إلى ما يعرف بمجمع القصور الرئاسية، ثم تحول بعد الاحتلال إلى مقر للقوات البريطانية، حيث حظي به الإنجليز شبه مهشم فطوقوه بالأخشاب؛ والتقطت معه تلك الصورة يوم كنت أعرض عليهم اختراعاتي عن آلة الزمن

وأراجعهم في مقرات مختلفة، قرب الجامعة وتمثال القرش والمقاتل والمواقع الأخرى التي كنت ألاحقهم بها.

أخرجت الفنجس من جيبي وتنشقت رائحته. اهتديت إلى منخفض صغير تحت تمثال أسد بابل وحفرت حفيرة بأظافري واسندت فيها الفنجس وغطيته بالتراب وعدت إلى تمسيد دموع صبرية في الكتاب.

غادرت قبر الطائر وتوجهت إلى سوق الحبال، في العادة اشتري موادي الأولية من هنا دون أن أصرّح لأحد ما أنوي صنعه، كل أجهزتي اجتمعت قطع غياراتها من سوق الحبال حيث تباع المواد الاحتياطية ومعدات البناء وأدوات الحمّام، لا زالت الحبال تباع هنا منذ أن كانت تباع للزوارق والسفن لكن بوتيرة أقل، لم أنس أن أشتري حبلاً رفيعاً من الجنفاص وأبيض اللون كي يبدو متناسقاً مع التصميم في ذهني، ما أخطط له هو صناعة خوذة أمشي بها في الشارع؛كي أتقي شر الشاب صاحب تيشرت فالنسيا وشرور أمثاله، بحثت كثيراً عن واقيات الرأس التي يستعملها العمال فلم أجد، اهتديت إلى بديل وصار البديل عندي أكثر اقناعاً من الأصيل، فبعد أن اشتريت ما يلزمني من البراغي والمفكات توقفتُ عند معرض صغير لأدوات الحمام، انتقيت مرحاضاً هو أصغر ما في المجموعة والأخف وزناً، وضعته في عربة استأجرتها ثم ركنته مع باقي الأغراض في سيارة حمل

صغيرة.

لم اطق الاصطبار طويلاً حتى نفذت المخطط كاملاً وأفرغته من رأسي على الورق، ثم أدخلته مطبخي الذي استعمله كورشة في غالب الأحيان، أمضيت ساعات الليل جالساً والمرحاض في حجري وماكينة اللحام تلسع بشرتي بالشرر، وفي حوالي الساعة الثامنة صباحاً استطعت أن أضع آخر قطعة وأثبتها في باطن المرحاض، أخرجت نثارة البورسلين التي خلفها المنشار ونهضتُ وأنا محدودب الظهر من طول القعود.

رفعت المرحاض وأدخلته في رأسي فغطاه كلياً مع جزء يسير من أكتافي.

كم وددت أن يطرق الذين أخافهم الباب وأخرج لهم، لكن أحداً لم يفعل، فتدفقت رغبتي في عرض اختراعي على الناس في الخروج إلى الشارع، في منطقتي لم يلاحظني أحد، ربما شاهدني بعض الصبية من بعيد لكنهم كانوا يظنون بأني أحمل مرحاضاً على كتفي، أما حينما وصلت الجسر قاصداً عبوره نحو الضفة الأخرى؛ فقد كانت السيارات ومزاميرها الصاخبة هي التي اكتشفتني وبدأ ركابها بالصياح والعفاط، لم اتعرض على الجسر إلى أي مشاكل مع المارة، وهذا ما حقنني بالحماس وجعلني مغموراً بالسعادات.

مشكلة عينا المرحاض الموصولتان بعيني أنهما بلا بؤبؤ، فكنت أمشي مثل الحصان الذي يضعون على جانبي رأسه قطعة جلد تمنعه من رؤية شيء غير الذي

أمامه، فلم أكن أتمكن من الالتفات ولا تحريك عيني، لكن هذا كله يهون مقارنة بالمكاسب المتحصلة من جهاز الرجل المرحاض الذي صممته، مثل مكسب النجاة من المسدسات الكاتمة التي تطلق صوتاً مدوياً إذا اصطدمت رصاصتها برأسي المرحاضي، فهنا تتحول اختراعات زينب رحيم إلى تجميعة من الخردة لا قيمة لها. لست خائفاً إلا من حصى وصلابيخ الصبيان، لأن درعي المرحاضي غير مؤهل لمنع ذلك وصده دون أن يرتج ويصطدم رأسي بالمعدات الداخلية.

لو كانت صبرية هنا لحمتني منهم ومن هيجانهم حولي ومحاصرتهم لي، تجنبث الانعطاف نحو السوق مخافة أن يطوقني الناس ويضربونني، لذلك قررت اختيار دربونة أقل زحاماً فلم أجد غير تلك المؤدية إلى مقهى البريكان. والحق إنها فكرة مناسبة، فلعلي أبيع من جهازي نسخة أخرى لأديب ما أو لمجموعة من الأدباء يتناوبون على لبسه.

لكن هذا لم يحدث، فحينما خطوت داخل المقهى واستويت جالساً برأسي المرحاضي على القنفة في أقصى الصالة؛ غضوا طرفهم عني في البداية وظنوا بأني أؤدي شيئاً من مسرح الشارع الحي، ثم ما لبث أن فطنوا لأمري أكثر وبدأوا بالتقاط الصور معي، وقاطعوا مايظنونه عرضاً لأنه طال أكثر من اللازم، ولحسن الحظ لم يحاول أحد منهم نزع المرحاض من وجهي، ولم يبخلوا علي بالاحترام والتشجيع، وبعد ثلث ساعة أو

نصفها صرت ديكوراً عادياً داخل المكان ولم يعد يعبأ بي أحد.

«الرجل المرحاض هو المعادل الموضوعي للسوبر مان والبات مان والبيرد مان»، استهل رجل لا أراه حديثاً من بعيد، كان يجلس إلى يميني على ما يبدو وأنا ما زلت عاجزاً عن الالتفات.

«خوذة البورسلين»، قال رجل عجوز يضع يشماغاً رثاً على كتفيه ويدور بصينيته على رواد المقهى؛ يظهر بأنه عامل جديد.

«عنوان ممتاز، سأستعمله لقصتي القصيرة، هل تسمح لي؟»، لم يسألني هذا القائل إنما وجه كلامه لعامل المقهى.

«تتدلل»، أجابه العامل كاشفاً عن أضراسه الرمادية وهو يبتسم منتشياً.

جبل سنام، السنة 1991 الميلادية

صعدنا إلى جبل سنام ووضعنا أيادينا على عيوننا كالنواظير، التقطت نواظيرنا نهايات البيوت والسيارات البعيدة والباقي من هيكل المدينة الأثرية، عثرنا على كرة أرضية من البلاستك ملقاة على الثلج داخل عربة متروكة محملة بالمسروقات، لم يكن الثلج بارداً ونحن ندعكه بأقدامنا ونتسابق للفوز بالكرة، كنت أعرف أني أسرع منها وسأصل قبلها، ورغم ذلك؛ كنت أفتح ساقي وأوسع خطوتي حتى لا يكون لها عذر، لكن حدبة رمت الرشمة وضربتها بالكرة وهي تصيح «الكرة لي»، جلست على الثلج الذي يغطي المنطقة كلها ولم أشعر برغبة بالبكاء، بل اجتاحتني نوبة نعاس وصنعت وسادة من نتف الثلج وغفوت عليها، لم تتركني أهنأ بنومتي وأيقظتني وهي تفرك فمي بالثلج، حينها عرفت ومكعبات الملح الناعمة تجرح شفتي بأن الثلج لم يكن ثلجاً؛ لكننا لم نعبأ بتلك الحقيقة ونحن نتقاذف الكرة الأرضية ونلهو فوق سباخة الملح ونحن نسميها ثلجاً.

بعد أن أصابها التعب دفنث نصف الكرة الأرضية في الملح وجلست عليها، أول مرة ألاحظها تواجهني بهذا الشكل وتركز النظر في وجهي.

«اخرج الرشمة»

«أنا لا أسرق ولم آخذ عصاك، فتشي عنها جيداً تحت الملح»

«اخرج الرشمة»

حاولت أن أشرح لها واستعمل يدي بالإشارات كما كان يفعل فاضل لكن ذلك لم يثنها عن الإصرار باتهامي، غنيت لها كلامي وركبته على لحن لكي تسمعه، ولم ينفع ذلك بل زاد الطينة ملحاً وأخذت تشتمني وهي تتدحرج فوق الكرة الأرضية وتطوف حولي وتحاصرني.

جبل المدينة الوحيد الذي كانت فيرونيكا تسميه قبة الملح لم يعد يتسع لكلينا، فقررت الهرب منها ونزول الجبل، أثارني منظر البيوت وشواخص الناس التي تتحرك مثل خطوط النمل وظللني بالراحة، واتسعت في داخلي يافطة ضوئية تقول: هذا موسم العودة إلى البيت. وتخيلت كل الأولاد الهاربين يعودون إلى البيت؛ وكان منظر الثلج الوهمي يرسم لي صورة من صور أعياد الميلاد في أفلام الكرتون، حيث يلبث أرباب الأسر مع أطفالهم في البيوت، وهم يراقبون تساقط الثلج عبر نوافذهم.

احتجت لربع ساعة كي أخرج من ذلك الفلم الكرتوني وأعود لحدبة وكرتها الأرضية، أحسست بها تأبى الهبوط إلى المدينة وتخيلتها تحترق أو تتحول إلى خنفسانة لو خطت خارج الرمال وتركت عيشتها، وهي تلهو على رأس الجبل تحت برج الرادار المشيد في القمة؛ كانت تبدو كطفلة داخل الشاشة أو سمكة داخل الحوض؛ تموت إذا تشبعت بأوكسجين المدينة. لذلك توقف خوفي منها ورأيتها أضعف وغير قادرة على اللحاق بي لو هربت عائداً إلى البيت، ستحترق أو تذوب أو

تسخطها الجنية.

سمعتها تكلم نفسها: «أنا ندمانة، سلمتك أنت وأخاك الأهبل الرشمة وجعلتكم تلمسونها»

عدت إلى القمة مسرعاً؛ شعرت بأني أحلَق ولا أركض؛ وقبل أن أصل إليها قفزت ووقعت بكامل ثقلي فوقها وفوق كرتها الأرضية.

«لا تقولي أهبل، إذا سمعتك تشتمين فاضل مرة أخرى سأدفنك هنا»، صرخت بوجهها وأنا أشد شعرها وأعتلي جسمها.

أطلت النظر في عينيها وأحسست بصدرها يرتفع وينخفض وتخللت رائحة الخراف المنبعثة من شعرها ثقوب أنفي، تعجبت بانها ما زالت تحتفظ بأقراطها وبالخيط الرفيع الذي يتطاير منها سائباً في الهواء بلا نهاية، كسرت خاطري في تلك اللحظة وقررت أن أبحث معها عن الرشمة، رفعت جسدي فهربث وتوجهت نحو السفح، بدأت بالرقص والصياح من بعيد.

«كذبت عليك، كلنا كذبنا عليك، أنت لا تعرف بأن فيَة الرقوق لعبة وعدناك بها حينما كنت مريضاً، فيَة هو اسم أختي، أنا وأخوك خدعناك كي تصحصح، لكن هل تعرف!، كنت أغمز لفاضل كثيراً، لكنه أهبل مثلك، صدَق اللعبة التي عملها بنفسه»

توقفت عندها عن الحركة وبدأت استذكار حماس فاضل نحو فيَة الرقوق ونضاله من أجل بلوغها، ثم تذكرت بأن حدبة نفسها دخلت معي داخل الزوبعة

ورأت حيوانات الفيَة المضمخة بالنفط، فصحت بها بصوت ملحون على أغنية:

«الفيَة موجودة يا ويلي يا عين، أنا ركبت على السلحفاة البارحة»

«أنا لا أعرف ما ذلك الذي كنّا فيه، النفط حينما ينفجر تحدث العواجيب»

«أختك اسمها فيَة، لماذا سماها أبوك فيَة آه آه يا زماني»

«ليس كل الأسماء يسميها الآباء، الأخوال يعطون الأسماء مرّات»

تحدثنا ونحن نلتقط الأسفلت بأقدامنا ونسلك الطريق نحو المدينة.

تكلمتُ دون لحن ولم تسمعني، ولعلها ظنت بأني سألتها عن الرشمة. ضحكت أخيراً وأكملت كلامها: «الرشمة امرأة أبي، أوصاني بلبخها مع قبره لكنكم سرقتموها، هل تعرف الأغنية التي تقول الرشمة خدها ضوه...هندس زلفها ودوة؟».

«.....»

«ترك أمي من أجلها، عمرها عشر سنوات وشافها وظل مولعاً بها، تجدف وتدفع قاربها في مياه هور أم الحناء، هل تعرفه، هناك في الشمال، هل ذهبتم هناك؟»

«....»

«الطنطل هناك يأخذ الأحلام من الغرباء ويجعلهم

ينامون بلا أحلام، الرشمة ابنة عبد شيخ العشيرة، عبيد الشيخ السود مخصيين، هل تعرف ماذا يعني مخصي؟»، قالت ذلك وهي تضع كفها على بطنها، وحينما قلت لها لا أعرف، انخفضت بكفها وحركتها فيما بين رجليها.

«والدها لم يكن كذلك لأنه يشتغل خصاي عند الشيخ، أسرتهم من العبيد تناقلوا هذه المهنة وسلموا من الاخصاء لأنهم يخصون باقي العبيد الذين يملكهم الشيخ، قارب الرشمة كان أسرع من سمكة الخشني، في يوم من الأيام التقاها أبي عند الجرف وحكت له حكاية عن الأسماك الذهبية وقوارب الفضة في هور أم الحناء، وظل يلتقيها كل موسم، تحدثه من داخل قاربها ولاتخرج منه، أبي لم يبصرها يوماً خارج القارب ودون أن تكون ممسكة بقصبتها التي تجدف بها. لما ترك الفلاحون أرض الشيخ وذهبوا للعمل في المعامل والسدود، أرسل إليهم عبده والد الرشمة كي يسحلهم من دشاديشهم ويجلبهم صاغرين، وقبل أن يصل إليهم استقبلوه بالحجار وشجوا رأسه، فهرب عائداً إلى الشيخ، الشيخ جمع مالديه من الرجال والأعمام والعبيد وحاول ارجاع الفلاحين، لكنه فشل في ذلك، لأنهم هربوا بعيداً خارج الأهوار، يأس الشيخ وقام مع أولاده بالعمل في الأرض، لكن والد الرشمة ظل يبحث عنهم ودارت الأيام وظفر بأحدهم فقدمه للشيخ، أمره الشيخ بأن يضع الفلاح في تابوت ويسحله في القيعان

ويطوف به على الكبائش والمستنقعات، وبعد أن تكسرت عظام الرجل ونضح التابوت بالدماء، اخرجوه وأركبوه على فرس برذون ودفعوه نحو أهله، حدثت بعد ذلك حرب طويلة بين العبد والد الرشمة وعشيرة الفلاح، تخلى الشيخ عن العبد وبقي العبد يقاتل وحده، ثم انعقد مجلسهم وصار على العبد أن يدفع الجزاء بعد أن قتل منهم رجلاً وأصاب ثلاثة، والجزاء هو أن يقتل وتؤخذ ابنته لتتزوج من قهوجي شيخهم. عاشت الرشمة مع القهوجي داخل صريفة تضمه مع زوجته الكبرى، ولمّا هربت بقاربها، خفوا بالبحث عنها، وتبرع الكثيرون لقتلها، أما هي فقد كانت تضع أبي على قاربها وتمخر مياه الهور متخفية، كانت تقترب منهم كثيراً وتتخلل بيوتهم الطافية على الماء وكانوا لا يشعرون بوجودها، الرشمة قائدة قوارب عجيبة تحبها مويجات الماء فتطيعها، أبي البدوي لم يسبق أن حطت أقدامه على متن قارب، فكان يتشبث بأطرافه وبعروته، لكن هذه القصة لم تستمر طويلاً، صوبوا الرشمة في رأسها وقتلوها وأخذوا أبي أسيراً، ولم يتركوه حتى بادلهم أختي فيَة، أخذوا فيَة وأعطوه عصا الرشمة وقصبتها التي تجدف بها، التي سرقتها أنت»

«أنا لا أسرق، ولا أصدقك، ولا أريد المشي معك»

هذا آخر ما قلته لحدبة، وقبل أن أنهي كلماتي رأيتها تتراجع إلى الخلف وتنفصل عني، تركض نحو نقطة ما، ثم تركض نحو نقطة أخرى بعد أن تصل إليها، شاهدتها

تنقب وتبتعد عني، تطوف حول التلال وتجتاح الخرائب وتخرج منها مثل ريح، ظلت تبحث عن الرشمة حتى اختفت عن أنظاري وفقدت قدرتي على تتبع جسدها الوادع الصغير.

لم تقاطعني عن حدبة التي عادت إلى رمالها تبحث عن فتاة أبيها، سوى سيارة جيب زرقاء من سيارات الشركة التي يداوم فيها أبي، كاد سائقها أن يصدمني بجبهتي وهو يضغط على المكابح، وضع سيارته أمامي ونزل وتوجه نحوي.

تنضغط داخل سيارته مساند ومخدات وستائر وأطفال وبنات، أما سقفها فقد شد عليه دراجة هوائية ومروحة، لمحت عيون الرئيس تحدق بي وهي تأخذ موقعها في صورة مؤطرة ومثبتة عمودياً مع المروحة، ودون أن يكلمني أو يتوقف لسؤالي، انحنى الرجل الذي يرتدي بدلة سفاري جوزية ونظارات سود واسعة؛ سحب يدي التي كنت أضعها خلف ظهري وقادني إلى السيارة، أمر أولاده بأن يفسحوا مجالاً لي، ورفعني من ثيابي وحشرني فوقهم.

سمعته يقول لزوجته الراكبة إلى جواره: «لن نطيل معه، سنسلمه لإمام المسجد وهو يتكفل به»

«خطية المسكين، عفية أبو وئام تكسب فيه أجر»

أما عياله فقد تأففوا كثيراً واتهموا بنطالي بأنه يبخرهم برائحة البول، ثم اتهموا فمي بأنه يطلق رائحة العفن في جو السيارة الخانق، فتح لهم أبوهم بضعة

سنتمرات من النافذة غير أنهم اتهموا شعري بأنه يحبس الهواء ويطلقه عليهم محملاً بالقمل والبراغيث.

لم يسكتوا عني إلا بعد أن تذاكى والدهم حتى يتخلص من شكواهم ورفع صوت المذياع: «هذا هو الحال الذي لا بد منه لسلام مشرف وحياة عز محفوظة من دس الدساسين وعدوان المعتدين وكيد الكائدين وقانا الله شرهم..فإننا نعلن استعدادنا..»، أخذ صوت الرئيس بقفل أفواه أولاده فكفوا عن مماحكتي، عم الهدوء باطن السيّارة لكنه لم يبلغ فك السيدة في الأمام، الراكبة بجوار زوجها، كانت تمضغ علكها وتمتصه ويتداخل إيقاع فمها مع خطاب الرئيس بمناسبة تقدم عمليات القضاء على الانتفاضة واسترجاع مدن عديدة، استولى عليها المنتفضون بعد خروج الجيش خاسراً من الكويت.

عرفت من ثرثرة الأولاد فيما بينهم أنهم قضوا في مخيمات الحدود أكثر من أربعين يوم؛ وها هو أبيهم جاء ليعيدهم إلى المدينة التي بدأت تستعيد هدوءها شيئاً فشيئاً، هدوء يسبق التعب في المحاولة، ويتقدمه خجل من فشل المساعي وعودة الحال إلى ما كان عليه نسبياً، فالكثير من العوائل ستعود منقوصة أو مترعة بالخيبة، تستعمل مسحوق بيض الأمم المتحدة المجفف لكل الوجبات، وتصنع سدادات من التمر لفوهات الفوانيس الزيتية الشاحبة، يتحملون انقطاع الكهرباء كعقوبة على تمردهم، وينظفون آذانهم ومناخيرهم من

سواد الدخان.

«طالع عليها»، قالت زوجته وهي تنظر إلي وتنهي موسم الهدوء الذي خيّم على السيارة وهي تعبر الجسر.

«إيه طالع عليها»، يجيبها زوجها وهو يدقق في وجهي في مرآته الأماميّة.

«يشبهها يشبهها جداً»، تضيف زوجته.

«هو وأخوه نسخة عن أمهم فيرونيكه»

«لا فيرونيكه لم تكن أمهم، ربتهم وعلمتهم ولا شيء غير ذلك»

«أنتم النساء أدرى بأخبار النساء»

«خليني ساكتة، دجاجة الجيران وزة!»

«جيراننا! لم تكن جيراننا، حتى ولا سابع جار، لكن هي أمرأة لها شنة ورنة في كل بقعة تحل فيها»

«دخيلك يا ربي»

يلتقط الرجل حبة عباد الشمس ويقضمها وهو يقود مديراً وجهه نحو اليمين، كأنه يبحث عن موضوع آخر يجعلها تنشغل عن أمي.

أظنهم لايعرفون بأني أسمع، أو يعرفون ويريدونني أسمع.

«تزوج ربيع هدى يوم كانت مساعد رئيس حفارين، هل تتذكر شكلها؟، يقولون أن ارتدائها لبدلة العمل يجعلها تشبه الرجال، لكنها تشبه الرجال معها وبدونها، تتكلم مثلهم، وتشتم مثل العمال وألفاظها قبيحة،

يستحي منها إبليس»، تستأنف الزوجة كلامها.

«إيه، مرة حينما كنت مسؤول المعاشات ويتطلب مني الأمر أن اعتلي البرج كل شهر، رأيتها عارية، ربي كما خلقتني؛ بصحبة العمال وهم عراة يضربون المطاريق ويشدون الأنابيب، كانوا يتضاحكون ولا يبدو نهائياً بأن أنفسهم ترغب بها رغم أن جسدها كان أجمل منها!، لم ألاحظهم وهم يتأملون جسدها حتى، هدى فحل محترم في العمل وتشتم بفظاعة..أوسخ وأقذع مما يفعل الرجال»

«عادت لك ذاكرتك أبو وئام»، تقول ذلك بخبث وتلتفت نحوي لتجد وجهي يخرج من بين أرجل أولادها الموزعة في أنحاء السيارة، مسدداً نظري نحوها ومستأنساً بالحديث، غير أنها لم تشعر بالحرج، أدارت رأسها نحو زوجها وأسهبت.

«أحبها ربيع وتزوجها في شهرين، عقدا قرانهما على شجرة رأس بئر نفطية، كانا يسافران إلى إيطاليا وباريس بين فترة وأخرى، علمته الكثير إلا القراءة والكتابة، ولم تتعلم منه شيء غير أن لسانها صار أنظف، لم تعد تضخ شتيمة بين حرف وحرف في كلامها وصارت تتطيب وترتدي الألوان»

«الصراحة أن جمالها كان طبيعياً ولا ينكره أحد، لكن لسانها أفسده، كلماتها كانت تحجب عنها عيون عمال متعطشين ولم يروا زوجاتهم لأسابيع»

«لسانها كان مثل الدرع يقيها ويطرد عنها البصاصين،

وتعافها بسببه نفس كل رجل، إلا ربيع»

يتحدثون وأنا أملأ سمعي بكلماتهم وكوع ابنهم الكبير يكاد أن يثقب خاصرتي، خفت أن أصيح فيتوقفون ويغيرون الموضوع.

«طلقها، صح؟»

«لا، اسمع، عاشا معا لسنوات طوال دون أن تنجب، لم تكن لديه مشكلة في ذلك، كانت مسيطرة وحاجزة على قلبه، حتى يوم الحادثة، لم يظهر أي نوع من الغل تجاهها»

«تقصدين حادثة قطع يده»

«نعم هي من كانت تمسك مقبض الحفارة وهي من تسبب بالمصيبة، تغيرت أحوالها بعد ذلك، لقد كانت حاملاً بالولدين، انجبتهم وبعد أن بلغا الخامسة بدأ مزاج ربيع يتغير تجاهها، أما هي فقد صارت روحها أخف بكثير وبدأت تصلي وتصوم، لكن مزاجه تعكر ولم يعد مرتاحاً لها كما في السابق، لا شيء يقول بأن يده المفقودة في الأعماق هي السبب، لم يسمعه أحد يشتمها أو يذمها بسبب خطئها ذاك..لكن مزاجه تغير والسلام، ولم يعد يحبها، وكان يضربها أمامهم ويعنفها، الله يسامحه ويسامحها، ماتت مقهورة»

«....»

«كنت المسؤولة الحزبية وكانت تحتي، تصوَر بأنها لا تفتأ تذكره في كل اجتماع حزبي، حتى التقارير الكيدية التي قادت إلى اعتقاله في النهاية، كانت تكتبها باسهاب

ممل، تشي به وتتغزل في السطر نفسه، تقارير هدى عن زوجها أطول من كلام الجرائد، أطول من لسانها..أطول من لساني»، تختم حديثها وتمهره بوصلة ضحك مقلدة ضحكات الساحرات في خواتيم الحلقات الأوَل لأفلام الكرتون.

استدار الزوج بسيارته وأوقفها أمام مسجد الصحابي الزبير بن العوام، وقبل أن يمد يده لتخليصي من كومة الأطراف المشتبكة بعظامي، ركلته وهربت، ركضت مبتعداً عن السيارة، وانتظرت حتى يدب فيهم اليأس ويغادرون.

أغلب الظن بأني كنت لا أنوي الدخول برفقته إلى الجامع وتسليمي كيتيم وفضلت الدخول وحيداً، لأنني وبعد مغادرتهم لم أبحث عن أي مكان آخر، ودخلت وحدي إلى غرفة إمام الجامع، سلمت عليه وحكيت له ما أتذكره مما حدث لي.

قضيت في ذلك المسجد سبعة شهور تقريباً، ثم قضيت السنوات القادمة في دار الأيتام.

نيسان، السنة 2013 الميلادية

عنوان: شاب قرر أن يخفي وجهه في مرحاض بورسلين مطلي بمادة مضادة للرصاص.

شريط أخباري: الانسان المرحاض يلقي خطابه الأول يوم الجمعة في الساعة السابعة مساءً.

منشور فيسبوك: مباشر..المرحاض يجيب على أسئلتكم، برومو برنامج حواري: تعالوا نناقش لماذا ينبغي علينا جميعاً أن نضع قناعاً من البورسلين.

تغريدة مدون مشهور: إنه زمن مابعد الخواء، والظاهرة البورسلينية الجديدة، في الماضي السحيق قرر الفيلسوف ديوجين أن يصبح كلباً وينبح ويتبول على الجميع، فالنباح أنفع من الحوار مع السفلة أحياناً، وهذا عباس ربيع يتحول إلى تواليت، معلناً سخطه على الاحتلال وعلى ما قبل الاحتلال وما بعده وما بين البين.

تعليق من صفحة سوشيال ميديا معنيّة بقص ولصق التعليقات المثيرة للاهتمام: أعرف عباس ربيع هذا جيراننا، عبقري بس عقله شوية مو تمام، قتلوا حبيبته ورموها في الشط، عنده اختراعات حلوة مفيدة، لكن للأسف لا أحد يرعى موهبته ويهتم بها، لك الله يا عراق.

تعليق آخر: المرحاض الشرقي أفضل للأمعاء من المرحاض الغربي، على الأقل لن تضطر إلى حمله على أكتافك وتجري به في الشارع.

ممثل سكيتشات في فيسبوك، يتنكر بزي رجل قعيد ولا يتوقف عن السعال الممزوج بحديث غير مترابط، يحيط نفسه ببطانية مقلّمة ويربطها بجسده بواسطة شريط قماشي أبيض على هيئة المجانين المرحلين إلى الحجر الصحي. ويلصق شارباً كثاً جداً تحت خيشومه، من الواضح بأنه يحاول محاكاة نسخة كوميدية من نيتشه: سوشل مديا!، تلك المؤخرات المتكلسة تبحث عن الشهرة حتى لو كلفها ذلك وضع وجوه الكلاب على رؤوسها، يظنون أن أحداً سينشغل بهم، لا يتناقشون في السوشل مديا!، يظنون بأنهم يتناقشون ويتواصلون لكنهم على خطأ، إنهم يتناحرون ويتطاحنون ويتناطحون ويتفشخرون ويتمضمضون، إن وظيفتهم طمس الحقيقة أو التشويش عليها بنهيقهم، أباس ربيئ له المجد وله الغد الأفضل، بعض الرجال مثلي ومثله يولدون فقط بعد مماتهم، الحياة مفهومة أكثر لو نظرنا إليها من ثقب في المرحاض، أنا عبوة ديناميت وهو قطعة بورسلين، لا نريد أن نكون قديسين، غاية المنى هو أن نكون مهرجين، أنا وأباس، لأننا حقاً أضحوكة، هل تسمعون أزيز البراكين في فورنابوزا؟، هل تتأملون أصوات القردة في استاثونيا؟، هل بلغكم صفير الليل مع الدعاسيق؟، إنها قهقهة لو ترهفون السمع!، كل شيء يقهقه من شدة التفاهة، وحدهم الفلاسفة العظام من يسمعونها ويدركون بأن هذه ليست أصوات الطبيعة إنما ضحكة الكون المدوية على نفسه.

اعلان: فلتر رأس المرحاض للإنستغرام والسناب جات.

أعود من التجوال في الأزقة والدرابين إلى منزلي بعد ظهيرة كل يوم، أنظف رأسي وأصلحه وأرمم كسوره وأردم الثقوب التي تصنعها مقذوفات الطائشين والأولاد الذين يطاردونني، أتمتع بمزية التلفت الطبيعي لعنقي بعد أن أقضي ساعات وأنا غير قادر على التلفت يميناً أو شمالاً، أحذف إيميلات الرفض الأكاديمية اليومية وأطردها من صندوق بريدي الألكتروني، واتفرغ بعد كل ذلك لفتح المرحاض، لقد صنعت حزاً بطول عشرة سنتمترات وبعرض نصف سنتمتر، يشبه فتحات صناديق البريد والشكاوى. لم أعلن نهائياً أن هذا الحز هو الفوهة التي أتلقى من خلالها شكاوى المواطنين واستفساراتهم وأنا أذرع الشوارع وأمشط السكك، لكن الناس فهموا ذلك من تلقاء أنفسهم، على أني كنت أضمر تلك الفكرة ولم أصرح عنها، لأفسح مجالاً للحوار مع أناس يفهَمونني، فمن يفهمني يعرف الطريق إلى مصنع الأفكار في رأسي، وسيحسن التواصل معي ويجد طريقاً توصله إلى عقلي، فالمرحاض ليس كله رأسي، ومثل أجزاء الدماغ في الجمجمة، فرأسي يتموضع في الجزء الأيمن الخلفي من المرحاض، حيث يمكنني الإحساس بأوراق الناس وقصاصاتهم وهم يدسونها في الفتحة البريدية.

في البداية وصلتني قصاصة وحيدة ولم يصلني

غيرها خلال أسبوع، كان صاحبها يسأل إن كنت أحمد جار الله زميله في إعدادية التفيّض القديمة، أنا لا أعرفه ولا أعرف صاحبه ولا أدري كيف ظن بأنني هو، وحينما شرعت بكتابة رد له نافياً فيه صلتي بالاسم ومعرفتي به؛ تحيرت في كيفية إيصال الرد له، وفي الطلعة التي بعدها حينما تلقيت رسالة أخرى دسها رجل على عجل وركض مخلصاً نفسه من فضول الصبيان، شعرت بأن هؤلاء لا يبحثون عن جواب بقدر بحثهم عن فوهة أو حز لدس الأسئلة.

في غضون الأسبوع الأول تجمَّع عندي كيلو ونصف من الأسئلة، عمدت إلى تبويبها وفهرستها ودمغها بالتأريخ والوقت، أسئلة الناس العجيبة والحزورات والفوازير والأحاجي أعطيتها أهمية درجة أ، أما أمنيات البنات وموظفات شركات النفط والاتصالات والملايات والطبيبات ومهندسات البزل وشرطيات تفتيش النساء في المراقد والمزارات والمناسبات فقد اعطيتها أهمية درجة ب، وهنالك أسئلة وجودية تجد طريقها إلى فتحة المرحاض تتعلق بنظريات الخلق والنشوء وعلم التطور والسلالات والجيولوجيا الفتاتية والجينات والفيزياء الفلكية والكمومية؛ وهذه كنت أجيبها بجواب موحد، لكني لا أرسله إلى أحد، وخلاصته:

مرحباً، أنا أؤمن ولا أؤمن بالعلم، تأخرتم كثيراً، ليتكم أرسلتم هذه الأسئلة حينما كنت أؤمن بالعلم، لكني الآن؛ للأسف، أؤمن به ولا أؤمن به. ليس بمقدوري تخيل

فكرتين تتصارعان مثل دودتين تحت الرمال، تستخدمان كل ما هو متاح للغلبة والظفر، وتنتصر واحدة في النهاية، لا يمكن أن أرى الأمور كما أرى الديكة تتعارك لتنتخب الأقوى، لقد كتب الشعراء الشعر لأن المختبرات والحوارات الفلسفية تعجز كثيراً عن استيعاب ثقل الحقيقة، واخترع الناس القصص الخرافية لإثبات ما لا يمنكهم اثباته بالكلام والمنطق، فكيف لي أن أؤمن بالعلم وحده، بينما يحتاج إدراك هذا العالم السخيف إلى أكثر من عدسة مكبرة لفهمه، أشعر بأني محتاج اليوم إلى قراءة أطنان من دواوين الشعراء وشاحنات معبأة بالروايات والقصص وأضيفها إلى ما قرأت من بيانات مختبرية ونظريات طبيعية، لم تخترع صبرية ولا الشعراء أصحابها أسلحة كيمياوية كما فعل العلماء، لكنهم امتدحوا الرجال الذين استعملوها ونفخوا في ذواتهم، فالحطام والدمار والقذارة، أشياء لا تحتاج إلى العلم فقط، بل إلى شعر الشعراء كذلك. العنصريات ولهاثنا لإثبات بأننا العرق الأفضل، ليس لسواد عيون العلم بل لدعوى السيطرة والاستحواذ على الآخر ولكي نشعر بالسرور عن أغلاطنا ونحن نستصغر الناس ونضعهم تحتنا؛ العلم ليس له عينان ولا أذنان ولا قلبان، لا يسعني الإيمان بشيء يستخدمه كل المؤمنين للبرهنة على صحة إيمانهم بما يؤمنون، أثق به كما يجب أن أثق بملابسي الداخلية من ناحية قدرتها على ممارسة دورها، لكني لست ملابسي الداخلية، وأنا أكبر حتى من

الأشياء التي تحرسها وتمنعها من الانكشاف، وفي رحلة بحثي عن أرنبي المفضل لم أجد في فترة من فترات حياتي غير العلم أرنباً أطارده، لكني فقدت ثقتي به لأنه تحول إلى مطرقة أخرى في سوق المطاريق التي يبيعها الناس لبعضهم البعض لقهر الخصوم، في النهاية لا أحد يريد تغيير رأيه ولا مراجعة قناعاته، وما نريده هو أن تتغير قناعات الآخرين من أجلنا، نحن آلات متطورة جداً فيما يخص إرضاء أنفسنا واعتناق أي عقيدة تشعرنا بالرضا عن اخطائنا.

ثم أذيل جوابي بشتيمة قاذعة، على طريقة الفلاسفة الكلبيين في مواجهة خصومهم؛ كطريقة للتعاطي مع العالم.

أعطيت هذه الأسئلة الدرجة ت.

طورت منظري وأضفت جزمة مطرية على زيي، ليس لها محل من الإعراب فيما يتعلق بالإنسان المرحاض، لكنها أكثر أماناً في حالة المشي سيّما وأنا لا أرى بشكل جيد، ولأنني فارع الطول صرت أحمل على ظهري تختاً خشبياً صغيراً لأساعد قصار وقصيرات القامة في دس قصاصتهم الورقية في بريدي. صرت أقطع مسافات أطول من اللازم وأبلغ الأقضية والنواحي والقصبات. أخترق سكون الليل وأطرق البورسلين فيتجمع الناس ويزمجرون حولي ويضربونني ثم لا يتأخرون عن وضع أوراقهم في رأسي.

الأسئلة ذات الفئة ج، على وزن الإنذار جيم المشدد

في التحسبات الأمنية القصوى، كانت عن صبرية، منحتها أعلى رتبة وأوليتها اهتماماً بالغاً.

لم تكن تصلني بأعداد غفيرة، لكنها كانت نوعية وتستحضر انتباهي.

القصاصة الأولى، كانت ملفوفة مثل سيجارة، لا بد أن صاحبتها قد لفتها باستخدام قلمها المعطر: السلام عليكم، أنا زميلة صبرية، أعزيك في بادئ الأمر وأشد على يديك، لم تحدثني عنك نهائياً، كانت تظن بأني أسرق أشعارها، الله يغفر لها، على كل حال.. سمعت من الناس عن قصتك معها، حزنت جداً وشعرت بالخوف بعد أن سمعت بالحادث، ارجو أن تكف عن تدويخ نفسك، لم يعد الناس يموتون في سياق بوليسي، هذا ما يحدث في الروايات فقط، عرفت بأنك تكره الروايات، فلماذا تتعامل مع الدنيا كما لو كانت رواية، لا يوجد قاتل مختفي هنا لنحاول البحث والتحقق حتى نعثر عليه. هنا، لا خيوط للجريمة حتى نتتبعها، إنها ظفيرة تسقط من أعلى كرسي الحلاق الذي نعيش تحته.

القصاصة الثانية: كم تحتاج من الوقت لصناعة مرحاض مضاد للرصاص، سأعطيك كل ما تطلب، هل تصنعون رؤوساً خاصة بالمحجبات؟، وشكراً.

القصاصة الثالثة، مكتوبة على ورقة سجل مدرسي مخطط، يبدو إنها مخلوعة من دفتر الواجبات، لأن هناك بقايا رموز رياضية في أعلى الورقة: قالت لي صبرية ذات يوم، أدرس كي تصبح مثله، أي مثلك عباس ربيع،

أنا أحب الرياضيات والعلوم، فهل تعتقد بأني سأصبح مثلك ذات يوم؟.

أجبت صاحب القصاصة في سري: لا أحد مثلي، العالم لا يتسع لرجلين مرحاضيين هاهاها.

مزقت عدداً لا بأس به من القصاصات ذات الفئة جيم؛ لأنها اشعرتني بالسقم والخواء فعلاً، وقطعت عليَّ خلوتي مع فاصل الضحك الطويل الذي أعيشه، وأصبحت أفكر حقاً بطريقة تجعل بريدي يفلتر نفسه ذاتياً ويمتنع عن إدخال هذا النوع من القصاصات.

القصاصة الرابعة، مطبوعة بالإنجليزية: تحية طيبة، نود اعلامك بأننا مسرورين جداً لاحتضان بحثك الموسوم (المصادر الضمنية لطاقة التدوير الجاسئ والمبدأ الحزدقي للسرعة والتزامن) ضمن منهاج فصلنا الدراسي الجديد لطلبة الدكتوراة، ستتشرف بكم أروقة جامعتنا ومدرجاتنا الأكاديمية، لقد خدم هنا عشرات الأسماء اللامعة ومن الحاصلين على نوبل وميداليات التقدير الوطنية، ستتكفل منحة جامعتنا بكامل تكاليف السكن والضمان الصحي ونفقات المعيشة، سنبعث لك التفاصيل لاحقاً، هل تفضل السفر بالبلم العشاري أم على متن طيارة ميراج؟، مع تحيات جامعة خالتك الشركسية.

لا أعرف حقاً لماذا وضعت هذه القصاصة في خانة الفئة جيم، ربما لشعوري بأنها ترتبط بالمناخ المشترك مع صبرية بنحو ما.

القصاصة الخامسة: كلبة مبللة بالمني والجراثيم، ذبحوها وماتت وتعفنت في الشط، ونحن نقتل كل يوم، كل يوم، بالجملة، لماذا لا تلبس مرحاضك من أجلنا، يا ساقط.

القصاصة السادسة: أعرفك ولا تعرفني، ربما لأنك غرّ مريض ولا تلقي التحية على الآخرين، تتجنب مخالطة البشر لنقص عقلك وخمول فكرك، رغبت بك صديقاً لكنك للأسف لا تمنح مجالاً للتهوية في عزلتك وبؤسك، تمتع بالعار وحدك، لا يشرفني معرفتك الآن، كنت أتوقع ذلك المصير لصبرية، ليس لأنها كانت تمثل ضرراً أو خطورة على أحد، بل لأنها صيدة ممتازة لإثارة القلاقل اللحظية، هناك من يجيد من جعل نفسه نتوءاً في مسننات عواجل الأخبار اليومية، أو قطرة زيت في عتلة نشرات الأخبار اليومية، يحركون به العجلة ثم لا يتذكره أحد، يموت هو وأشعاره وحروفه متكفناً بأوراقه، مثلما تتحلل جثته وتنخرها أسماك الشط، تتحلل ذكراه وتنسى كما لو لم تكن موجودة، ذق إنك أنت العزيز الكريم، ولا كرامة للتعساء ولا عزاء للمغفلين ولا مجد في التواليتات، والسلام على من نجا، وملعون أبو حظي ومنطقي وخباثة معدني.

القصاصة السابعة: التقيتك ثلاث مرات، عملت مترجماً مع البريطانيين وكنت وسيطاً ذات مرة بينك وبينهم، جئت زيارة إلى البصرة قبل أيام وسمعت بك، وقررت اللحاق بك ومطاردتك حتى ظفرت بك وها أنا

أقذف هذه الرسالة في صندوقك لعلك تطالعها، أردت فقط أن أشير إلى أن اختراعك الذي قدمته يومها كان من أعز الذكريات على قلبي وأكثرها انطباعاً في مخي، أسأل الله أن يوفقك، لقد امتعتنا وجعلتنا في عز واجباتنا الخطرة نتذكرك ونضحك، أتذكر جيداً كل التفاصيل، جئت أنت مع بنت ترتدي نفنوفاً حليبي، قدمت نفسك لي على إنك صاحب اختراع مهم، وكنت تحمل ملكاناً جلبته من محلات الملابس، والاسلاك الصغيرة تتدلى منه ومن فمه ينزف زيتاً وأصباغاً غذائية، وعدتك بأني سأقدمك لهم في الأسبوع القادم لكنك أبيت إلا الانتظار لتسع ساعات بلا طعام ولا شراب في الخارج، ورفضت أن تأكل من الطعام الذي جلبته لك، ولما سمع القائد بقصتك خرج لك بنفسه وأدخلك إلى القصر، سحبك إلى غرفة نوم صدام حسين في قصر جعفر آغا سابقاً، وطلب منك أن تتفضل بشرح اختراعك. شمرت أنت عن ساعديك وأوقفت التمثال البلاستيكي، وطلبت من القائد أن يسأله عن اسمه مدعياً بأن المليكان سيجيب، وقبل أن يتم القائد سؤاله أجاب المليكان: فاضل ربيع.

اختنقنا بضحكاتنا جميعاً ثم ضحكنا بعد أن أرجع القائد كرسيه إلى الخلف وأطلق ضحكة خافتة، اعتذرت أنت وطلبت منه أن يعيد السؤال، ترجمت أنا السؤال فكرر القائد سؤاله: ما اسمك؟، ومرة أخرى قبل أن ينهي القائد سؤاله صدر الصوت المسجل في المليكان قائلاً:

فاضل ربيع.

وعندما طلبت من القائد أن يسأله أسئلة أخرى، تلعثمت أنت وسقط التمثال لأنك كنت تضغط على أكتافه بقوة، تفككت أوصال المليكان وتدحرج رأسه تحت السرير، الحفرة التي صنعتها في جوف المليكان وثبتَّ عليها الأجهزة الالكترونية، افرغت محتواها وظهر التمثال مثل المريض الذي أجريت له عملية جراحية وتناثرت أعضائه.

بعدها، طلبت مني أن أبلغهم رغبتك بالاستئذان والخروج، وحينما فعلت؛ شكرك القائد وصفق لك الجنود، توجهت أنت نحو الباب من دون أن تأخذ رجلك الآلي، فقلنا لك لا تنسى المليكان، فرجعت خطوتين إلى الوراء ورمقتنا جميعاً بنظرة لا أنساها، ثم التفتَّ نحو رجلك الآلي وأنت تقول لنا: على الأقل سأخيط بطنه بعد أن فتحتها.

هل تعرف بأن القائد أرسل لي رسالة بعد ذلك بسنوات، يخبرني بها عن تذكره الدائم لك، لقد علقتْ كلمتك في رأسه، لأنه يظن بأنه ساهم بفتح بطن وطن كامل دون أن يخيطها وتركها مشرعة لشذاذ الآفاق ومسرحاً لحماقات بلاده.

القصاصة الثامنة: أثر الفراشة لا يرى.

القصاصة التاسعة: أثر الفراشة لا يزول.

القصاصة العاشرة: في آخر الغابة.

القصاصة الحادية عشر: تموت الأفيال موتتها.

القصاصة الثانية عشر: مكان هادئ في آخر الغابة.

طورت المرحاض وزودته بمروحة صغيرة تنث هواءً بارداً إلى وجهي، لا يعرف الناس بأمر تلك المروحة ولو عرفوا لحسدوني على بشرتي الجافة المستريحة خلال ساعات الحر والرطوبة وانقطاع التيار الكهربائي، كانت لدي مشكلة صغيرة في الذهاب إلى الحمام، فقد استصعبت استعمال المرحاض وفضلت الحمام الشرقي عليه، وكان منظري وأنا في الخلاء والمرحاض يعتليني ولا أعتليه يثير عندي شعوراً خاصاً. بفضل المروحة والزيادات الطفيفة اللاحقة صار رأسي متزناً أكثر ومسترخياً حد الراحة التامة والانقطاع عن الخلق.

تهيأ لي أن أغفو طويلاً وأنا على تلك الحال، وأصبحت مثل الأفيال تنام واقفة، وزن رأس البورسلين متمركز بطريقة تساعدني على الاتكاء على الحائط والاستناد على قدم واحدة، فكنت أغفو منتصباً أو شبه مائل على حيطان الأزقة الفارغة في ساعات الظهيرة.

أنا فيل، ولست أي فيل، أنا واحد من أفيال البريكان في قصيدته، لكنه فيل ضال، عاق بالقصيدة وصاحبها، خرج منها وقرر أن لا يموت في آخر الغابة؛ بل يغفو.

استطعت أن أحلم بغزارة، تساقطت عليّ الأحلام مثل الرز والسمسم على رؤوس العرائس في الأفراح، والأهم من ذلك توقفت عن استحضار أفكار يونغ عن الشعور واللاشعور في الأحلام، لم أعد أركز في جعل الأفكار والصور تترحل إلى اللاشعور كي أتلقاها في المنام،

فكثيراً ما كان يفشل مسعاي هذا، لأني كنت أقلد البهلوانات وأتدرب على مناقلة الأفكار من مرحلة الشعور إلى اللاشعور والعكس بالعكس، وهذا مضن وغير معقول، فنحن لا نستطيع التحكم بكل شيء في هذه الآلة التي يسمونها الانسان. تخلصت من نازيتي العلميّة وفتحت مجالاً للأشياء حتى تحدث دون ترقب واصطبار، قذفت بنازيتي العلميّة في الشط واستمتعت بحرّاس النوم، لأن الأحلام حراس الأحلام كما تقول فيرونيكا في كتابها، بل عنونت كتابها بأكمله بحرّاس المنام، وأهدته إلى «فاضل وعباس»، وصلني الكتاب كهدية بواسطة صندوق بريدي الجامعي يوم كنت محاضراً منتدباً هناك، كنت قد عكفت على البحث على مترجم له لكني توقفت عن ذلك لأني أصبت بالخمول وكساد الهمة في تلك الأيام.

إذا لم أكن نائماً داخل رأس البورسلين فأنا اقرأ، نعم فلقد وضعت داخله مصباحاً صغيراً يسلط نحو الكتاب المثبت أمام وجهي. وإذا لم أكن أقرأ أو أحلم فأنا أمشي واتلقى بريد المعجبين والمعجبات، والمغرضين والمغرضات، ورسائل الترحيب الساخرة من جامعات يختلقها الناس للضحك عليّ.

خلال نومي تحت الجسر أحسست بأصابع تنقر على المرحاض، تجاهلت الأمر وعدت إلى الحلم، من الجيد أننا لا نستأنف أحلامنا إذا انقطعت نومتنا فجأة، لأن عملية المونتاج وربط الجزئين ببعض هي ممارسة

شعورية وخارج مسؤوليات الأعصاب المسؤولة عن الأحلام، ولو حدث ذلك لصارت الأحلام والمنامات مملة جداً.

أدرت ظهري للناقر محاولاً إبلاغه بأني لا أرغب بالتواصل مع أحد، وبعد أن استمر بالنقر والضرب على رأسي أومأ له بيدي نحو فتحة البريد عله يفهم بأن الطريقة الأمثل لمخاطبتي هي الكتابة لي.

غير أن النقر لم يتوقف.

«أرجو أن لا تخرج عن النص وتلتزم بالاتفاق»، صوت صبرية يدخل إلى مرحاضي صافياً وصريحاً.

«اتفقنا أن تقلدي صوت رجل»

«أنا أحاول، أليس هذا صوت رجل؟!»، تجيب وهي تخشن صوتها وتفخمه.

«أوكي أوكي، لنعيد المشهد من جديد»

اسمع نقرات على رأسي المرحاضي، أتظاهر بعدم الاهتمام، تشتد النقرات لتصبح ضرباً، ثم تستخدم يد الطارق حصاة أو حديدة وتطرق رأسي، يرهقني الطرق فأصيح:

«ماذا تريد»

«عباس، ارجو أن تقرضني من وقتك ربع ساعة»، تقول ذلك باتقان وحرفية.

«ماذا تريد ومن أنت؟»

«اسمي مدين حيّاوي، كاتب ومؤلف قصص وروايات،

جئت من أمريكا لزيارة أهلي، أخبرتني دودة قصص واشنطنية بأن حياتك قصة، فتمت مفاتحتي حتى أكتبها، أستاذ عباس...مطلوب مني أن أكتب سيرة عمرك»

«أنت لست صبرية، صح؟»

«لا لا أنا مدين»

«ستكتب عني رواية؟، صبرية كانت تنوي فعل ذلك، لكنها كانت تبحث عن طريقة للتواصل معي»

«عباس أنت تخرج عن الخطة، أنا صبرية وهذه هي طريقتي، أنت تتخيل أمور وحاجيات وقصص لم تحدث، أنا هنا لمساعدتك، الخطة هي أن أدعي بأني عراقي مغترب واسمي مَديَن، أنت من اخترت هذا الاسم ولست أنا، مدين هو اسم اخترعناه بعد أن أجرينا قرعة على عشرات الأسماء»

«هل تقدر يا مدين أن تكتب الحقيقة كما هي من دون أن يقبض عليك شرطي الزمن؟»

«سأكتب مقدمة صغيرة أدعي فيها بأني مكلف بالكتابة عنك وأضعها في مقدمة الرواية، سأحاول أن أكتب ما تمليني إياه حرفياً، سنكتب عن ما تقوله لا عن ما حدث، هذا هو التأريخ أليس كذلك؟»

«بل هذه هي الحقيقة، غير حقيقية وهذا كاف لأن نسميها حقيقة، لكن، ألا ترين بأن ما حدث فعلاً أنذل من الحقيقة نفسها؟»

«لا تشوش أفكاري، احتاج إلى التركيز معك، لنعيد هذا مرة أخرى..سنكتب كل شيء إلا أنا، اقسمت لي بأنك ستحذفني من لسانك وعقلك، كل قصتك حقيقية إلا ما يخصني، أنا لم اقتل يا عباس ولم يقذفني أحد في الشط، لولا أن الناس يعرفون وضعك لصدقوك»

«أنا وفاضل وربيع كثافة وفيرونيكا وحدبة والرشمة وأبي الرشمة وأمي وكل ماحولنا في البرجسية هو حقيقي، كل شيء حقيقي إلا أنتِ، أقر وأعترف»

«عال العال»

«هل تحبيني؟»

«أستاذ عباس!، هل نتوكل على الله وتخلع البورسلين من رأسك لنبدأ بالعمل»

«هل تحبيني؟»

«أستاذ عباس دعنا نبدأ، سأتركك وأذهب»

«لا لن أكون وحدي مرة أخرى، هل تغذين غرورك بسماع توسلي وانسحاقي؟»

«أستاذ عباس، سأدون كل ماتقول، لكني غير ملزمة به، أنا لم أكن حبيبتك يوماً ولست معجبة نهائياً بك، من الناحية العاطفية أقصد، عدا ذلك، أنا احترمك وأقدرك، أنا هنا لمساعدتك واعادتك إلى الحياة في الأعلى»، تقول ذلك وهي تؤشر نحو سقف الجسر.

«تتخلين عني إذن، تتركين موهوماً ومصاباً بالتخيلات ومحاصر بالمصاعب والطبول الصاخبة تقرع

رأسه»

«أنا هنا لاخراج الطبول من رأسك، أنا هنا لتدوين صدقك وأكاذيبك وقصصك المتخيلة واللامتخيلة، لدي زوج وطفلة في المدرسة الابتدائية، لدي عائلة تحتاجني وأنا هنا أسرق من وقتهم من أجلك»

«يكفي أن تكوني هنا، كوني هنا دائماً، يتوقف رأسي عن اصطناع العوالم الموازية حينما تكونين هنا، لا أريد أن أرفع البورسلين عن وجهي، لا أريد أن أرى وجهك، لا أريد أن أرى وجهاً مغايراً للوجه الذي صممته في عقلي»

«هل نبدأ؟»

«أحبك صبرية»

«نادني مدين حيّاوي»

«لا تعرفين شيئاً عن الحب، لا أحد يعرف، قلة قليلة من الناس من يعرفون، أناس من فصيلة ابن سينا وباسكال والجاحظ وسبينوزا ونيتشه وشوبنهاور وغانيش وجبران، كل الشعراء والمطربين يكذبون ويتفوهون بما لا يعرفون، إنه جرثومة في الدماغ تنخر الأخضر واليابس، العشق على قدر العقلانية مثل الأجر على قدر المشقة، عقلي يحتاج إلى الأوهام مثل النيكوتين، لكني رجل بلا عقائد وروحانيات، وعليّ أن أعمّر رأسي بتبغ المشاعر والأشباح كل يوم، فماذا عساي أن أفعل. أعرف بأنك لست صبرية بالضبط، وأعرف بأنك تخليتِ عن صبرية الشاعرة وتركتِ كتابة الشعر إلى تربية الأرانب والفئران، آسف أقصد البنات والبنين،

أعرف بأني أضفت إلى نسختك الأصلية محسنات وزخارف من عندي، أنتِ لا تعرفين البريكان ولا هايدغر، أضفت إليك صفات امرأة أخشاها صنعتها باحكام، وحبستها هناك...في العقل الأدنى، في الوعي الجواني، وصدقتها، وصنعت لك قاتلاً أيضاً، وهذا ما لم أتعب في تصنيعه وهندسته، فالقتلة متوفرون مثل البطيخ في الصيف، أنا انسان في آخر المطاف، إنسان من غرفة وحمام وكراج محتشد بكراكيب الذاكرة، وسلم حلزوني يقود نحو بيتونة يلعب فيها فاضل وهو يخرج من حفرته كل يوم»

«.....»

«أحبك صبرية»

«أعرف ذلك وأنت تعرف أني أعرف، هل نبدأ أستاذ؟»

«نعم، تفضلي..أوه، تفضل أستاذ مدين»